رحلات

ألبرتو مورافيا

إلى أيّة قبيلة تنتمي؟

ترجمة: نبيل رضا المهايني

مكتبة #914

البحث عن الشرق

مكتبة | سُر مَن قرأ

إلى أيّة
قبيلة تنتمي؟

رحلات

Author: **Alberto Moravia** — اسم المؤلف: ألبرتو مورافيا

Title: A quale tribù appartieni? — عنوان الكتاب: إلى أيّة قبيلة تنتمي؟

Translated by: **Nabil Reda Al Mahaini** — ترجمة: نبيل رضا المهايني

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy** — تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al–Mada** — الناشر: دار المدى

First Edition: **2019** — الطبعة الأولى: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © 2019 Bompiani / Giunti Editore S.p.A.

Firenze-Milano

First published under the imprint Bompiani in 2016

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290
www.almada-group.com email: info@almada-group.com

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

٢٠٢٢٨٩ مكتبة

t.me/t_pdf

ألبرتو مورافيا

مكتبة | سُر مَن قرأ

إلى أيّة قبيلة تنتمي؟

#914

ترجمة : نبيل رضا المهايني

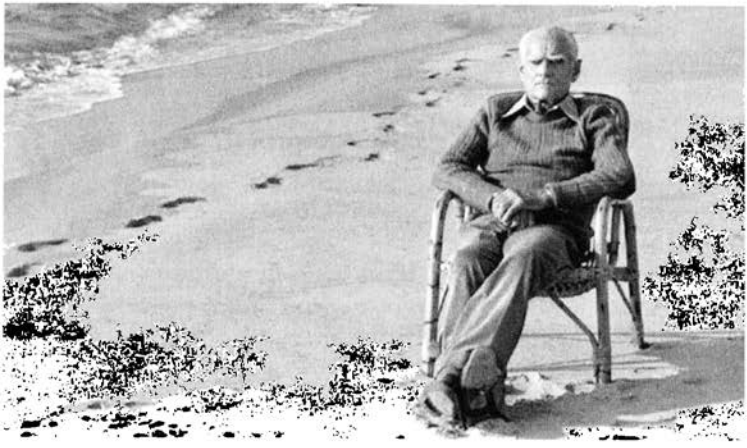

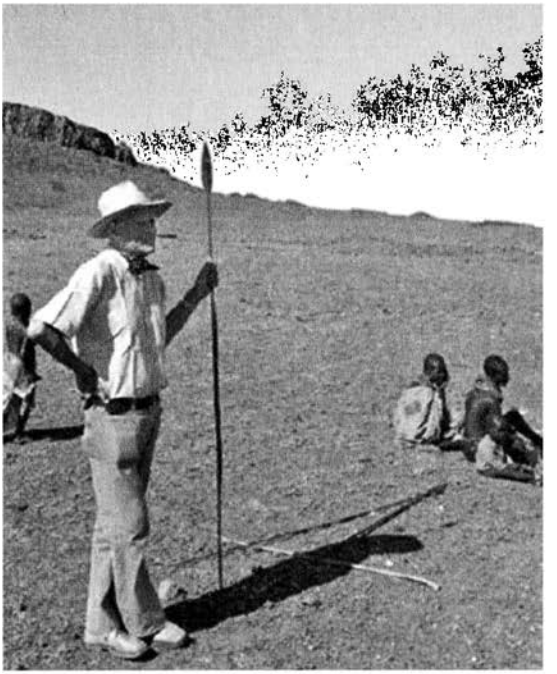

مورافيا الذي عرفته
صداقته، حياته وأعماله

بقلم: نبيل رضا المهايني

ألبرتو مورافيا أمام مكتبته في بيته في روما مع مترجم الرواية
خلال السبعينيات من القرن الماضي

تعرّفت إلى ألبرتو مورافيا في السبعينيات من القرن الماضي، بُعيد وصولي إلى روما قادماً من مدينة فلورنسة التي بقيت فيها لأربع سنوات وأنهيت فيها دراستي الأكاديميّة. تعرّفت إليه من خلال صديقه الكبير المخرج السينمائيّ والشاعر بيير باولو بازوليني. وقد قمت من وقتها بإجراء كثير من المقابلات الصحافيّة معه، نشرت في مجلّات أدبيّة لبنانيّة وسوريّة، كما ترجمت له حينها رواية «أنا وهو» التي نشرتها دار

الآداب البيروتيّة عام 1971. كما كنت صلة الوصل بينه وبين العديد من الأصدقاء الصحافيين والمفكّرين العرب الذين كانوا يأتون وقتها إلى روما، كما بينه وبين الكثيرين الأدباء- الدبلوماسيين العاملين هناك، من أمثال توفيق يوسف عواد وحافظ الجمالي. وقد عمل على توطيد صداقتي معه حبّه للقضيّة الفلسطينيّة، ووقفة احتجاجه المؤثّرة عندما تمّ اغتيال الشهيد وائل زعيتر من قبل إسرائيل.

صورة أخرى لألبرتو مورافيا في بيته في روما، مع مترجم هذه الرواية خلال السبعينيات من القرن الماضي

وقد سررت اليوم جدّاً عندما قبلت دار المدى مشكورة بشراء حقوق ترجمة بعض كتب مورافيا، ومنها كتاب «إلى أيّة قبيلة تنتمي» هذا، ليتمّ نشرها بالعربيّة. لقد جعلتني ترجمة هذا الكتاب أعيش من جديد كثيراً من لحظات حياتي في روما ولقاءاتي مع مورافيا، الذي لا يسعني إلّا أن أذكر له تشجيعي على المضيّ في الرسم بعدما شاهد بعض لوحاتي وزار معرضي الأوّل «لوحات من الشرق» الذي أقمته في روما عام 1975، وقدّم له كلّ من بيير باولو بازوليني وزوجة مورافيا الأديبة داتشا مارايني. وقد قال لي مورافيا وقتها إنّه معجب بـ «حسّ الألوان» الذي يطغى على اللوحات.

المترجم مع مورافيا والمستشرق فرانشيسكو غابريلّي
في معرض لوحات نبيل المهايني في روما عام 1975

هذه شذرات عابرة عن مورافيا الذي عرفته، والذي سيعرفه القارئ من خلال هذا الكتاب ليس كرحّالة من نوع خاصّ، بل ككاتب أيضاً وأديب تتجلّى روعته من خلال سعة خياله ونظرته الثاقبة وقوّة ذاكرته ومقدرته التعبيريّة الأدبيّة المؤكّدة.

لكن لا بُدَّ من استعراض المراحل الرئيسة من حياة هذا الكاتب الكبير، ويسعدني أن أقدّمها هنا من خلال قراءاتي عنه، وكذلك من خلال مقدّمة كتبتها إيلين رومانو في مقدّمة كتاب مورافيا، الذي أقوم بالترجمة عنه.

ولد ألبرتو مورافيا (اسمه الحقيقي ألبرتو بنكيرليه) في روما في 28 تشرين الثاني عام 1907. كان أبوه كارلو بنكيرليه مورافيا مهندس معمار ورسّاماً ينحدر من عائلة من البندقيّة. أمّا أمّه فكانت من مدينة آنكونا

اسمها جينا دِمارسانيش. كان في العاشرة من عمره عندما أصيب بشلل العظام، فاضطر لترك مقاعد الدراسة، وانكبّ على المطالعة وهو في سرير المرض، فقرأ لعظماء مثل دستويفسكي وغولدوني وشكسبير وبودلير وليوباردي ومانزوني وإيليوت وآبّولينيير إلخ...

عاش طفولته متمزّقاً بين حياته البرجوازية في حضن العائلة، وبين ما كان يراه من بؤس الحياة في ضواحي روما الفقيرة. كما أنّه أصيب في التاسعة من عمره بمرض سلّ العظام الذي لازمه حتّى سنّ السادسة عشرة. قال مورافيا بعدها عن هذا المرض: «إنّه أهمّ مراحل حياتي». قضى ثلاث سنين في السرير في بيته، ثمّ نقل إلى سرير آخر في المصحّ. لذلك فقد انقطع عن الدراسة خلال تلك الفترة، لكنّه بقي يدرس في البيت كلّما تمكّن من ذلك. ولم يحصل إلّا بصعوبة على الشهادة المتوسّطة «شهادتي الدراسيّة الوحيدة». لكنّه عوّض عن هذا بالمطالعة المتواصلة. حتّى إنّه اشترك في شركة تتيح استلام طرد من الكتب كلّ أسبوع، «فكنت أقرأ كتاباً كلّ يومين تقريباً». بدأ في تلك الفترة بكتابة أشعار بالفرنسيّة والإيطاليّة، لكنّه وصفها فيما بعد بأنّها قصائد تعيسة قبيحة، كما حاول دراسة الألمانيّة، علماً أنّه كان يعرف الإنكليزيّة.

في عام 1925 شفي تماماً من مرضه، فترك المصحّ وذهب إلى مدينة بولزانو ليقضي فترة النقاهة. لكنّه بقي يمشي على العكّاز. قرأ في هذه الفترة لدستويفسكي «الجريمة والعقاب»، «الأبله»، كما قرأ لغولدوني، مانزوني، شكسبير، موليير، أريوستو، دانتي، رامبو، كافكا، بروست، فرويد، جويس. إلخ. وبقي يعيش في فندق بين الجبال. عندما وجد أنّه لم يبقَ له فرصة في مواصلة الدراسة، بدأ يكتب بهمّة، فانهمك في كتابة رواية «اللامبالون». كما نشر في إحدى المجلّات قصّة قصيرة بالفرنسيّة. «واشتركتُ مع خمسة كتّاب آخرين في الالتزام بتزويد أحد الناشرين كلّ

برواية، ومع أنّي كنت الوحيد بينهم الذي وفى بالوعد، فإنّ الناشر رفض نشر روايتي بحجّة أنّها ليست إلّا ضباباً من الكلام». فشلت أيضاً محاولة مورافيا في نشر روايته في ميلانو، إلّا أنّ الناشر أخبره فيما بعد أنّه على استعداد لطبع الكتاب على حساب المؤلّف لأنّه «لا يمكن تقديم كاتب مجهول إلى مجلس الإدارة». هنا اضطر مورافيا لأن يطلب من أبيه قرضاً يساعده على طبع الكتاب. وعندما صدرت الرواية عام 1929حقّقت نجاحاً كبيراً وطبع منها أربع طبعات متتالية، وسط إعجاب النقّاد.

واصل بعدها نشر القصص القصيرة، ثمّ بدأ بالسفر وكتابة مقالات حول رحلاته في مختلف الصحف. فسافر إلى لندن وباريس وقابل الكثيرين من مشاهير الكتّاب. كما أسّس مع غيره من المثقّفين عدّة صحف ومجلّات، فزادت شراسة الحكم الفاشيّ ضدّه. في 1935 نشر رواية «المطامح الخرقاء» الذي بقي يكتبها على مدى سبع سنوات، لكنّ الكتاب لم يلقَ النجاح الذي حقّقته رواية «اللامبالون»، كما منعت وزارة الثقافة الإيطاليّة النقّاد من الكتابة حول الرواية.

حاول مورافيا الابتعاد عن بلده الذي بدأ يقيم في وجهه كثيراً من الصعوبات، وهكذا فقد سافر إلى الولايات المتّحدة بدعوة من دار الثقافة الإيطاليّة في جامعة كولومبيا في نيويورك. هناك حاضر حول الرواية الإيطاليّة. وعندما عاد إلى إيطاليا كتب مجموعة قصص طويلة جمعها في كتاب «الخديعة» الذي رفضته دار نشر مشهورة، لكنّ واحدة أخرى هي دار بومبياني قبلته، واستمرّ في التعاون معها حتّى مماته. وقد زار في هذه الفترة الصين واليونان، عاد بعدها إلى إيطاليا وعاش في آناكابري مع زوجته إيلسا مورانتِه، الكاتبة الإيطاليّة الشهيرة. في عام 1941 نشر مجموعة من المقالات النقديّة والسيرياليّة بعنوان: «أحلام الكسول»، ثمّ رواية نقديّة بعنوان: «القناع» حول (رحلاتي إلى المكسيك وحول تجربتي مع الفاشيّة). ورغم أنّ الكتاب أجيز من قبل موسوليني، فإنّ الرقابة صادرت

طبعته الثانية، كما منع من الكتابة في الصحف إلّا تحت اسم مستعار. منع بعدها أيضاً من الكتابة ومن إصدار أيّ كتاب كان، وكذلك من كتابة الأفلام والعمل للسينما الذي كان يكتسب منه رزقه. أخبروه بعدها أنّ اسمه كان بين المطلوبين، فاضطر إلى الفرار مع زوجته ليعيشا في كوخ منعزل بين الفلّاحين والنازحين: «كانت هذه تجربتي المهمّة الثانية بعد تجربة المرض، حيث عشت هناك لتسعة أشهر». في 1944 نشر كتابه «الأمل، أو المسيحيّة والشيوعيّة» حيث عبّر فيه عن آرائه حول الماركسيّة. عاد مورافيا بعدها إلى روما مع دخول القوّات الأميركيّة إليها. وهناك بدأ يعمل بانتظام، فكان يكتب الروايات في الصباح، ليبدأ بعد الظهر بكتابة سيناريوهات الأفلام. كما فازت رواية «أغوستينو» بأوّل جائزة أدبيّة بعد الحرب. ثمّ تتالت الترجمات الأجنبيّة لكتبه، كما كثرت الأفلام المأخوذة عن رواياته، ومن أهمّها فيلم «الاحتقار» الذي أخرجه جان لوك غودار. في عام1944 حازت رواية «امرأة من روما» على نجاح منقطع النظير، خاصّة وأنّها كانت أساساً لفيلم بالاسم نفسه كتب هو السيناريو له. نشر بعدها رواية «العصاة» ثم «الحبّ الزوجي» و«الرجل التقليديّ».

لكنّ عام 1952 كان مؤثّراً، لأنّه صدر خلاله تحريم من قبل الفاتيكان بحقّ كل كتب مورافيا، وذلك بالتزامن مع تحريم كتب أندره جيد. ومع هذا فقد حصل مورافيا في العام نفسه على جائزة «ستريغا» وهي أكبر جائزة أدبيّة في إيطاليا. ثمّ ازداد تعاونه مع كبريات الصحف الإيطاليّة، كما أسّس مجلّة «أحاديث جديدة» التي كتب فيها مشاهير الأدب والسياسة مثل جان بول سارتر، كالفينو، مونتالِه الحائز على جائزة نوبل، وبالميرو توليياتي زعيم الحزب الشيوعيّ الإيطاليّ.

وقد توالت الجوائز الأدبيّة التي قدّمت لكتبه، فربح في عام 1961 جائزة «فياريدجو» على رواية «السأم». قام بعدها برحلة شهيرة إلى الهند

مع كل من زوجته إيلسا وصديقه المخرج والشاعر بيير باولو بازوليني. نشر على أثرها كتاب «فكرة عن الهند»، لكنّه انفصل في العام نفسه عن زوجته، وعاش في شقّة أخرى في روما مطلّة على نهر تيفيرِه وذلك مع صديقته الجديدة الكاتبة داتشا مارايني، التي عاشت معه حتّى عهد متقدّم من سني حياته الأخيرة. وقد نشر وقتها مقابلة فريدة من نوعها مع الممثّلة الإيطاليّة كلاوديا كاردينالِه وذلك بطلب من مجلّة أميركيّة. في عام 1965 نشر رواية «الانتباه» وهي محاولة لكتابة رواية ضمن الرواية. وعندما ازداد اهتمامه بالمسرح أسّس مع إينزو سيشيليانو وداتشا مارايني فرقة مسرحيّة باسم «القنفذ»، لكنّها أغلقت بعدها لأسباب ماليّة. علماً أنّ أعمال مورافيا المسرحيّة لم تضف شيئاً إلى فكره الأدبيّ، وإن عبّرت بشكل غير مباشر عن تخلخل ثقته بالرواية، وهذا ما بدا واضحاً في رواية «أنا وهو» التي نشرت عام 1971.

لكنّه أعاد وقتها إصدار مجلّة «أحاديث جديدة» بالتعاون مع كاروتشي وبيير باولو بازوليني، وقد وثّقت هذه المجلّة لسنين طويلة أساطين الفكر الإيطالي. كما نشر فيها عام 1967 مقالة «ثرثرة على المسرح»[1] التي شرح فيها أفكاره حول المسرح الحديث. ثمّ سافر وقتها إلى كل من اليابان وكوريا والصين مع داتشا مارايني، وعيّن في السنة نفسها رئيساً لمهرجان البندقيّة السينمائيّ الشهير.

مكتبة
t.me/t_pdf

1- ترجمتُ المقالة إلى العربية ونشرت في مجلة الآداب البيروتيّة. (م)

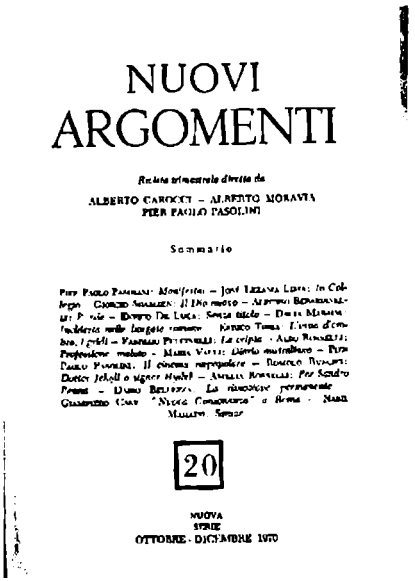

NUOVI
ARGOMENTI

Rivista trimestrale diretta da

ALBERTO CAROCCI – ALBERTO MORAVIA
PIER PAOLO PASOLINI

Sommario

[illegible]

20

NUOVA
SERIE
OTTOBRE - DICEMBRE 1970

صورة غلاف مجلة (أحاديث جديدة) من عام 1970،
ويرى في محتويات العدد إشارة إلى قصيدة نشرتها المجلة
لمترجم هذا الكتاب نبيل رضا المهايني بعنوان (سمر).

عندما قامت الثورة الطلّابيّة عام 1968 كتب مورافيا: «يظنّ شبيبة أعوام الثمانية والستين، ومن تبعهم، أنّه يجب تغيير العالم، وتغييره عن طريق العنف، لكنّهم لا يريدون أن يعرفوا سبباً للتغيير ولا طريقة التغيير. لا يريدون معرفته، أي إنّهم لا يريدون معرفة أنفسهم». هوجم مورافيا بسبب هذا التصريح في مناسبات مختلفة، في جامعة روما وباري وفي مقرّ مجلة الإسبرسّو وفي مسارح مدينة فلورنسة، هاجمه طلبة عام 1968، حينها حدثت الثورة الثقافيّة في الصين.

في الأعوام التالية نشر مورافيا كتب «الحياة لعبة»، «الفردوس»، «حياة

أخرى»، «أنا وهو». وفي عام 1972 بدأ مورافيا برحلة طويلة في أفريقيا نشر حولها ثلاثة كتب: «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟»، «رسائل من الصحارى»، «نزهات أفريقيّة». وعندما مات صديقه بيير باولو بازوليني عام 1975 كتب مورافيا مقالة شبّهه فيها بأرثر رامبو. بين الأعوام 1975 – 1981 عيّن مورافيا مراسلاً خاصّاً لجريدة «كوريره ديلّا سيرا» في أفريقيا. في 1982 نشر رواية «1943»، ثمّ «تاريخ ما قبل التاريخ».

في عام 1983 رفض مورافيا ترشيحه لمجلس الشيوخ الإيطالي وذلك: «لأنّي كنت أرفض على الدوام خلط السياسة بالأدب. فالكاتب يرنو نحو المطلق، بينما يريد السياسيّ النسبيّة، أمّا الطغاة فهم وحدهم الذين يريدون المطلق والنسبيّ معاً». ومع هذا فقد قبل مورافيا في عام 1984 ترشيحه للانتخابات الأوروبيّة كمرشّح مستقلّ في قائمة الحزب الشيوعيّ الإيطاليّ. وهنا قال: «هل هناك تناقض بين رفض الأمس وقبول اليوم؟ كنت قد قلت إنّ الفنّان يبحث عن المطلق. لكنّي أقبل الآن بترشيح نفسي للبرلمان الأوروبي لأنّه ليس لهذا أيّة علاقة مباشرة بالسياسة». وقد أفلح وقتها في الدخول إلى البرلمان الأوروبّي بعد أن حاز على 260.000 صوت. وقد بدأ منذ ذلك الحين بكتابة مقالات صحافيّة من ستراسبورغ بعنوان «مذكّرات أوروبّيّة». كما شارك مورافيا في أواخر حياته، في كثير من الحملات السياسيّة لنزع السلاح وضدّ الحروب.

في الساعة التاسعة من صباح 26 حزيران من عام 1990 مات ألبرتو مورافيا في بيته المطلّ على نهر تيفيرِه في روما.

انطفأت ساعتها تلك الجذوة التي كانت تغذّي خصائص الكاتب الكبير، ألبرتو مورافيا، بسعة خياله ونظرته الثاقبة وقوّة ذاكرته ومقدرته التعبيريّة الأدبيّة البارزة.

مقدّمة

بقلم ألبرتو كاديولي
Alberto Cadioli

مكتبة
t.me/t_pdf

-I-

انتشر أدب الرحلات لدى الكتّاب الإيطاليّين خلال القرون الثلاثة الأخيرة. لكنّه أصبح في القرن العشرين، بصورة خاصّة، أدباً غير متخصّص بالمذكّرات الشخصيّة أو الذكريات التي تنشر عادة في الصحف اليوميّة أو المجلّات الواسعة الانتشار.

من وقتها والتحقيق الخاصّ بالرحلات لا ينفصل عن وجود قارئ له شخصيّة وطلبات محدّدة، ولا يمكن له لهذا أن يستغني عن مكوّنات أساسيّة، مثل: «الوصف»، و«التعليق». لكنّ المزج الناجح بين هذين المكوّنين يفسّر السرّ الحقيقيّ لسحر أدب الرحلات. فتمازجهما، الذي يظهر في النتائج المثاليّة، يعني أيضاً التمازج بين كتابة مضبوطة الأسلوب إلى حدّ كبير، وهذا ضروريّ كيما يكون الوصف قادراً على الإيحاء، وبين كتابة قد تسمّى «نثريّة» يمكن للقارئ أن يضيف إليها تعليقاته الخاصّة.

وهنا يمكننا أن نبدأ بالقول إنّ مورافيا كان أستاذاً في «أدب الرحلات» الذي خصّص له قسماً كبيراً من أنشطته ككاتب، أي «حوالي صفحة تحقيق مقابل ثلاث صفحات من الرواية».

تعود المقالة الأولى الخاصّة برحلات مورافيا إلى 4 تشرين الثاني 1930 وكانت رواية «اللامبالون» قد صدرت قبل ذلك بسنة وسط نجاح كبير وقد نشرت وقتها في جريدة «لا ستامبا» في تورينو تحت عنوان: «الوصول إلى لندن». وكانت تلك بداية سلسلة من الرحلات والمقالات التي لم تنقطع إلّا بموت الكاتب عام 1990، والتي كانت متعلّقة بجميع القارّات (عدا أستراليا والقطب الشمالي) مع زيارات متكرّرة لكلّ من آسيا وأميركا وأفريقيا.

كان مورافيا إذن رحّالة كبيراً إلى جانب كونه كاتب رحلات كبير، خاصّة أنّ كلّ زيارة قام بها إلى بلد أجنبيّ تمخّضت (بل كانت بسبب ذلك. هذا على ما جاء في «سيرة ذاتيّة أدبيّة مختصرة» حيث قال الكاتب إنّه كان يسافر كمبعوث خاصّ للصحف «في محاولة لشغل نفسه بطريقة ما وتمضية وقته») عن نشر تحقيقات في جريدة «غازتزيتّا ديل بوبولو» -في الثلاثينيّات-، وفي جريدة «لا نوّفا سامبا» -في الأربعينيّات-، وفي مجلّة «أيوروبّيو» -في الأربعينيّات والخمسينيّات-، وفي جريدة «كوريير ديلّ سيرا» خلال كلّ العقود اللاحقة.

وقد أكّد مورافيا نفسه، سمةَ أدب رحلاته، في أولى مقالاته التي صدرت تحت عنوان: «رسائل من الصحراء»، ونشرت بعد ذلك، في عام 1981، في كتاب بالاسم نفسه. وكأنّ القصد كان مجرّد كتابة المذكّرات: «هنا أبدأ صحيفة رحلتي...» لكنّه تحوّل فيما بعد إلى ما بدا في عنوان المراسلات نفسه: «رسائل من الصحراء». وقد ظهرت إرادة مورافيا الرحّالة بشكل واضح في جميع كتاباته: «الانطباعات التي سأقدّمها في هذه المذكّرات ستكون (بصريّة) بالدرجة الأولى، أي إنّي سأصف كلّ ما أرى فضلاً عن (مغزى) ما أرى، لكن ليس أكثر من المغزى، أي ليس ما أفكّر به عندما رأيت ذلك الأمر. هذا يعني أنّها ستكون مذكّرات سائح».

لذلك فإنّه يجدر بنا أن نؤكّد هنا ومنذ الآن الإرادة الوصفيّة

«الانطباعات البصريّة» فضلاً عن الوعي بضرورة مرافقة تلك الانطباعات بتعليق «صادر في اللحظة نفسها» التي تجري فيها الرؤية، وإن كان تثبيتها يجري فيما بعد، أي خلال كتابة المقالة، وهو أمر يتمّ أحياناً بعد العودة من الرحلة.

لا بُدَّ هنا من الإشارة مرّة أخرى إلى الاستشهاد بعبارة طويلة لكن ضروريّة من رسائل من الصحراء، والتي تحدّد معنى (السائح) عن طريق تقديم نموذج للرجوع إليه عن الرحلة والتقرير:

«أعرف حقّ المعرفة أنّ كلمتي سائح وسياحة قد فقدتا مصداقيتهما، وأنّهما يحملان مباشرة على التفكير بوكالات السياحة ودعايات الرحلات عبر المحيط وباصات (روما في الليل). لكنّ السياحة لم تكن دائماً عبارة عن نشاط استهلاكيّ فقط، بل كانت في الأصل نوعاً من التربية العاطفيّة. فالناس كانوا يسافرون في جولة أو جولة واسعة لكي يتعرّفوا على العالم، ولكي يتعرّفوا على أنفسهم من خلال العالم، أي ليروا من خلال التجربة المباشرة أنّه رغم التجارب المختلفة جدّاً، فإنّ العالم يبقى هو نفسه على الدوام. أي إنّ السياحة كانت طريقة لرؤية الواقع وليس لتفسيره، وللتعبير عنه وليس لكشف أقنعته. تتطلّب هذه الطريقة في الترحال مزيداً من الحساسيّة والفضول، لكنّها تظهر في النهاية أنّها أكثر جدوى من التحقيقات التي يقوم بها من يسمّون بالخبراء، لأنّها لا تُعلم القارئ بأمور يمكن للجميع أن يعرفوها ويتعمّقوا بمعرفتها، بل بالأمور التي يشعر بها الرحّالة، أي وكما قلت، بانطباعاته.

(...) كان يمارس السياحة في الماضي رحّالون ستبقى كتبهم مقروءة، حتّى عندما تصبح منسيّةً، أو كما يقال: قد عفا الزمان عليها، كتبُ كثير من علماء الاجتماع والاقتصاد والأعراق والتاريخ. ستاندال مثلاً، ينتمي لهذه الفئة من الكتّاب السياحيّين الذين أرسلوا لنا انطباعاتهم. وإذا كان ستاندال لم يذهب أبداً إلى أفريقيا، فإنّي على ثقة بأنّه لو ذهب إليها، فإنّه سيتكلّم عنها كما تكلّم عن إيطاليا، أي

بطريقة انطباعيّة، وبدون أن يحاول تفسيرها أو الحكم عليها، مكتفياً باستحضارها ووصفها فقط»[1].

إنّ العناصر المرجعيّة موجودة كلّها: «الجولة الكبيرة» لرحّالي القرنين السابع والثامن عشر، الراغبين بالتعرّف إلى العالم وبرؤية أشخاص مختلفين عن أنفسهم عبر معرفة شعوب جديدة. رغم إدراكهم بأنّهم إذا نظروا إلى أنفسهم بمرآة أولئك، فإنّهم سيتعرّفون إلى أنفسهم بشكل أفضل. وإنّ نموذج النثر «الانطباعيّ» يمكّن النعت من تقديم معنى للمشاهدة، حيث يقوم الرحّالة بجمع انطباعاته التي تزداد أهميتها عندما لا يكتفي بالوصف، بل يقحم «ذكاءه» بالأمر -ويعني الذكاء هنا الوصول إلى المعرفة-[2]. ليس عبثاً إذن أنّ مورافيا يستوحي ستاندال ووصفه لإيطاليا - وخاصّة روما في كتاب «السير في روما»[3]، وهو كتاب يحبّه الكاتب بشكل خاصّ - أي ليس بالنظرة الساذجة[4] التي يلقيها من يكتفي باكتشاف عالم مجهول بالنسبة إليه، بل بنظرة من لا ينسى العالم الذي جاء هو منه، والثقافة التي ينتمي إليها، والمطالعات التي قرأها في حينه، ذلك وهو يتساءل في الوقت نفسه عن الجديد وعن المعروف وذلك بالتنقّل المتواصل بين الأوّل والثاني. يقدّم ستاندال نموذجاً أيضاً عن نثر لا يتنازل، باسم كتابة التقرير، عن تنقيح كتابته بشكل مرتبط بفعّالية النتائج. ورغم أنّ سمات «سياحة» مورافيا وأدبيّات رحلاته، كانت واضحة بدقّة في بداية الثمانينيّات، فهي كانت من السمات الموجودة أصلاً خلال العقود المنصرمة.

1- استعمل مورافيا هذه الكلمات نفسها عندما كتب في «مختصر السيرة الذاتيّة الأدبيّة» قائلاً: «أطمح لأن أكتب عن الرحلات بطريقة انطباعيّة، وعلى خطى شتيرن وستاندال».. (م)

2- الأصل بالإيطاليّة: «giungere alla» (intellegere vale appunto «conoscenza»). (م) intelligenza

3- Promenades dans Rome. (م)

4- naif. (م)

ورغم هذا فقد رأى الكاتب أنّه لا يمكن أن يجمع في مجلّد واحد إلّا «المقالات التي تبدو له ذات معنى بالنسبة لموقف معيّن». أمّا عمليّة التفضيل والتمييز التي أدّت إلى اختيار النصوص التي قدّر لها أن تنشر ضمن كتب الرحلات (شهر في الاتّحاد السوفياتيّ -1985 الثورة الثقافيّة في الصين -1968 إلى أيّة قبيلة تنتمي؟ -1972 رسائل من الصحراء -1981 نزهات أفريقيّة 1987)[1] فيبدو أنّها كانت ترمي في المكانة الأولى إلى إمكانيّة وضع خواطر ثقافيّة وسياسيّة تحت أنظار قارئ مختلف عن قرّاء الصحف اليوميّة. وقد أكّد مورافيا بالذات، وهو يستعمل مثال كتابه «شهر في الاتّحاد السوفياتيّ»، أنّه نشر كتاباً حول الاتّحاد السوفياتيّ، لأنّه «مهتمّ بعمليّة كسر الجليد، وبالستالينيّة، وبالانتقال من حضارة إلى أخرى».

لذلك فإن القارئ، حتّى لو كان ممّن قرأ المقالات على صفحات الجرائد اليوميّة، مدعوّ لأن يقرأها الآن بطريقة مختلفة، لأنّه مدفوع أصلاً بنوع جديد من الاهتمام الذي يثيره عرض الناشر من خلال عدم تضمين المجلّد الجديد الذي يحتوي على أدب الرحلات بمعلومات تدلّ على مكان وزمان الطبعات الأولى.

ولم يعترف مورافيا بصورة صريحة إلّا في الثمانينيّات بقوله: «... أنا لست صحافيّاً، بل أنا كاتب يكتب في الصحف، لكن ليس لصالح الصحف. كما أنّ النواحي الاقتصاديّة والاجتماعيّة والتاريخيّة لمختلف البلدان لا تهمّني بأكثر ممّا ذكرتها هنا، ذلك كما يجري في رواياتي». لذلك فإنّنا نرى في كتاب «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟» الذي أعاد في عام 1972 تقديم كثير من المقالات حول رحلاته السابقة، نرى كثيراً من صفات الكاتب-الرحّالة، فضلاً عن صفات المراقب اليقظ للواقع الاجتماعيّ والسياسيّ المتحوّل (أو، بل أكثر من الأولى). وإنّ نظرة الكاتب هي التي جعلت هذه الصفحات تحافظ على سحرها رغم مرور العديد من السنين على صدورها للمرّة الأولى.

1- كلّها من منشورات دار بومبياني. (م)

لقد وردت في «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟» مقالات لا تحمل أيّة إشارة تتعلّق بالزمن أو المصادر، وكانت قد نشرت في جريدة «كوريره ديلّا سيرا» بمناسبة رحلات مختلفة بين آذار وآب 1963 في نيجيريا وكينيا (مروراً بغانا وتنزانيا)، وبين كانون الثاني وآذار بصحبة بيير باولو بازوليني الذي كان بصدد تصوير فيلم لصالح التلفزيون الإيطاليّ، ثمّ بين نيسان وتمّوز 1970 في مالي، وبين كانون الثاني ونيسان 1971 في أوغندا وسط منطقة البحيرات العظمى (مع زيارات إلى كينيا وتنزانيا)، وبين كانون الثاني ونيسان 1972 في الكاميرون مع زيارات إلى توغو وتشاد.

يمكن تلخيص السبب الذي دفع الكاتب إلى نشر أوّل مجلّد من الكتابات الأفريقيّة[1] فيما أكّده هو بالذات في سيرة ذاتيّة نشرت عام 1990 على شكل مقابلة: «بالنسبة لي أرى أنّ أفريقيا هي أجمل ما في الوجود».

كانت البداية في رحلة جرت في آذار 1930 واستبقت سلسلة طويلة[2] من الرحلات التي قال مورافيا عنها إنّها «كشفت لي الأرض التي كان عليَّ أن أذهب إليها من قبل، لكنّي لم أذهب إليها إلّا متأخراً جدّاً في حياتي».

-II-

تحافظ الصفحات الأفريقيّة في كتاب «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟» على سمة تقارير الرحلات الكبيرة، ومن هنا فهي تقدّم لنا بعض العناصر

1- والذي تبعه في عام 1981 كتاب «رسائل من الصحراء»، وفي عام 1987 كتاب «نزهات أفريقيّة»، وهي كتب الرحلات الوحيدة التي صدرت في الثمانينيّات، وتعتبر إشارة بليغة لأهميّة العلاقة التي تربط مورافيا بالقارّة السمراء. (م)

2- وقد قالت صديقته/ زوجته داتشا ماراييني: «كنّا نذهب أنا وألبرتو كلّ سنة، وعلى مدى ثماني عشرة سنة، إلى أفريقيا». (م)

الجارية، ومواقع يمكن اختيارها كمسارات للمطالعة قابلة للإدخال في حركة مزدوجة تتعلّق بمعرفة الجديد واكتشاف النفس والعالم الخاصّ.

المعضلة الأولى التي قد تظهر هي «رؤية الآخر»: «أستطيع أن أرى من شرفة غرفتي منظراً عامّاً لأكرا، عاصمة غانا». بهذه العبارة تبدأ المقالة الأولى، وبهذه الصيغة تبدأ مقالات أخرى كثيرة.

إن المسافة التي تفصل بين المراقب وبين فسحة تمتدّ أمام ناظريه (أو «المنظر العريض البعيد» – وكلاهما سيّان) في منطقة شاسعة مقفرة لا بشر فيها، ما تلبث أن تتّخذ معاني خاصّة إذا كانت موجودة وسط سكون الامتدادات الأفريقيّة التي يجتازها الإنسان خلال رحلة بالسيّارة. ذلك أنّها سرعان ما تضع التأمّلات الأوّليّة العميقة حول الطبيعة فوق تلك المتعلّقة بالزمان وبالتاريخ.

وإذا استعملنا كلمات الكاتب نفسه، فبإمكاننا أن نضع هنا «اكتشاف أفريقيا» الذي توافق مع اكتشاف ما قبل التاريخ، على أنّه شعار الغيريّة. وهذه هي الفكرة المركزيّة في «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟» التي صدرت عن أوّل اتّصال جرى بين مورافيا بالقارّة السمراء.

لقد قيل لمرّات عديدة عمّا هو قبل التاريخ الذي تعيش به أفريقيا في كتاب «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟»، لكنّنا نكتفي هنا بالاستشهاد بالعبارة التي وردت في المرّة الأولى: ما قبل التاريخ هو رتابة المشهد الطبيعيّ الذي يكرّر «موضوعاً واحداً حتّى درجة الهوس والفزع»، والذي لا يكتسب البتّة أيّ شكل محدّد. إنّه «الصمت العذريّ»، الذي يتسرّب فجأة فيوقفنا وسط السافانا، «والذي يبقى معلّقاً، يشهد له عمقه وشفافيّته بصفته ما قبل التاريخيّة الفعليّة». إنّه الغابة المطريّة التي تمتدّ «هي أيضاً لآلاف الكيلومترات، باللون نفسه، وبدون انقطاع...» والتي تصعق الزائر مرّة أخرى بـ«عذريّتها وشفافيّة صمتها»، إنّه «السكون الأبديّ، سكون الموت» وسكون الجذور التي سقطت من شدّة الهرم. إنّه الخوف الذي يرتاد الإنسان ويلجئه إلى السحر: «خوف ممّا قبل

التاريخ، أي من القوى غير العقلانيّة التي تَمكّن الإنسان في أوروبّا من صدّها والسيطرة عليها عبر عدّة آلاف من السنين، بينما ما زالت تقتحم أفريقيا وتنتشر في أنحائها.

نقرأ في كتاب «فكرة عن الهند» 1962: «أوروبّا هي قارّة يقتنع الناس فيها بأنّهم موجودون في مركز العالم، وأنّ الماضي يسمّى التاريخ، وأنّ العمل هو أفضل من التفكير»، ولا يقابل العمل هناك إلّا مشاعر التديّن الهنديّة العميقة. وهكذا، ورحلة بعد رحلة، فقد انقلبت أفريقيا أيضاً إلى مكان يمكن التعرّف فيه إلى التديّن العميق، رغم أنّه تديّن من نوع خاصّ جدّاً، أي قائم على الخوف من الغموض. لكنّ مورافيا اعتبره، خلال لقائه الأوّل بالقارّة الأفريقيّة، على أنّه صفة مميّزة سمّاها «ما قبل التاريخ» -أي بتعبير آخر: غياب التاريخ- والتي تقف على طرفي نقيض من التاريخ في أوروبّا.

تستمدّ أفريقيا روعتها من كونها بالذات أرض الإنسان التي لا يسيطر عليها زمان الإنسان. والواقع أنّه إذا كان التاريخ «زمناً يسير وفق معايير الإنسان» فإنّ «ما قبل التاريخ هو الخلود». هذا ما صرّح به مورافيا بكلّ وضوح خلال مناسبات عديدة، وخاصّة خلال المقابلات التي كان يجريها. لكنّه قال هذا أيضاً بكلمات معبّرة منذ أولى تدخّلاته المتعلّقة بكتاب «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟»:

«عندما وصلت إلى السور الصغير أطلّيت ونظرت إلى الأسفل. كان يمتدّ أمامي منظر بانوراميّ شاسع ذو خصائص أفريقيّة مميّزة، أي ما قبل تاريخيّ. كأنّه واحد من تلك المناظر التي تعيد إلى الذاكرة، كما بسحر ساحر، كثيراً من الوحوش التي اضمحلّت في العهود الجيولوجيّة الأولى، مثل الديناصورات والماموث والتنّين الطائر... كلّ ذلك كان يوحي بعالم صامت، لا أصوات فيه، ولا وجود لبشر، وبمنظر مسرحيّ، شاسع فسيح الأرجاء، لكن بلا ممثّلين، إلّا ما فيه من نبات وحيوان».

وفي كتاب «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟» نقرأ ايضاً:

«إذا كان حقّاً، كما أعتقد أنّه حقّ، أن التاريخ هو الاسم الذي تسمّي الإنسانيّة به استقلاليتها وانتصارها على الشروط الطبيعيّة، فإنّ ما قبل التاريخ هو التعلّق، بل هو حتّى غياب الإنسان عن الطبيعة».

ويمكن للقارئ في كلّ الأحوال أن يجد بنفسه ما يشاء من استشهادات ومقتطفات في هذا الصدد[1]. وليس بوسعنا أن نقدّم هنا إلّا عبارات أخرى يمكن لها أن تعمّق جوانب الموضوع. فقد كتب مورافيا في سياق رواية له عن زيارة قام بها عام 1969 إلى بركان نغورونغورو في تنزانيا، وقال:

«وما كانت تسمّيه البلاغة الغرائبيّة[2] الرخيصة السيّئة، ولوقت طويل، «هوى أفريقيا»[3] لم يكن إلّا ذلك الحنين إلى عالم لا يمكن أن يشاهد المرء فيه التاريخ أبداً، بل إلى عالم يسود ما قبل التاريخ في جميع أرجائه، وهو الحنين الذي عرفه كلّ من زار أفريقيا. وإذا كان التاريخ في أوروبّا وفي آسيا لا يثقل كاهل المرء هناك، فإنّه موجود في الهواء، أي في كلّ مكان، إن صحّ التعبير. لذلك فما إن يصل المرء إلى أفريقيا حتّى يشعر بأنّه لا بُدَّ أن يتنفّس الصعداء، وهذا دليل على أنّ الغرب والشرق متخمان، بل ومسمّمان بالتاريخ. وهنا فإنّه يمكن لما قبل التاريخ أن يظهر على أنّه ملجأ وعلاج، رغم كلّ أهواله».

1- في رواية «المرأة النمرة» التي تجري أكثر أحداثها في الغابون، والتي كرّس لها سنتين من أواخر حياته، يقول مورافيا هنا على لسان إحدى الشخصيّات: «كنّا نتمشّى في هذا المكان الرائع، ذي المظهر الذي يعود لما قبل التاريخ... وإنّنا لا نكاد نصدّق كيف يمكن للمكان أن يؤثّر في الخيال... ربّما لأنّه لا توجد هناك نفسٌ حيّة عبر مئات الكيلومترات، لذلك فإنّ رؤية ديناصور طوله ثلاثون متراً وهو يخرج من تلك الغابة لا يثير أيّة دهشة». (ألبرتو مورافيا، المرأة النمرة، ميلانو، دار نشر بومبياني 1991). (م)

2- Exoticism وهي ظاهرة ثقافية تميل إلى تقليد فنون البلدان البعيدة وطرق الحياة فيها، وقد تطوّرت على شكل حركة فكريّة اعتباراً من القرن الثامن عشر، كما انتشرت في أوروبا بعد الفترة الرومانسيّة. (م)

3- mal d'Africa ويقصد بهذا الحنين الذي يشعر به من زار أو عاش في أفريقيا بعد أن يغيب عنها. وقد استعمل الفاشيّون هذا المصطلح للتعبير عن أنشطة التوسّع الاستعماري في أفريقيا. (م)

بالنسبة للرحّالة مورافيا، اليقظ على الدوام، وبموجب نموذج السائح المذكور سابقاً، وبمجابهة بين العالم المكتشف والعالم الذي ينتمي إليه، فإنّ أفريقيا قبل التاريخيّة هي «غيريّة» تقود إلى التساؤل عن التعبير عن شخصيّة الذات. وإنّ رعب الأوروبّيين المستعمرين يكمن في أنّهم لم ينتبهوا إلى أنّ الأفريقيّ ما هو إلّا «الوجه الآخر للأوروبّيّ، والمكمّل له، والبديل عنه. وهو عندما يستغلّ ويستعبد ويطغى على الأفريقيّ، يكون قد استغلّ واستعبد وطغى على نفسه». ويؤكّد مورافيا بإيجاز: «الأفريقيّ... هو النصف اللاعقلانيّ والبدائيّ من الأوروبّيّ العقلانيّ والمتمدّن».

أفريقيا إذن هي شهادة عن دوام التاريخ المضادّ، والذي سمّي بدون إنصاف عبارات بكونه «الطبيعة بالذات»، الواسعة في زمن هو «خارج الزمن» البشريّ. ففي أفريقيا تنتصر قوّة الطبيعة التي ذبلت في أوروبّا، إن لم نقل إنّها محيت منها تماماً، بل ومن كلّ التاريخ. لذلك فإنّ كتاب «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟» يعرض أمام القارئ معارضة الطبيعة- التاريخ الموجودة في كثير من الصفحات الأدبيّة وغير الموجّهة للرحّالين فقط. ويحوّل التفكير مباشرة إلى تفكير ثقافيّ، وإن كان لا يحمل معه أيّة رغبة أو أيّة إرادة في «قلب» التاريخ داخل الطبيعة. وقد رأينا أنّ الدعوة كانت موجّهة لإدراك التكامل بين الوضع الأوروبّيّ مع الوضع الأفريقيّ. لذلك فلم تُعتبر الطبيعة على أنّها زوجة أب أو خصماً حتّى عندما تظهر «بلا شفقة ولا رحمة»: لأنّ مصائب الطبيعة لا تولّد أحقاداً، بل تمرّ وتترك وراءها الصفاء، والذي «هو في نهاية الأمر نوع من النسيان».

بعد أن عرضنا هذا الإطار، نرى أنّ الكاتب قد وجد نفسه مرّة يصافح يد طفل:

«ربّما في الرابعة من العمر، كان عارياً في كلّ جسمه، سوى من خيط من الخرز الأزرق يحيط بخصره، ويمرّ بين ساقيه كأنّه سروال داخليّ صغير. ها هو إذن شخص آخر قد نسي، ولا يكنّ أيّة ضغينة، ويقف في صفّ التاريخ المعاكس. إنّه يبتسم لي ويقول لي بالفرنسيّة: أنا وأنت، أصدقاء».

-III-

هناك في الاستشهاد الأخير نقطة انطلاق جديدة للقراءة. فالرحّالة ينزل بين الحشود «حشود بألوان متعدّدة لم أرَ مثلها في حياتي» والتي يرمز إليها السوق «قلب المدن الأفريقيّة» والذي «تتجاوز وظائفه الحقيقيّة أمور البيع والشراء»، لأنّه بدون السوق «تنطفئ الحياة الإنسانيّة في أفريقيا وتعود إلى مستوى الوحشيّة». إنّه «معرض» وفي الوقت نفسه «اجتماع دينيّ، تجمع سياسيّ، لقاء سحريّ، تبادل ثقافيّ، وانفلات جنسيّ». السوق هو وجهة للأفارقة، فيه يحتشدون، تحدوهم إرادة الانصهار في جسم حيّ واحد، والابتعاد أخيراً عن «التميّز الفرديّ، العابر، المزعج، الذي لا لزوم له» ذلك وهم «مخلوطون بالغبار والعرق والضجيج». لهذا فتراهم دائماً في حركة، فرادى أو جماعات، يسيرون أياماً بعد أيّام، فيولّدون انطباعاً بأنّهم في هجرة متواصلة وسط فراغ طبيعيّ شاسع «محتشد بالقبائل، لكنّه بلا دول ولا قوميّات»، حيث التقسيم الذي تفرضه الحدود هو ذو طابع سياسيّ أراده الأوروبّيّون.

وإذا ما حوّلنا النظر من الأرض إلى السكّان فإننا سنجد أمراً بدهيّاً آخر من جديد، هو ذلك الاختلاف العميق عن عادات وتقاليد وسلوك الأوروبّيّين. وقد أبدى مورافيا تجاه هذا الاختلاف حرصاً على إظهار شخصيّته (ومن هنا التكرار المتواصل لأسماء وصفات سلبيّة، تبدأ بـ «نتن» و«قذارة» أماكن الالتقاء).

ومع ذلك فهو عندما يراقب الأفارقة، وهم وسط المساحات الشاسعة، وليس عندما يكونون غارقين في فقر قراهم، فإنّ الكاتب يكتشف وجود الطبيعة بشكل لا تراجع عنه. وهذا ما يدلّ عليه الرقص: «الأفريقيّ يرقص حياته، لهذا فإنّ هناك دائماً في رقصته شيئاً مدهشاً أصيلاً غريباً لا يمكن التنبؤ به. والواقع أنّ الأفريقيّ لا يعرف ماذا ينتظره من رقصه، كما لا يعرف المرء عادة ماذا ينتظره من الحياة. إنّه يحاول تحريك جسده في اتّجاه معيّن ووفقاً لإيقاع معيّن. لكنّه يحدث وهو يتحرّك بهذه الطريقة،

أنّه يتمكّن من الدخول في إيقاع أعمّ وأشمل، يجري حوله، إذا جاز التعبير، جريان تيّار بحريّ حول سمكة تسبح في داخله، أو حول حطام سفينة عائم فوقه، وهنا يبدأ الأفريقيّ بالرقص». ويوحي بهذه الاعتبارات نفسها صوت التام تام الذي تسحر رتابته الأفارقة وتشجّعهم على الرقص بما يشبه ما تثيره الأوساط الطبيعيّة: «من المؤكّد أنّ الأثر هو ذاته: لأنّ هناك خاصيّة بيئيّة تُسْتَشفّ لساعات ولأيّام وتورث في النهاية، كما تفعل أصوات التام التام، نوعاً من توقّف الذهن عن التفكير، ومن اندهاش الأحاسيس المسْكر».

ومن هنا فإنّ مورافيا يتساءل عن سرّ طبيعة ترقى بالإنسان وهي تستعمل أزمنتها، حيث يحاول الأفارقة التلاؤم مع الأمر من غير أن يدركوا شيئاً منه إدراكاً منطقيّاً أي «طبيعيّاً»، لأنّهم الوحيدون الذين احتفظوا بـ «التاريخ المضاد، أي بطبيعة أقوى من أن يمكن السيطرة عليها، فسيطرت هي عليهم بعيداً عن أيّ تاريخ». لكنّه يمكن للعلاقة مع الطبيعة أن تفلح أحياناً في هذا، كما أنّها لا تفلح في أحيان أخرى. وفي هذه الحال يتوقّف الأفريقيّ «عن الرقص ليستأنف سيره بخطاه المعتادة». يعيدنا هذا بالضرورة إلى النقطة التي نعتبرها مفتاح هذه الصفحات، أي تناقض التاريخ-الطبيعة، وهو بالفعل مركز كلّ التجربة الأفريقيّة[1] وجميع فصول كتاب «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟».

لقد قيل الكثير في تحقيقات أعوام الستّينيّات وأوائل السبعينيّات عن الاعتبارات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، ومن بينها تلك النبوءة التي ظهرت في عام 1969 على شكل تدخّل يائس حول تنزانيا ونهاية ما قبل التاريخ الأفريقيّ. ولا يهمّ هنا فيما إذا تحقّقت هذه النبوءة أم لم تتحقّق، وفيما إذا كانت التنمية الاقتصاديّة والسياسيّة في القارّة، قد أكّدت أم لم تؤكّد الخطوط المرسومة في مختلف المقالات. فالتعليقات

1- جاء في مقدّمة كتاب «فكرة عن الهند» لمورافيا: «ماذا حدث لك في الهند؟/ «قمت بتجربة»./ «ماهي هذه التجربة؟»/ «إنّها تجربة الهند». (م)

التوضيحيّة حول حياة القبائل الأفريقيّة، وحول فصل الأراضي، وحول الشروط الاجتماعيّة هي متشابكة بالضرورة في سياق زمن تلك الرحلة.

هذا بينما لم تختلف الكثافة التي تمّت بها معالجة الطبيعة في مختلف الصفحات، وذلك بوصف يسمح للقارئ أن يعيد في ذهنه تشكيل المنظر الموصوف وأن يشارك في الأفكار المقترحة. ومن هنا كثرة الإشارات إلى حقائق معروفة، مع استعمال صور يتمّ البحث عنها أحياناً، أو استخلاصها أحياناً أخرى من تجارب شائعة لا يمكن إلّا لإنسان أوروبّيّ (بل وحتّى إيطاليّ فقط) أن يدركها:

«كانت السماء زرقاء مبرقعة، ومليئة بأبخرة وبضباب على هيئة مزق رماديّة مصفرّة. لذلك فقد بدت لي المدينة كأنّها طبق ضخم من حساء الملفوف الأسود، فيه قطع كثيرة من المعكرونة البيضاء».

ثمّ وبعدها مباشرة:

«يرتدون ثياب الحفلات الراقصة التي كانت تقام في القرن السابع عشر.

كما أنّ جبل كينيا يصبح كأنّه رجل يرتدي معطفاً يغطّيه حتّى أسفل أنفه، وهو جالس ينظر».

كما يبدو التوجّه نحو القارئ واضحاً في مقالات كثيرة، لكنّه توجّه بصيغة الأمر «انظروا»، «تخيّلوا» وبأسئلة بلاغيّة إنشائيّة، من السهل أن نرى أن الكاتب يستهدف بواسطتها جمهوراً متعلماً نوعاً ما، وقادراً على فهم المراجع الأدبيّة والفنّيّة المتكررة، التي يشار إليها لتحسين وصف معالم المكان:

«هل سبق ورأيتم بعض اللوحات السيرياليّة، التي تصوّر آفاقاً مذهلة، تمتدّ وراء منبسطات من الأرض، تنتشر عليها هنا وهناك أشياء صافية برّاقة؟ هكذا هو شاطئ البحيرة».

تكثّفت في أوائل الستّينيّات المداخلات المتعلّقة بالفنّ والأدب،

واستعيض بها في كثير من الأحيان عن الوصف الدقيق الذي كان يستعمل كواسطة لإثارة «تماسّ كهربائيّ» من النوع الثقافيّ:

«على الشاطئ الثاني للنهر اصطفّت أشجار كبيرة مورقة، بصورة رومانسيّة فنّيّة، كما لو في لوحة من لوحات بوسّان أو كلاديو لورينيزه[1]. تحرس هذه الأشجار شاطئاً معشباً يظنّ المرء أنّه سيجد عليه فتاة بيضاء سرعان ما يكتشف أنّها حوريّة عارية».

ثمّ بعد ذلك بقليل:

«لقد تذكّرت لوحة كارباتشو[2] وفيها وصيفتان تجلسان بالخمول واللامبالاة ذاتها...».

وكان سائق رحلة 1972 في الكاميرون، قد وُصف في البداية بالعودة إلى شخصيّة عطيل الشكسبيريّة، ثمّ، تمّ تشبيهه، بسبب توقه إلى الثراء، «بشخصيّات بلزاك، لكنّه متأخّر عنها بقرن ونصف من الزمان، قد يكون مثل سيزار بيروتو[3]، يعمل وراء مقود السيّارة».

وكما لو أنّ لذّة الكتابة تسود وتتداخل على حين غرّة ضمن حديث أوسع:

«في الصباح الباكر. ما زالت السماء ضبابيّة إلى حدّ ما، والبحر أخضر مثل المروج، تمتدّ أمواجه الطويلة مزيّنة بزبد أبيض، تنطلق من الشعاب المرجانيّة البعيدة وتتقلّب متكاسلةً بحفيفها، كأنّها سجّاد من ماء، ذلك حتّى تنتشر منهكة على الشاطئ».

ثمّ بعدها:

«جلست في حديقة الفندق، على شاطئ النهر، وأنا أتأمّل قرص

1- نيكولا بوسان Poussin Nicolas 1594 - 1665 هو رسّام فرنسيّ، عاش أغلب فترات حياته في مدينة روما. وَضَع في رسوماته جوّاً من الشاعرية الساحرة. (م)

Claudio Lorenese هو كلود لورين Claude Lorrain رسام ومعماري، قضى معظم حياته في إيطاليا. (م)

2- Vittore Carpaccio رسّام إيطالي (1465-1525). (م)

3- César Birotteau. (م)

الشمس الأحمر، الضخم بحيث يظّن المرء أنّ بوسعه أن يلمسه. هناك خيال أسود لرجل يجدّف في سفينته، ينزلق على سطح الماء أمام قرص الشمس، فيبدو كأنّه رسمٌ من كتابات ما قبل التاريخ خطّت على جدران الكهوف. ما أجمل الأنهار الأفريقيّة! أنهار قد يظنّ أنّها بلا شواطئ، تمتدّ المياه على طولها حتّى الأفق فيخيّل للمرء أنّها تختلط بالسماء. أنهار هامدة، عميقة، عاكسة. أنهار فرس النهر».

وعلى كلّ فإنّ الوصف الممحّص والدقيق لا يقتصر في صفحات مورافيا على المتعة الجماليّة أو التصويريّة، كما كان الأمر في مطبوعات النثر البديعيّ، ولا هو ينغرس ضمن أدب يمكن أن نقرأه كما قلنا من وجهات نظر مختلفة أخرى، اقتصاديّة أو اجتماعيّة أو أيديولوجيّة إلخ، غريبة بالكامل عن كتّاب الثلاثينيّات.

إنّ الحيوان الأفريقيّ، بل وكلّ أفريقيا، ليسوا ذلك «الوحش» الذي يمكن أن نراه ضمن فئات مصنّفة، بل هو شهادة، كما قلنا مراراً، عن زمان لم يعد زمان الإنسان.

«الفيل عن قرب هو أمر يختلف عن فيل بعيد. فالفيل هو حيوان غريب الأطوار كما يقال، مسالم في ظاهر الأمر، ولا يمكن للمرء إلّا أن ينظر إليه بالمودّة. لكنّنا عندما نرى الفيل في مكان ما بعيد، فإنّ مجرّد وجوده هناك يضفي على ذلك المكان صفةً من قبل التاريخ».

وكذلك الزرافة:

«وهذا مستبعد عن الزرافة كما عن الحيوان الأسطوريّ وحيد القرن، ذلك عندما نراها وكأنها شكل إشارة تعجّب:

في عمق السهوب الشاحبة التي يلتهمها الضوء، فتؤكّد للمشاهد أنّه موجود في أفريقيا».

وإذا كان هناك بعض النواحي الأنيقة في كتابته، وإذا كانت الصورة الممحّصة الدقيقة تندرج ضمن عمليّة التشبيه -ويجب أن نحصي عدد المرّات التي نقرأ فيها كلمة «مثل»- والتي لا ترمي مع هذا إلى تطويع

ما هو وحشيّ وغريب، فإنّه بوسعنا القول إنّ مورافيا، كاتب الرحلات، يغذّي فكرة إجراء تحقيق ريبورتاجيّ يتمتّع بنوعيّة أدبيّة، موازية لنوعيّة الوصف والملاحظات التي قدّمت للقارئ عن أفريقيا. ومن هنا نرى أنّ خضرة السافانا هي دائماً «شاحبة»، ومسارات الأرض الحمراء تذكّر دائماً بـ «الدم»، والصمت دائماً عميق والضوء دائماً باهر. هذا فضلاً عن أنّ الانتباه موجّه دائماً نحو تدرّجات الألوان، وعن كثرة اللجوء إلى علامات الاندهاش: «ما أجمل ذلك!»، «ما أجملهم!».

ويمكن لنا أن ننهي الحديث باستشهاد أخير يلخّص كثيراً من نقاط هذه المقدّمة:

«فحجمه الضخم مضحك (وزنه حوالي طنّين أو ثلاثة أطنان) والغريب أنّه مكوّن من أسطوانة هائلة الحجم، منتفخة حتّى درجة الانفجار، ومغطّاة بقشرة عارية بنيّة اللون، لها أربع قوائم قصيرة مائلة، شبيهة بقوائم الكلب الدشهند الألمانيّ، ورأس غير متناسب، وفكّان بشكل الحذاء».

كان الكاتب حينها في تنزانيا، على شواطئ باغاموبو، وبعد أن ذكر قصيدة نثريّة للشاعر الفرنسيّ رامبو (حيث يتخيّل الشاعر نفسه وهو ينظر إلى السماء الزرقاء بعيني شخص ملاحق)، بدأ بتأمّل مناظر الجمال الطبيعيّ، لكنّه يتقمّص، في الوقت نفسه، شخصيّات العبيد الذين كانوا يُجمعون على الشواطئ قبل أن يتمّ ترحيلهم:

«أقول في نفسي إنّه لا يعرف السعادة من لم يشاهد الشمس وهي تتألّق باهرة على قمم أشجار النخيل وبين أوراق أشجاره وهي تميل إلى الخلف تحت وقع نسمات الريح. لكنّ (فكرة الرقيق) تعود بعدها مباشرة إلى رأسي... فالبحر هو شعار الحريّة، لكنّه يكتسب في ذهنه المعنى المعاكس، لأنّه في الوقت الذي كان ينظر فيه ذلك الرقيق إلى هذا البحر كان يقول أيضاً في نفسه إنّ هناك عبودية مدى الحياة تنتظره وراء تلك الأمواج الزرق... كما أنّ تلك الأعمدة من الأوراق التي تبعثرها

الرياح وتصفعها أشعّة الشمس، على خلفيّة السماء الحارقة، لا يمكن لها، بكلّ بريقها وتمايلها، أن تلهمه شيئاً من السعادة، بل إنّها تورث في نفسه الحزن وتوقّعات الحنين...».

غرق الرحّالة بكامله في غمار جمال الطبيعة، ومع ذلك فإنّه لم ينسَ التاريخ: إذ لا يمكن للخصمين أن يمحيا، وعلى كلّ منهما أن يقيس نفسه بالآخر.

ويمكن أن نضيف في النهاية ملاحظة أخيرة صاغها مورافيا في الثمانينيّات، بعد أن كتب كثيراً من الصفحات حول القارّة السمراء. فبعد أن تجاوز الكاتب تناقض التاريخ والطبيعة -التي ما زالت أوروبّيّة- وتوصّل في الواقع إلى اعتبار «الاختلاف الأفريقيّ» بهذه الصورة الأخيرة: «إنّ لكلّ بلدان العالم تاريخاً، أمّا أفريقيا فإنّ لديها روحاً حلّت محلّ التاريخ. وهكذا فإنّ تاريخ أفريقيا ليس هو في نهاية الأمر إلّا تاريخ روحها»[1].

1- ألبرتو مورافيا - نزهات أفريقيّة- سحر الغموض. (م)

أفريقيا، قارّة مورافيا

عن موقع «بين الغيوم والصحراء»

شعر ألبرتو مورافيا بمحبّة عميقة حارقة لأفريقيا. وقد زار بين 1962 و1979 برفقة صديقته داتشا مارايني حوالي خمسة عشر بلداً أفريقيّاً عاد إلى بعضها أكثر من مرّة. وقد جمع مذكّراته حول هذه الرحلات في ثلاثة كتب هي: نزهات أفريقيّة، إلى أيّة قبيلة تنتمي؟ رسائل من الصحارى. كما شارك في بعض هذه الرحلات فنّانون آخرون من أمثال الشاعر والمخرج والكاتب بيير باولو بازوليني ومغنيّة الأوبرا والممثّلة ماريا كالاس. وقد أقام مورافيا علاقة مع السكّان المحليّين من النوع الأنثروبولوجيّ، وقام بتوصيف دقائق تقاليدهم وأزيائهم وأساليب حياتهم. وكان أهمّ ما في كتاباته أنّ مورافيا تمكّن من القيام بقراءة تفسيريّة للواقع الذي جابهه، وبما ساعده على صياغة موضوع ضمّنه في جميع نصوصه. والواقع أنّه كان على قناعة أنّ أفريقيا بقيت فيما قبل التاريخ لأنّ التاريخ لا يقف في أفريقيا بين الإنسان والطبيعة. ويرى مورافيا أنّ الخوف وهوى أفريقيا يشكّلان الشعور نفسه، لكنّ الأفارقة والأوروبّيّين يعيشونهما بتركيز مختلف.

إنّ هوى أفريقيا هو سحر قائم على الخوف، والخوف ناتج عمّا قبل التاريخ أي من القوى اللاعقلانيّة التي تمكّن الإنسان في أوروبّا من السيطرة عليها، بينما ما زالت منتشرة وقائمة في أفريقيا. إنّه خوف اعتاد عليه الأوروبّيّ، ذلك أنّ جذوره موجودة في مكان آخر، ولأن شخصيّته أصلب وأقلّ اهتزازاً من شخصيّة الأفريقيّ. أي إنّه خوف لذيذ إلى حدّ

بعيد. لكنّ خوف الأفريقيّ هو خوف بلا تاريخ، تشعر به شخصيّة مهتزّة مثل لهب الشمعة، إنّه خوف حقيقيّ، يخيف من غير أن يكون له اسم، فزع دائم وغامض. والسحر هو تعبير عن هذا الخوف ما قبل التاريخيّ: إنّه قبيح الشكل، قاتم اللون وجنونيّ، لأنّ مرض أفريقيا مثير للشهوة الجنسيّة حتى لو كان مدمراً وشديد الإبادة. وفي الواقع، فإنّ السحر هو الجانب الآخر من هوى أفريقيا.

كان مورافيا ينظّم جميع رحلاته وقلبه مفعم بنيّة الابتعاد ما أمكنه ذلك عن الطرق المطروقة من قبل السياحة التقليديّة، يحدوه أملٌ باكتشاف الزوايا الخفيّة في تلك القارّة. وكانت حساسيّته المفرطة تساعده على أن يتعرّف حالاً على الواقع الأفريقيّ متجاوزاً الانطباعات السطحيّة التي يعبّر عنها عادة الزوّار العارضون. لكنّه من الواضح أنّ مورافيا لم يتمكّن البتّة من إقامة علاقة متساوية مع الأفريقيّ، خاصّة لأنّ رحلاته إلى أفريقيا كانت قصيرة الأمد وتجري بالسيّارة الخاصّة وبوجود مترجم وجيب مليء بالنقود، هذا ممّا لا يساعد على إيجاد قناة اتّصال واقعيّة مع السكّان المحلّيّين. ورغم وجهة النظر -الخارجيّة- هذه، فقد جمعت كتاباته اعتبارات منيرة مختلفة يقبلها حتّى من يعرف أفريقيا حقّ المعرفة.

ما هو سبب جمال أفريقيا؟ لأنّها مكان في الأرض شيّدت الطبيعة عليه صرحاً لها، يبدو أنّ فيه أسلوب ونظام ورسم ونوايا وانتظام العمل الفنيّ البشريّ. أمّا في أمكنة أخرى فإنّ هذا الرسم وهذا الأسلوب هما غير واضحين بل ممسوحين من قبل البشر. لكنّ أسباباً أخرى تاريخيّة وجغرافيّة ومناخيّة سهّلت تطبيق هذا الأسلوب تطبيقاً كاملاً وجعلت هذا الرسم رسماً رائعاً. علماً أنّ جمال أفريقيا لا يقتصر على هذا الأسلوب وعلى هذا التناسق المتوازي ذي الطابع البشريّ، لأنّ هناك فيه غموضاً غير بشريّ، بل وما فوق البشري أيضاً. إنّه الغموض الذي تمّ التعبير عنه في دين أفريقيا الأصليّ والخاصّ، أي الوثنيّة، التي تنبئ أنّ أفريقيا، رغم كلّ شيء، بل وقبل كل شيء، هي قارّة لها روح، وروحها - كما قال مورافيا- تنزل في مكانة التاريخ.

إلى أيّة قبيلة تنتمي؟

الكتاب مجموعة من المقالات التي تروي رحلات مورافيا في بعض بلدان أفريقيا ومجاهلها. قال مورافيا ما يلي حول سبب كتابة هذا الكتاب: «لقد سافرنا إلى أفريقيا بحثاً عن التسلية ورغبة في الابتعاد عن حياتنا اليوميّة المعتادة، بدون أن نجري قبلها أيّ تحقيق أو بحث، أو أيّ شيء من هذا القبيل، أو ممّا يجري إعداده عن قصد قبل الشروع في الكتابة عن الرحلة المتوقّعة». «لقد أردت أن أحمل إلى أفريقيا نفسي فقط، ما أنا عليه فحسب، من الثقافة والمعلومات المتوفّرة لديّ ولا أكثر من ذلك. وإذا كنت قد قرأت بعض الكتب عن أفريقيا، فإنما فعلت ذلك بدافع الفضول، وليس جرياً وراء تكوين خبرة في هذا المجال. على كلّ لا أعتقد أنّه يمكن تكوين مثل هذه الخبرة عن طريق المطالعة. الخلاصة أنّ هذا كتاب من الانطباعات، أي من قصص الاستعداد المفتون».

«إنّ الرحلة إلى أفريقيا هي غوص في عصور ما قبل التاريخ، هذا إذا لم تكن مجرّد غزوة تافهة، عبر الفنادق الكبيرة التي نشرها الغربيّون في القارّة السمراء».

ثياب أكرا

أكرا، آذار 1963

أستطيع أن أرى من شرفة غرفتي منظراً عامّاً لأكرا، عاصمة غانا. كانت السماء زرقاء مبرقعة، ومليئة بأبخرة وبضباب على هيئة مزق رماديّة مصفرّة. لذلك فقد بدت لي المدينة كأنّها طبق ضخم من حساء الملفوف الأسود، فيه قطع كثيرة من المعكرونة البيضاء. قطع الملفوف هي الأشجار المداريّة ذات خَضار يتدلّى دهنيّاً ثقيلاً، غامق الألوان، ومبرقشاً بظلال سود. وأمّا قطع المعكرونة فهي الأبنية الإسمنتيّة الجديدة والوهّاجة، التي انتشرت بكثرة في جميع أنحاء المدينة. أحد هذه الأبنية هو هذا الفندق الموجود وسط حديقة كبيرة، فيها ورود حمراء متّقدة. إنّه بناء ضخم حديث البناء، شيّد على طراز فنّي ملوّن، قد أسمّيه طراز أفريقيا الجديدة. يوجد في الفندق أقواس وضعت تحتها مجموعات من الموائد والكراسي، حيث يمكن للمرء أن يجلس ليتناول المشروبات المجمّدة اللذيذة، هناك أيضاً صالة طعام واسعة، ذات واجهات زجاجيّة عريضة، تسودها ألوان زرق بنفسجيّة وصفر بلون القشدة، طهورةٌ بنظافتها، تتألّق كلّ موائدها بأدوات طعام برّاقة وبقطع كريستال صافية. يجوب في الصالة خدم أفارقة يرتدون ثيّاب الحفلات الراقصة التي كانت تقام في القرن السابع عشر. يوجد في الصالة أيضاً بار كبير وراء طاولة ضخمة مرتفعة كأنّها مذبح في الكنيسة، هناك أيضاً رواق فسيح مريح، ومصعد من المعدن الخالص يقود إلى الممرّات الواسعة

المهوّاة المضاءة في الطوابق العليا، ثمّ إلى الغرف المفروشة ببذخ كبير، حمّاماتها من بورسلان الصنف الأوّل، وأرضها من موادّ بلاستيكيّة، وستائرها من الأقمشة المداريّة، وأثاثها حديث، بألوان فاتحة.

متى تمّ تشييد هذا الفندق؟ منذ زمن قصير، لأنّ غونثر[1] أشار في كتابه عن أفريقيا إلى أكرا عام 1954، لكن بهذه الكلمات غير الجذّابة: «ليست إلّا خليطاً من أكواخ الصفيح والأبنية الخشبيّة والحجريّة المتهاوية التي أقيمت تحت أقواسها المتداعية دكاكين بائسة. فلا يسع الناظر إلّا أن يمتلئ بمشاعر كآبة تثير الإحباط...». لقد قيل هذا قبل سنوات قليلة على الأرجح. لكنّ هذا الفندق ليس، كما أشرنا، البناء الحديث الوحيد في أكرا. وتكفي زيارة قصيرة إلى القسم الجديد من المدينة لاكتشاف مباني الوزارات المشادة بطراز حديث جدّاً، قائمة على ركائز من الإسمنت المسلّح، ولها شرفات تقليديّة طويلة متّصلة بأبواب الغرف التي يسترخي على أثاثها، من النوع السويديّ، موظّفون يرتدون قمصاناً مكفوفة الأكمام وسراويل بيضاً، وهم يتفحّصون أوراقهم، وتساعدهم سكرتيرات وسيمات حسنات الهندام. هناك أيضاً فلل بيض مدفونة تحت عرائش الخضرة المداريّة العبوس الداكنة، فضلاً عن عمارات ذات لونين مشطورة بالأقواس.

تلتفّ طرقات هذا القسم السكنيّ الفاخر من أكرا حول حدائق فخمة مزهرة، وكأنّها دروب داخل حديقة ضخمة واحدة، ولا يرى عادة على هذه الطرقات سوى القليل من المارّة والكثير من السيّارات، ذات صنع أميركيّ وإنكليزيّ.

بدهيّ أنّ مدينة الصفيح التي تحدّث عنها غونثر ما زالت موجودة أيضاً إلى جانب المدينة الحديثة الفخمة. فعلى بعد عشر دقائق بالسيّارة من فندقي، يصبح الإسفلت أرضاً ترابيّة، صفراء كعصيدة الذرة. كما يحلّ محلّ الأبنية الإسمنتيّة المصفوفة إلى جانب الأرصفة، عديد من

---

1 - Gunther. (م)

الأكواخ التي تتجمّع حول المنحدرات الترابيّة، مثل نباتات الفطر. لكنّ مركز أكرا ليس منطقة حديثة: بل هو عبارة عن طريق واسعة مهدّمة شبيهة بطرق الغرب الأميركيّ البعيدة، وحولها صفّان من الأبنية المتباينة وغير المتكافئة، فهنا عمارة حديثة بواجهة زجاجيّة، وهناك كوخ بِسطحٍ من الصفيح المتموّج، وعلى مسافة منهما بناء طويل بطابقين، وعلى مسافة أخرى هناك ربّما كوخ مسقوف بالقشّ. أمّا على الأرصفة، التي تتناوب مع المواقف المزدحمة بالسيارات، فتصطفّ، بين المتاع المعروض للبيع، البائعات المتخفّيات تحت طواقي القشّ الكبيرة، وكلّهن بدينات، كأن لحم أفخاذهنّ مرتخٍ يندلق فوق كراسيهنّ الصغيرة. لا يوجد بين هاتين المدينتين، الأولى حديثة فخمة، والثانية بائسة بالية، لا يوجد أيّة منطقة وسطى لسكن البرجوازيّين الوسط، ذلك كما لا يوجد في أكرا أو في أفريقيا كلّها مرحلة انتقاليّة بين العهد الاستعماريّ السابق وعهد الرأسماليّة الجديدة الحاضر.

وهكذا تمّ الانتقال من العسكر بخوذهم الفلّينيّة إلى المصرفيّين بملابسهم الرماديّة، ومن الكوخ العتيق إلى ناطحة السحاب، بطريقة حادّة قاطعة، لا تتخلّلها مرحلة انتقاليّة. وربّما كان للموظّف الشاب، الذي يعمل في المكاتب المكيّفة والحديثة جدّاً، أبٌ ما زال يسكن في كوخ داخل غابة السافانا، ويسوق قطيعه وهو يحمل العصا في يد، والرمح في اليد الأخرى، يدرأ بها خطر الحيوانات المتوحّشة.

المقصود بهذا هو تأكيد أنّ الرأسماليّة الجديدة تداهم أفريقيا، بالسرعة نفسها التي تندفع بها النار وتشتعل في موادّ شديدة الجفاف، مبلّلة بالزيت. وفندق أكرا مثلاً ليس إلّا واحداً من الفنادق الكثيرة المشابهة التي نشأت في جميع أنحاء القارّة السوداء، من المحيط الأطلسيّ إلى المحيط الهنديّ. يبرز إلى جانب هذه الفنادق عدد من أبنية المناطق الحديثة المبثوثة في المدن الأفريقيّة، ممّا يدلّ على اهتمام الرأسمال الأوروبّيّ والأميركيّ الكبير بأفريقيا: إنّها مقارّ مصارف كبيرة،

أبنيةٌ متباهية، كالحة وباردة جليديّة، مكسيّة بالرخام الأسود البرّاق، والغرانيت ذي الحبيبات الرماديّة الكثيفة، كالذي نشاهده في زوريخ أو لندن أو نيويورك أو فرانكفورت. هناك أيضاً ناطحات سحاب صغيرة تحسبها علباً زجاجيّة ومعدنيّة تطوى في الجيب، مزيّنة بلافتات نحاسيّة موضوعة على أبوابها، كتبت عليها عبارات كثيرة تنتهي عادة باختصارات مرموقة مثل Ltd، ثمّ محلّات تجاريّة ذات واجهات زجاجيّة ضخمة، وسلالم كهربائيّة متحركة، وبائعات يرتدين ملابس رسميّة، على غرار بائعات مخازن تينسنت[1] في نيويورك.

ابتعدنا جدّاً إذن عن العهد الاستعماريّ القديم، بمخازنه ذات الطابق الواحد المتهالك، وبفنادقه التي تعود للعصر الفيكتوريّ، ومقاهي العبوديّة، والمحلّات المغبرّة، بل وبتعابيره وألوانه على طريقة كونراد. لم تفزع الرأسماليّة الجديدة على الإطلاق من الملاريا، ومن ذباب التسي تسي، ومن الحرّ الرطب والحرّ الجافّ، ومن الطين ومن الأمطار ومن الغبار ومن موجات الحرّ الحارق، ومن تخلّف السكّان وبدائيّتهم، ومن نقص الشوارع والمدن، بل إنّها اعتمدت على نجاح تجاربها في المجالات الآليّة والصيدليّة، وذلك لتشعر بأنّها أصبحت قادرة على التهام أفريقيا، بطريقة أسرع وأفضل ممّا فعلته في آسيا المكتظّة بالسكّان، وفي أميركا اللاتينيّة المستلقية في سبات إرثها الإسبانيّ. وممّا يبرّر اهتمام الرأسماليّة الجديدة بأفريقيا وجود يد عاملة رخيصة فيها، ووجود ثروات معدنيّة مختلفة، فضلاً عن التنافس مع الشيوعيّة، وضرورة الإسراع بالثورة الاستهلاكيّة من أجل إحباط أيّة إمكانيّة لقيام ثورة سياسيّة.

لكنّ آخرين بوسعهم أن يقولوا، بأفضل ممّا أقول، وهم يستشهدون بالإحصائيّات، ماذا يعني بالأرقام وبالأعمال الغزو الرأسماليّ الجديد لأفريقيا. فما يهمّني أنا هو كلّ ما لا يتحدّث عنه الاقتصاديّون في العادة، أي نواحي ذلك الغزو المهمّة، حتّى لو كانت غير منطقيّة. فبينما لا يوجد

---

1 – Tencents stores. (م)

مجال للشكّ أنّ نجم الشيوعيّة الأحمر يبرق فوق آسيا، فإنّ كوكب الرأسماليّة الجديدة الأبيض بدأ يضيء في أفريقيا، الآن على أقلّ تقدير. بمعنى آخر يبدو أنّ هناك أسباباً ذات طابع تاريخيّ وعرقيّ ونفسيّ وجماليّ تجعل الأفريقيّ يفضّل الحلول الغربيّة لمشاكل التخلّف الاقتصاديّ والاجتماعيّ والثقافيّ، وذلك على العكس من الآسيويّين الماركسيّين، أو الميّالين للماركسيّة، رغم أنّ مشاكل آسيا شبيهة بتلك المشاكل. النواحي غير المنطقيّة المذكورة هي ثلاث بصورة أساسيّة: أوّلها هو الاستعمار الذي كان أقسى في أفريقيا وأقوى منه في غيرها، ولذلك فقد دفع الأفارقة لتبنّي ثقافة وحضارة المستعمرين الذين يقاتلونهم. هذا في جانب منه لأنّه يوجد في الثقافة الأوروبّيّة ترياق فعّال ضدّ الأمراض التي تسبّبها، وكذلك - في الطرف الآخر - بسبب علاقة التجاذب والتنافر التي تنشأ دائماً بين الجلّاد والضحيّة. أمّا السبب الثاني فهو الطابع الفرديّ الذي تتّصف به الثقافة الأفريقيّة: فأفريقيا لم تعرف البتّة إمبراطوريّات كبيرة مركزيّة وبيروقراطيّة مثل التي عرفتها آسيا. والأفريقيّ، عندما يكون خارج القبيلة وخارج العائلة، هو حرّ دائماً، طليق مثل الطائر في الجوّ، حرّ مثل السمك في البحر. السبب الثالث هو الطابع الخاصّ للعقائد الأفريقيّة السحريّة والوثنيّة، والتي لا تجعل منها عقبة، مثلما هي الديانات الآسيويّة عقبة أمام تفهّم وقبول الحضارة الصناعيّة، فضلاً عن أنّها تشكّل حافزاً يسهّل هذا التفهّم وهذا القبول بسبب ما توحي به الآلات من سحر ووثنيّة. يمكن أن نضيف لهذه الأمور الثلاثة أمراً رابعاً تمتدّ جذوره إلى الطابع الطفوليّ للأفريقيّ: فالرأسماليّة الجديدة بمنتجات صناعاتها الخفيفة المسلسلة اللامتناهية، الجيّدة التغليف، الزاهية رغم قلّة فائدتها، بهرت الأفارقة كما كانت تبهرهم خيوط النحاس الأحمر والأصفر، واللآلئ الخزفيّة المصنوعة في مدينة البندقيّة، التي كان المغامرون يقدّمونها، قبل قرن أو قرنين من الزمان، مقابل الذهب والعاج والأخشاب الثمينة.

تأمّلت هذه التأمّلات وأنا أتمشّى على الطريق الرئيسة في أكرا، بين حشود من أكثر ما شاهدته في حياتي تعدّداً في الألوان. أيّ مشهد بهيج لا يصدّق هو هذا المشهد! كانت الحشود تتماوج بين أبنية، متهالكة وغير متكافئة، منتشرة على صفّي الطريق الرئيسة. ترتدي هذه الحشود أقمشةً باهرة الألوان متألّقة، وعليها أشدّ ما يمكن تخيّله من الرسوم الجريئة. يلتحف الرجال هذه الأقمشة على أجسامهم على طريقة العباءات الرومانيّة، من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، ولا يتركون إلّا الرقبة وكتفاً وذراعاً مكشوفين. بينما تشدّها النساء حول أردافهنّ وصدورهنّ كما في ملابس السهرة التي تذهب بها النساء الغربيّات إلى مسرح لاسكالا الإيطاليّ أو مسرح المتروبوليتان الأميركيّ، كما يضعن منديلاً من القماش نفسه حول الرأس، وعليه كعكة ضخمة، تشبه أصيص وردٍ موضوع على الرأس. القماش كما قلت مرسوم وملوّن بطريقة همجيّة، لكنّ العين الخبيرة لا تلبث أن ترى في هذه الهمجيّة منتجاً من الدرجة الثانية، أي إنّها همجيّة تمّ تكريرها في مصافي التجارب الفنيّة الطليعيّة الأوروبّيّة. ويعرض التجّار على الطرقات أنواعاً كثيرة من هذه الأقمشة المكدّسة على الأرصفة. توقّفتُ وطلبت استعراض بعضها. إنّها من قطن شديد الخشونة، وسعرها منخفض جدّاً. لكنّ تجميع هذه الألوان العنيفة والجديدة، وتلك الرسوم الغريبة والمغرية، تطلّب بالمقابل، ومن كلّ بدّ، الاعتماد على أساليب غوغان البدائيّة والتكعيبيّة وفنون الهيغرِه. إنّ هذه الأقمشة التي صنعت في مانشستر وفي هولّندا، تفسّر وتثير في الوقت نفسه محبّة الأفارقة لهذه الألوان الزاهية البهيجة ذات التأثير الرائع، وخاصّة عندما توضع فوق بشرتهم السوداء.

أتمشّى وأنا معجب بمشهد هؤلاء الرجال والنساء، الذين يختالون بغرور وتعجرف، عبر الطريق المغبرّة وتحت أشعّة الشمس الحارقة، بعباءاتهم وبثياب السهرة وكأنهم في احتفالات العيد. لذلك فقد حضرتني بغتة ذكريات من إحدى رحلاتي إلى روسيا، عندما عرضوا عليّ

قطع قماش قطنيّة مطبوعة في طاجكستان في آسيا الوسطى السوفيتيّة. كانت معروضة إلى جانب الأقمشة الإنكليزيّة والهولنديّة التي يرتديها أفارقة أكرا. لا شكّ أنّ الأقمشة السوفيتيّة، المطبوعة بألوان ورسوم خجولة وقديمة، لا تستطيع أن تضاهي أبداً هذه الأقمشة. وبالفعل فقد كان لها، إلى جانب جميع منتجات الصناعات الأوروبّيّة الخفيفة بصورة عامّة، تأثير نفسيّ وحضاريّ مهّد الطريق لدخول الرأسماليّة الجديدة إلى أفريقيا. بينما قاد العجز المعروف عن الصناعة السوفيتيّة الخفيفة، إلى نتيجة عكسيّة فيما يتعلّق بتوسّع الشيوعيّة أيديولوجيّاً وسياسيّاً. لكنّه من الطبيعيّ أن الإنسان لا يعيش فقط بالأقمشة الملوّنة والمنتجات المماثلة، بل ولا حتّى بالبلدوزرات والجرّارات والعنفات والحفّارات الآليّة فحسب. لكن إذا حاكمنا الأمور من خلال فرح سكان أكرا وشهيّتهم التي يرتدون بهما تلك الأقمشة المتعدّدة الألوان، فإنّنا قد نقول إنّ الصناعة الخفيفة قد جلبت السعادة للناس في هذه المناطق من العالم، على أقلّ تقدير أكثر ممّا فعلت الصناعة الثقيلة.

مكتبة
t.me/t_pdf

الخوف في أفريقيا

لاغوس، آذار 1963

كنت أحياناً أطرح على نفسي هذا السؤال: هل أفريقيا السوداء هي أقدم، بالمعنى التاريخيّ، أم أحدث من أوروبّا؟ إذا دقّقنا النظر، وقمنا بمقارنة أفريقيا البدائيّة، أي أفريقيا التي كانت داخل شرنقة الطبيعة، مع أوروبّا التي خرجت من تلك الشرنقة منذ ردح من الزمن، فإنّنا سنجد أنّ أوروبّا هي أقدم. لكنّه من السهل على المرء ملاحظة أنّ أفريقيا السوداء هي الآن في مرحلة الحضارة، التي مرّت فيها أوروبّا قبل آلاف السنين، لذلك فإنّ أفريقيا هي الأقدم بهذا المعنى. غير أنّ أفريقيا بدأت تدخل الآن فقط، إلى الحضارة الصناعيّة التي أسست في أوروبّا قبل قرنين من الزمان، لذلك فإنّ أفريقيا هي الأحدث. على كلّ لا يمكن نكران أنّ الأفريقيّ لا يفهم المعنى العميق لهذه الحضارة الصناعيّة، لأنّه كان قد قبِلها من غير أن يفهمها، لأنّ مفاهيمه الدينيّة هي أقدم من الكالفينيّة الموجودة في أساس تلك الحضارة، لا بل أقدم من المسيحيّة أيضاً. وبهذا فإنّ أفريقيا هي الأقدم. لكن أليس الأفريقيّ هو ربّما أحدث من الأوروبّيّ لأنّه أقلّ عقلانيّة، وأشدّ طلاقة وبهجة وأكثر طفوليّة، ومحبّاً للرقص والغناء والإيمائيّة أي تلك الفنون التي لا تتطلب نضجاً فكريّاً، وهكذا دواليك؟ والحقيقة أنّ الأفارقة هم في نهاية الأمر شباب ومسنّون في الوقت نفسه، أي إنّ ثقافة أفريقيا هي قديمة عتيقة، في الوقت الذي ما زال ارتباطها بالعالم الحديث إشكاليّاً وغير ناضج.

فبعد أن توقّف الأفارقة لآلاف السنين عند هذه الثقافة، ها هم اليوم ينتقلون بقفزة مذهلة، إلى الحضارة الصناعيّة والرأسماليّة الجديدة. وهكذا فإنّ الرحلة إلى أفريقيا هي غوص في عصور ما قبل التاريخ، هذا إذا لم تكن مجرّد غزوة تافهة، عبر الفنادق الكبيرة التي نشرها الغربيّون في القارّة السمراء.

لكن ما هي عصور ما قبل التاريخ تلك التي تثير إعجاب الأوروبّيّين؟ نقول، قبل كلّ شيء، إنّها ليست إلّا تشكيلة الطبيعة الأفريقيّة بالذات. فالطابع الرئيس لهذه الطبيعة ليس التنوّع كما هو الأمر في أوروبّا، بل الرتابة المرعبة. إنّ وجه أفريقيا الأساسيّ يشبه وجه طفل لم تكتمل قسماته، أكثر ممّا يشبه وجه رجلٍ، رسمت عليه الحياة قسماتها ومعانيها المختلفة. بل هو بالأحرى أشبه بوجه الأرض قبل أن يبدأ التاريخ، أي قبل أن تظهر الفصول، وقبل أن تظهر البشريّة، منه بوجه الأرض اليوم، بعد أن تعرّضت الأرض لتغييرات كثيرة، أجراها الزمان وأجراها الإنسان. من ناحية أخرى فإنّ هذه الرتابة تظهر ناحيتين ممّا قبل التاريخ أيضاً: أوّلاً التكرار، أي إنّ موضوعاً أو أصلاً واحداً يتكرّر، كأنّه هاجس مرعب. وثانياً اللاتشكّل، أي انعدام الشكل، وعدم المقدرة على رسم حدّ أو صورة أو شكل، أي على بلوغ نهاية ما. فغابات السافانا مثلاً هي من ما قبل التاريخ، وهي تمتدّ لآلاف الكيلومترات على عرض أفريقيا من الشرق إلى الغرب، أي من المحيط الأطلسيّ إلى المحيط الهنديّ. السافانا هي بادية لامتناهية، ذات لون أخضر باهت، تنتشر على مدّ النظر، وفيها نوع واحد من الأشجار، هو الآكاسيا الأفريقيّة الصغيرة، المحفوفة بالأشواك، وذات الأغصان المتشكّلة على هيئة مظلّة. وفيها أيضاً نوع واحد من الأجمات، شجيرات دائريّة الشكل، لونها أخضر داكن. يمكن للمرء أن يسير، وأن يسير بالسيّارة على الطرق المعبّدة، أو على الدروب المخطّطة، يسير لمئات الكيلومترات من غير أن تنتهي هذه البادية، ويرى أنّها تكرّر نفسها، أي تكرّر نوْعيْها الملازمين لها: الآكاسيا والأجمة.

أحياناً، يمكن لنا أن نرى في أقصى الأفق، ووراء تلك الفراغات اللامتناهية البعيدة، سراب نقاط سود تتحرّك بسرعة بين تماوج الأكاسيا والأجمات: إنّها قطعان من حمر الوحش، أو من الغزلان، هاربة في اتّجاهات مجهولة، خوفاً من أشياء مجهولة. إذا توقّف المرء وسط السافانا، فإنّه يستطيع أن يميّز فجأة، بين هدير سيّارته، صمتاً بكراً، معلّقاً، كأنّه آتٍ بالفعل من قبْل التاريخ، وذلك من حيث عمقه وشفافيّته. كما يمكن لنا أن نسمع حفيف الريح اللطيف، بينما الشمس تغمر بضوئها الشديد البادية الواسعة. لكنّنا ما نلبث أن نشعر، فجأة، بأنّنا مراقبون. ثمّ نكتشف أنّ هناك في الواقع بعض الزرافات تنظر إلينا بعيونها، وهي تطلّ من فوق مظلّات الأكاسيا برؤوسها الصغيرة فوق أعناقها الضخمة. نجد هذه الحيوانات الخجولة المثيرة للفضول هنا وهناك بين الأشجار وأعلى من الأشجار، لكنّها ما تلبث أن تهرب عند سماع أيّ صوت أو رؤية أيّة حركة. فتجري، واحدة إثر أخرى، وتعبر الطريق بقفزاتها البطيئة الثقيلة المضحكة، وسيقانها الطويلة، وأجسامها الضخمة. عندما نستأنف السير تعود السافانا لتكرّر رسومات الأكاسيا والأجمات، لملايين وملايين المرّات، وعبر مئات وآلاف الكيلومترات. من حين لآخر يبدو أنّ السافانا ترتفع شيئاً ما نحو السماء لتتشكّل على هيئة تلال ليّنة طويلة، كأنّما تريد أن تغلق السماء وتعطيها هيئة الوديان. لكنّها محاولة فاشلة تضيع عبثاً وتتلاشى في الهلاميّة المعهودة.

الغابات المطريّة أيضاً هي من ما قبل التاريخ، إنّها تمتدّ تحت السافانا لآلاف الكيلومترات أيضاً، وهي تمتدّ أيضاً في لون واحد، بلا انقطاع. وبينما كان اللونُ أخضر باهتاً في السافانا، فإنّه أصبح أسود في الغابة. لقد اجتزت الغابة مثلاً، على الطريق التي تذهب من لاغوس في نيجيريا، وصولاً إلى بنين الأسطوريّة، التي كانت ذات يوم مركزاً لمهرة النحّاتين والحدّادين. كانت الطريق ضيّقة، تربتها حمراء مثل الدم، حتّى ليقال إنّ الغابة ليست إلّا جسداً أسود، وخَطَه جرحٌ أحمر طويل، ما زال حيّاً

مفتوحاً. نجري هنا أيضاً لمئات ومئات الكيلومترات من غير أن يتغيّر المشهد أو يتبدّل: فالغابة مثلها مثل السافانا تكرر نفسها باستمرار حتّى الهوس. أمّا الموضوع السائد فيها فهو التشابك الأسود بين الأشجار والشجيرات، والنباتات المتسلّقة التي تنتصب مثل الأسوار على جانبي الطريق، وتكاد تحجب السماء، التي تبدو مثل شريط أزرق يمتدّ بالتوازي مع شريط الطريق الأحمر.

يبدو هذا التشابك للوهلة الأولى شديد التنوّع، وغنيّ بأنواع الشجر والأغصان المتدلّية، ويتكرّر حتّى تشبع منه العين، فتميل إلى التوقّف عن متابعته والتمتّع به. أمّا إذا توقّفنا بغتة في الغابة، فلا بُدَّ أن تفاجئنا هنا أيضاً بكارةُ الصمت وشفافيّته. تنتصب الغابة على جانبي الطريق، ويتخلّلها جدولٌ صغير أسود اللون، آسن، جامد بين الأشجار، بينما تنتصب على طرفي هذه المياه الطينيّة الضحلة جذوع ضخمة سقطت بسبب الهرم، وبدأت تتحلّل بسلام، سلام ما قبل التاريخ الجنائزيّ الكئيب والخالد. فالغابة مأتميّة كئيبة خرساء وفارغة، حتّى ليظنّ المرء أنّه لا توجد في الغابة سوى الثعابين والحشرات. كما يبدو أنّ الغابة، مثلها مثل السافانا، تنزع من حين لآخر إلى الخروج من اللاشكل لتتوجّه نحو شيء ما مُكوّن مُشكّل، لتصبح كائناً مميّزاً ومعروفاً، مثل فسحة أو درب أو شجرة منعزلة أو مجموعة أشجار، لكن سرعان ما ينحلّ هذا التوجّه ويتلاشى وسط لاشكلٍ أخضر ومظلم من النباتات الاستوائية.

لا تكمن ما قبل التاريخيّة في تشكيل مشاهد الطبيعة فحسب، بل في الوجود الشامل لعقيدة دينيّة وحيدة متأصّلة بالفعل، ألا وهي عقيدة السحر. فبينما نرى أنّه لم يبقَ من عالم السحر في أوروبّا إلّا شيء قليل من حطام غير واضح المعالم، شبيه بحطام السفن بعد العاصفة، نجد أنّ عالم السحر في أفريقيا ما زال كاملاً سليماً وفعّالاً. إنّ عالم السحر ليس الآن إلّا هوى أفريقيا والشوق إليها، لكن من منظور الأفارقة هذه المرّة، وليس من منظور أوروبّا. وهوى أفريقيا والشوق إليها هو فتنة

ساحرة قائمة على الخوف، خوف من ما قبل التاريخ أي من القوى غير العقلانيّة، التي أفلح الإنسان في أوروبّا وعبر آلاف السنين، من دفعها والسيطرة عليها، بينما ما زالت طليقة وهجوميّة هنا في أفريقيا. إنّه خوف انتهى الأمرُ بالأوروبّيّ إلى التعوّد عليه لأنّ جذوره مختلفة في الأصل، ولأنّ شخصيّته أشدّ صلابة وأقلّ اهتزازاً من شخصيّة الأفريقيّ. أي إنّ ذلك الخوف يثير اللذّة بطريقة محزنة. لكنّ خوف الأفريقيّ الخالي من التاريخ، بشخصيّته المهتزّة مثل لهب الشمعة، هو خوف حقيقيّ وفزع لا يحمل اسماً، لأنّه ذعر غامض دائم. كما أنّ السحر هو تعبير عن هذا الخوف ما قبل التاريخيّ، لأنّه قبيح جدّاً وبشع جدّاً، وجنونيّ كئيب، بمقدار ما إنّ هوى أفريقيا والشوق إليها، مثير للشهوة الجنسيّة على الرغم من أنّه تخريبيّ ومدمّر. والحقيقة هي أنّ السحر هو الوجه الآخر لهوى أفريقيا والشوق إليها.

يسود في سوق لاغوس جوّ رطب خانق شبيه بجوّ مغسلة ضخمة. عبرتُ ممرّات هذا السوق وسط العديد من العربات والأكشاك المتخمة بالبضائع الذابلة المتراخية والمعرّضة جميعها إلى عفن الحرارة المداريّة، ذلك عندما وجدت نفسي فجأة، أمام فسحة، وسط أكواخ عرضت على أرضها وعلى الطاولات في الداخل بضاعة جذبت انتباهي. هي ما يسمّى «يو-يو» أو الأشياء التي يستخدمها الأفارقة في مختلف عمليّات السحر، ويمكن شراء هذه الأشياء من السوق، ولا بُدَّ أنّها مطلوبة جدّاً، لأنّ هناك في تلك الفسحة حوالي عشرين بائعاً يعرضون جميعهم تلك البضاعة الجهنّمية نفسها. فما هي هذه الـ «يو-يو»؟ إليكموها إذن. هناك أوّلاً صفّان تمّ فيهما ترتيب جرذان ضخمة مدخّنة ومسلوكة ضمن عيدان، مثل ما يفعلون بثمار التين المجفّف في منطقة كالابريا، هناك ثانياً سلّة كبيرة فيها كثير من الحرابي المجفّفة، فضلاً عن صحون معروضة على الطاولات إلى جانب سلال مترعة كلّها بأشياء صغيرة مقرفة لا يمكن للنظر أن يتوقّف عندها. ذلك مثل جماجم قردة، عيون، قباقيب ومكانس،

أسطوانات طينيّة وعصيّ، فضلات براز وشظايا مفكّكة متحلّلة لا يمكن معرفة ماهيّتها. لكنّ هناك لكلّ من هذه القاذورات معناها واستعمالاتها المعروفة، وسعرها المحدّد ومنفعتها المعروفة. فالأفريقيّ يذهب إلى السوق ويشتري الجرذ أو الجمجمة أو الحرباء، ثمّ يأخذ ذلك إلى بيته ليستخدمه في عمليّات السحر الأبيض والأسود، أي النافع والضارّ. بأيّة طريقة؟ ماذا يهمّ من معرفة هذا؟ يكفينا أن نقول إنّها تفيد الذين يعتقدون فيها.

يمكن لنا أن نرى في الـ«يو-يو» نوعيّة بشعة من نوع خاصّ، لأنّها في الوقت نفسه غريبة ومثيرة للاشمئزاز، تماماً مثل الخوف. وإذا كان الـ «يو-يو» بديلاً مظلماً وقذراً عن العلم، وإذا كان يثير الوهم بأنّه قادر على التحكّم بالخوف، فإنّه ليس إلّا تعبيراً مباشراً عن ذلك الخوف. يقال الشيء نفسه عن الأقنعة التي ما زالت في بعض مناطق أفريقيا السمراء تعطي لحياة الأفارقة معنى متطرّفاً من معاني استعراضٍ كرنفاليّ متواصل. لقد أصبحت هذه الأقنعة معروفة جدّاً، بحيث لا يخلو صالون من صالونات لندن أو باريس من قناع أفريقيّ معلّق على جدرانها. وأكتفي هنا بذكر واحدة منها، بين كثيرات أخريات. فهاكم في مرج رثّ من مروج الضاحية في لاغوس، حلقة فيها بعض الكسالى العاطلين. أقترب منهم فأرى شخصاً يرتدي قناعاً وهو يرقص، أو بالأحرى يتواثب على إحدى قدميه تارة، وعلى القدم الثانية تارة أخرى، وذلك على أنغام طبل خشبيّ يقرع رجل هزيل طاعن في السن ومتهالك الجسم، على طرفيه براحتي يديه. كان شخص القناع مغطى بقشّ مربوط حول ساقيه وخصره وكتفيه، حتّى ليقال إنّ حزمة قشّ هي التي ترقص، خاصّة وأنّ وجهه كان مغطّى بجوروبّ من الحرير الأسود عليه رسوم لعناقيد وأصداف بيض. كان القشّ يتحرّك على وقع كلّ وثبة وينفتح من غير أن يظهر جسم الراقص، بحيث يبدو أنّ الراقص غير موجود على الإطلاق، بينما ترتفع العناقيد والأصداف لتظهر حرير الجوروبّ الأسود الناعم،

بدلاً من الوجه الذي لا يرى منه سوى خيال الأنف، ذلك كما نشاهد في بعض المنحوتات الزنجيّة المنمّقة. على الأرجح لم يكن هذا القناع يثير الرعب بصورة مباشرة، لكنّه يصعب عليَّ أن أطيل النظر إليه. والواقع أنّ هذا القناع لا يرمي إلى إثارة الرعب، لأنّه «هو الرعب» بعينه. كما أنّ هشاشة الإنسان، التي يخشاها الأفارقة أشدّ ما يخشون، تظهر في ذلك الجسد الذي تحوّل إلى حزمة قشّ. فالوجه المغلق ضمن الجوروبّ والمغطّى بالأصداف مثل صخرة تحت البحر، يرمز إلى عدم استطاعة الإنسان على الخروج بوجهه من الطبيعة ذات الأوجه القاهرة المتكاثرة. لذلك فإنّ أحداً من المتفرّجين لم يلتفت عندما حلّقتْ طائرةٌ ضخمة فوق المرج، بهدير يسبّب الصمم، وكادت أن تلمس سقوف أكواخ القصدير المحيطة بالمرج. لم يرفع أحد منهم عينيه نحو السماء، لأنّ انتباه الجميع كان مركّزاً على القناع الذي يجسّد الرعب.

رقصات الأفارقة

لاغوس، نيسان 1963

الأفارقة يرقصون. قال لي البعض هنا في لاغوس إنّ عمّال المناجم يرتجلون أحياناً رقصات على هدير الحفّارة أو الثقّابة. لذلك فإنّ تحويل البلدوزر إلى آلة موسيقيّة لن يبدو أمراً شديد الغرابة لكلّ من يعرف بساطة الموسيقى التي يصاحب بها الأفارقة رقصاتهم، مثل قرع الطبول بالأيدي، أو الضرب براحاتها، أو طقطقة الأصابع. لكنّ لهذا القول مغزاه. فهو يشير قبل كلّ شيء إلى ميل لا يقاوم نحو التعبير بالرقص عن الحياة بأكملها، وليس فقط عن هذه أو تلك من التجارب المهمّة كالعمل الزراعي مثلاً، أو التقارب الجنسيّ. كما أنّه يجعلنا نفهم أيضاً أنّ الأفريقيّ هو الوحيد، بين ما يسمّون بالبدائيّين، القادر على أن يدخل في الحضارة الصناعيّة الحديثة بسعادة، بل على وقع الرقص.

يكفي أن نقول بضع كلمات حول النوعيّة الثانية. لأنّ هناك شعوباً بدائيّة في جميع القارّات الخمس، تعبّر بواسطة الرقص، عن مظاهر وجودها الدينيّة والاجتماعيّة. لكنّ الأفريقيّ فقط هو الوحيد القادر على البقاء شخصاً حديثاً، مع احتفاظه بقدرته الأصليّة على الرقص.

من ناحية أخرى لا بُدَّ من القول إنّ الرقص ليس إلّا المظهر الأوضح للإيقاع البدائي المُعْدي، الذي أدخله الأفريقيّ في العالم الحديث. إنّ هذا الإيقاع الذي يبدو الآن أنّه غير قابل للتجزئة ومتأصّلاً في الحضارة

الصناعيّة، إنّما ينحدر بصورة مباشرة من عصور ما قبل التاريخ القديمة. إنّه أثمن هديّة قدّمتها أفريقيا إلى الإنسانيّة، وهو في الوقت نفسه أوضح علامة على تأثير الأفارقة في السلوك المعاصر.

أمّا بالنسبة للنوعيّة الأولى، المتعلّقة بترجمة الوجود كلّه إلى رقص، فيمكننا أن نقول إنّها من الأمور الواضحة التي لا يمكن لنا أن نميّزها لمجرّد أنّها واضحة. ومع هذا فإن الظاهرة ليست بسيطة كلّ البساطة. أذكر مثلاً أنّي كنت أعبر ذات يوم بالسيّارة الطريق التي تذهب من لاغوس إلى بنين، وهي شريحة من الأرض الحمراء تمرّ بين حاجزين عموديّين تشكّلهما الغابة السوداء. رأينا وقتها فجأة مجموعة من الأفارقة يسيرون بعيداً في منتصف الطريق، وكانوا يرتدون العباءات والجلابيب المعتادة، الفضفاضة والكثيرة الألوان. كانوا يسيرون بهدوء وبخطوات لا تعب فيها ولا كلل، بل طلقة بهيجة، مثل تلك التي يسير الأفارقة بها، من غير وجهة محدّدة، عبر المساحات الشاسعة التي تمتدّ على كلّ القارّة. ما إن أصبحنا على مسافة قريبة من المجموعة، حتّى ابتعد شابّ طويل ونحيل منهم قليلاً عن مجموعته، وذهب بخطوات راقصة. لم يلتفت الآخرون له، بل واصلوا سيرهم، وهم يثرثرون فيما بينهم ويتضاحكون. لكنّ امرأة بدأت فجأة هي الأخرى بالرقص وهي تسير، ولحق بها شابّ آخر، فامرأة أخرى، ثمّ المجموعة كلّها، كما لو أنّهم أصيبوا بنوع من العدوى أو بتقليد آليّ. تقدّم الجميع إلى الطريق في تلك العزلة الجنائزيّة المهيبة السائدة في الغابة، وهم يتواثبون ويهزّون الأذرع ويلوون الأرداف، بطريقة محمومة وعنيفة لم يكن من المستطاع توقّعها، قبل دقائق، عندما كانوا يسيرون بكلّ هدوء.

مررنا قربهم. كان بينهم رجل مسنّ يحمل على عنقه طبلاً صغيراً من الخشب يقرع على أطرافه براحتي يديه، وكذلك بعض الفتية بأقمشتهم المتماوجة الملوّنة الملقاة على أكتافهم، فضلاً عن بعض الشباب والطفلات العاريات تقريباً. كان الجميع يرقصون مع أنّهم يمشون،

وكانوا يظهرون بهياجهم هذا، تناقضاً واضحاً مع جمود الغابة المطلق، وكانت في عيون الجميع نظرات ثابتة مجرّدة، تقود إلى التفكير بنشوة سهلة وجاهزة، إذا جاز التعبير، للعمل على هدم حجاب الفرديّة الرقيق، وربط الشخص بغموض الغيب. لكنّ الغيب كان في هذه الحال قريباً، على بعد خطوتين، بل كان مهيمناً مشهوداً: إنّه الغابة، عظيمة وعدائيّة، وكانوا يطوفون فيها كما يطوف المؤمنون في صحن الكنيسة. تركناهم وراءنا لكنّهم واصلوا الرقص. كانت الطريق مستقيمة، وعندما التفتُّ بعد نصف كيلومتر ونظرت إليهم، وجدت أنّ المجموعة قد توقّفت عن الرقص، واستأنفت السير بخطى عاديّة.

ماذا كنت أعني بضرب هذا المثال؟ أريد أن أقول الذي قلته سابقاً: أي إنّ الأفريقيّ يرقص حياته، لهذا فإنّ هناك دائماً في رقصته شيئاً مدهشاً أصيلاً غريباً لا يمكن التنبؤ به. والواقع أنّ الأفريقيّ لا يعرف ماذا ينتظر من رقصه، كما لا يعرف المرء عادة ماذا ينتظر من الحياة. إنّه يحاول تحريك جسده في اتّجاه معيّن ووفقاً لإيقاع معيّن. لكنّه يحدث وهو يتحرّك بهذه الطريقة، أنّه يتمكّن من الدخول في إيقاع أعمّ وأشمل، يجري حوله، إذا جاز التعبير، جريانَ تيّارٍ بحريّ حول سمكة تسبح في داخله، أو حول حطام سفينة عائم فوقه، وهنا يبدأ بالرقص. غير أنّه يحدث أحياناً أنّ الإيقاع الشخصيّ لا يتمكّن من الدخول ضمن الإيقاع العام، وهنا يتوقّف الأفريقيّ عن الرقص ويستأنف مشيته العاديّة. ومع هذا فإنّه يواظب على محاولته الدخول بخطوات راقصة ضمن إيقاع الكون وذلك بإصرار وصبر الباحثين عن الماء والمنقّبين عن الذهب.

الرقص هو بالنسبة للأفريقيّ وسيلة أيضاً للمشاركة، أو بالأحرى للتخلّص من الشكل الفرديّ السطحيّ، والانصهار بالآخرين، بالطريقة نفسها التي تنصهر فيها قطع مختلفة من معادن مختلفة ضمن بوتقة واحدة. أذكر أيضاً على هذه السيرة، أنّنا مررنا ذات يوم في ضاحية لاغوس، في طريق عودتنا من إيبادان. كانت الطريق تسير على طول صفّ من الأكواخ

التي تعفّنت بطريقة خياليّة، واسودّ لونها بسبب الرطوبة، وبأكواخ أخرى رُقّعت بقطع البراميل وركائز الصناديق، وكذلك بأبنية منخفضة مصبوغة باللون الأحمر ومسقوفة بالقصدير. كان يظهر بين الحين والآخر، وبين كوخ وآخر، مرج عليه أعشاب برّيّة رثّة وخشنة المظهر، تختلف عن الأعشاب البرّيّة اللطيفة التي تنبت في الضواحي الأوروبّيّة. في أحد هذه المروج شاهدنا حشداً من الناس، فتوقّفنا واقتربنا منهم. كان جمعاً كلّه أزرق، وهو لون قبيلة اليوروبا، إحدى القبائل الأربع التي يتشكّل منها سكّان نيجيريا. كانت تلك القمصان والعباءات والسراويل والسترات والفساتين والشيّالات والمناديل الزرق، كانت تشكّل جميعها بقعة كبيرة ذات لون غادر، سماويّ حامض، تحت السماء المنخفضة الغائمة، وضمن إطار الأكواخ المدهونة بالأحمر، والفنادق الكبيرة المنتشرة والمكتظّة بلونها الأخضر المائل للسواد. كما كانت تطفو هنا وهناك، بين الزرقة، وكأنّما وسط بحر مضطرب، وجوه وأذرع وأكتاف سود، ذات سواد زيتيّ برّاق، مثل سواد حبّات بنٍّ تكاد أن تحترق بالتحميص. لم نملك الوقت الكافي للترجّل عن السيّارة، حتّى تهاوت الجموع نحونا، وأحاطت بنا، بل والتهمتنا. كنّا قبل دقائق في فسحة فارغة لنصبح بعد لحظة مضغوطين بين أجسام مئة شخص، تدخل في خياشيمنا روائحهم، ويلمس جلودنا عرقهم، وتتداخل أرجلهم بين أرجلنا، وصدورنا على صدورهم، بينما كانت مئات العيون تنظر إلينا بجشع.

تقدّم منّا رجل مسنّ يعتمر طاقيّة بيضاء صغيرة، وقال مفسّراً إنّ هناك مسابقة رقص، وإنّهم يرحبّون بنا إذا رغبنا في حضورها.

يسّر لي هذا التفسير بغتة، فهم نظرات الكثير من تلك الأعين الشبيهة، في شكلها وضخامتها، بالبيض المسلوق الذي يتضّح بياضه عندما يثقب أو كأنما في داخله محّ أسود. أي إنّ تلك النظرات كانت ثابتة جامدة مثل نظرات آكلي لحوم البشر، على ألّا يفهم من العبارة أيّ قصد مسيء. أتاح لي ذلك التفسير أيضاً فهم المشاعر التي لم أتمكّن من

التخلّي عنها، والتي تنبئ بأنّه قد أحيط بي، بل إنّي قد بُلعت، ليس من قِبَل أجسادِ الناس، لكن من قبل جسد واحد خافقٍ وحارّ، مزوّد بأعضاء كثيرة وبعيون ناظرةٍ بأعداد لامتناهية، تنتمي جميعها لهذا الجسد الواحد. والواضح أنّ الرقص هو الذي ولّد انطباعي بأنّ هذا الجسد، أو بالأحرى هذه الأجساد، قد انصهرت بصورة مؤقّتة داخل جسد واحد. وبما أنّنا رفضنا الدعوة، فإنّ هذا الحشد بعد أن ضغطنا وعصرنا وسقانا روائحه وعرقه، انحسر في حركة تراجع عظيمة وعاد إلى الفسحة ليشكّل فيها بصورة عفويّة حلقة جديدة حول الراقصين. بينما كنّا نصعد إلى السيّارة تمكّنا من أن نرى بعيداً بعض الأقنعة الشيطانيّة وهي تثب وتهتزّ وسط أمواج من الرؤوس السود المُصَوّفة وهي تتحرّك على الإيقاع.

لكنّ الرقص بالنسبة للأفارقة هو أيضاً من المظاهر الفرديّة البحتة، ويمكن لأيّ كان أن يتأكّد من الأمر بالدخول إلى واحد من النوادي الليليّة الكثيرة، المنتشرة في خليج غينيا، والتي تظهر خلال الليالي المظلمة والرطبة الخانقة وكأنّها تتفجّر بأضواء النيون العنيفة، في صدر حارات لاغوس الشعبيّة. أكثر هذه النوادي قائم في الهواء الطلق، حيث تمتدّ أرضيّة إسمنتيّة وسط العديد من الطاولات المخلوعة والمقشورة والكراسي المخروطيّة الشكل، أمّا الأوركسترا فتجلس على منصّة أمام خلفيّة رثّة مضطربة من الأكواخ والحجرات المتداعية. ومع هذا فما إن تتحمّس الموسيقى وتبدأ أنغام التويست والهاي لايف[1] تصدح، حتّى ينسى المشاركون مغالطات البؤس السائدة في المكان، ليُفتنوا بجمال الراقصين وأناقتهم ولامبالاتهم وأنغامهم وتعبيريّتهم المكثّفة. إنّ هؤلاء الأفارقة النحيلين الطوال القامة الغارقين في ستراتهم وسراويلهم الفضفاضة العريضة، لا يتركون الرقص بمجرّد أن يمسكوا بطرف خيطه، ويبقون يتحرّكون على حلبة الرقص بخفّة وتماوج، كأنّ أجسادهم خالية

1- نوع من الموسيقى نشأ في غانا في بداية القرن العشرين يستعمل الأدوات الموسيقيّة الغربيّة رغم أنّه يقوم على إيقاعات محلّيّة. (م)

من العظام، بل كأنّها أجسام بلا شكل محدّد. كذلك كما تتميّز رفيقاتهم بنحالة الأجسام، وبقدودهنّ الرخصة بشكل لا يصدّق، وقاماتهنّ الممشوقة، والكواحل والمعاصم الأنيقة برزانة بهيّة، والأفكاك البارزة وتسريحات الشعر المخروطيّة. ها هنّ يتلوّين أمامهم، لكن بطريقة تظهر عفيفة ومثيرة في الوقت نفسه.

أين سبق لي أن رأيت مثل تلك الهيئات المتطاولة السود الأنيقة، تلك الرؤوس المليئة بالعيون والأفواه، حيث الجلد دهنيّ القوام، برّاق خشن وبلون البرونز الباهت نفسه؟ رأيتها، طبعاً، في صناديق المتحف التي عرضت ضمنها المنحوتات الغريبة التي صنعها فنّانون من بنين. في بعض الأحيان تعطي هذه المنحوتات في أوروبّا الشعور بأنّها كاريكاتوريّة. لكن ها هي الآن هنا، في نوادي لاغوس الليليّة، تظهر حقيقيّة على حالها، بل وكأنّها صور فوتوغرافيّة. فليس الفنّانون، بل إنّ الطبيعة في خليج غينيا، هي نفسها ذات طابع تعبيريّ، ذاتيّ، هذيانيّ، كاريكاتوريّ. لذلك فإنّ الأشخاص يرقصون، ويعبّرون عن غرابة الطبيعة.

إنّ قدر الأفارقة
هو أن يسيروا على الدوام

كانو، نيسان 1963

الأفارقة يسيرون. لقد عبرتُ آلاف الكيلومترات في أفريقيا السمراء، فرأيتُ في كلّ مكان منها، في أراضيها البرّيّة كما في تلك المزروعة، رأيت أشخاصاً منفردين أو أزواجاً من رجل وامرأة، أو عائلات صغيرة، أو حتّى مجموعات من عشرة وعشرين شخصاً من كلا الجنسين، ومن كلّ الأعمار، رأيتهم كلّهم، يسيرون في انعزال مخيف عبر أراض لامتناهية تعجّ بأشجار السافانا المتشابهة، أو عبر دروب شبيهة بأنفاق تتخلّل الكتلة المظلمة التي هي الغابة المطريّة.

إلى أين يذهب هؤلاء الأفارقة المهاجرون؟ خاصّة وأنّهم لا يبدون أنّهم متشرّدون البتّة، ولا متسوّلون ولا شحّاذون شذّاذ آفاق لا يعرف أحد وجهة لهم، ولا هم يعرفون ذلك، على كلّ فالأمر واحد حيثما ذهبوا. أمّا الزنوج فيبدو أنّهم يعرفون كلّ المعرفة إلى أين الطريق، وفي الواقع فهم يعرفون ذلك. أي إنّ الزنجيّ يتوجّه دائماً نحو أشغاله، ويتحرّك لأسباب اقتصاديّة تجاريّة ومعيشيّة. يأتي الأفارقة ويذهبون إلى الأسواق، وعندما لا يتوجّهون أو لا يعودون من الأسواق، فإنّهم يذهبون إلى المراعي أو الحقول أو يرجعون منها. كما يمكنهم في النهاية أن يتحرّكوا لأسباب عائليّة أو اجتماعيّة أو سحريّة، لكن إذا ذهبنا لننظر عن قرب، فإنّنا نرى

أنّ السبب الاقتصاديّ يكمن دائماً وراء كلّ تلك الأسباب. ذلك أنّ الأفارقة رغم تصرّفاتهم الغريبة والخياليّة وغير المنطقيّة والراقصة، فهم من الأجناس الأكثر متاجرة في العالم، رغم أنّ تجارتهم لا تتعدّى كونها مجرّد مقايضة بالطبيعة، وتبادل صغير في بيع وشراء منتجات قليلة من الصناعات العائليّة. على كلّ فإنّ الفائدة لا تكفي لتفسير الجنون التجاريّ لدى الأفارقة. فالواقع أنّ الأفريقيّ يعيش على مستوى غريزة البقاء، لذلك فإنّ المتاجرة ليست مهنة بمقدار ما هي طريقة في الحياة ضروريّة لوجوده.

إذا نظرنا من هذا المنظار إلى أفريقيا السمراء، فإنّنا لن نراها مجرّد خليط من الدول والدويلات، القائمة على النمط الغربيّ، والمرسومة في حدودها على أساس المستعمرات القديمة من فرنسيّة وإنكليزيّة، ذلك كما يبدو واضحاً في الخريطة الجغرافيّة، بل سنجد أنّها جسم واحد، يتكامل بالوحدة الاقتصاديّة، ويتوازن بها، وذلك مقابل التشرذم القبليّ اللامتناهي. لا تستند هذه الملاحظة على فرضيّات وملاحظات وهميّة، بل على أساس أنّ المدن، التي هي مراكز الأسواق في أفريقيا السمراء، موجودة في أراضٍ لا تتوافق مع الحدود السياسيّة، بل تتجاوزها. قد يقال إنّ هذا يجري في أوروبّا أيضاً. صحيح، لكنّ الواقع في أوروبّا سواء كان لغويّاً أو سياسيّاً أو عسكريّاً أو دينيّاً، أي تاريخيّاً باختصار، هو واقع ملموس بحيث إنّه يضفي طابعاً مقدّساً إذا جاز التعبير على الحدود. بينما لا نجد مثل هذا الواقع الملموس في أفريقيا، بما أنّ بلدانها قد أُسّست كما رأينا على آثار المستعمرات، والتي رسمت بدورها على أسس تعسّفيّة تماشي مصالح المستعمرين الأوروبّيّين. وهكذا فإنّ الأسواق، بطرقاتها ودروبها ومساراتها الأرضيّة والنهريّة التي تربطها بالمراكز السكنيّة، ما تزال هي الثوب الوحيد الذي تمكّن الإنسان من إلقائه على عري أفريقيا السمراء، البرّيّ المتوحّش القديم.

يشعر المرء وهو يمرّ في أسواق أفريقيا الجميلة والغريبة، بأنّ وظيفتها الحقيقية تتعدّى كثيراً البيع والشراء، وأنّ الحياة البشريّة قد تخبت بدونها بالفعل، لتعود إلى مستواها الوحشي. لقد زرت الكثير من هذه الأسواق

فوجدت فيها كلّها الجوّ المحموم نفسه، الجوّ الانفعاليّ الاحتفاليّ والمخيف، كأنّها معرض تقام فيه اجتماعات دينيّة وتظاهرات سياسيّة ولقاءات بين السحرة ومبادلات ثقافيّة، لكنّه في الوقت نفسه جنسيّ بامتياز، وبطريقة مثيرة فاضحة.

توجد هذه الأسواق أكثر ما توجد في مراكز المدن، بل إنّها تشكّل مركزها الحيويّ، لكنّها تبدو، للوهلة الأولى، أنّها على طرفي نقيض مع تلك المدن بالذات، وبطريقة لا تحتمل. فأكواخها وحجراتها المصفوفة على طرفي الدروب الضيّقة، وحشودها المختلطة الثرثارة، وروائحها القذرة وأوساخها، تتعارض بشكل فاضح مع البيوت والأبنية بل وحتّى ناطحات السحاب الصغيرة، في المدن المبنيّة غالباً على الطريقة الأوروبّيّة، بل والأميركيّة أحياناً. لكنّ تفكيراً أعمق لا بُدَّ أن يقنعنا أنّ هذا التناقض ليس إلّا تناقضاً ظاهريّاً. فالمدن يمكن، بل يجب أن تكون مبنيّة على الطريقة الأوروبّيّة، وهذا عدل بما أنّ أفريقيا السمراء مصمّمة على أن تتحوّل إلى الحداثة. لكنّ قلبها يبقى ذلك القلب الأفريقيّ القديم، ومن العدل أن يكون الأمر على هذا الشكل، بما أنّ أفريقيا تريد أن تتحدّث، لكن على أن تبقى مخلصة لنفسها. إن قلب المدن الأفريقيّة، في لاغوس أو أكرا، وإيبادان وكانو، إنّما هو السوق. والسوق يحافظ، رغم الأبنية التي تحيط به، على الصفة التي كان يتّصف بها، عندما كانت الغابات والسافانا قائمة في مكان تلك الأبنية. أي عندما كان السوق مركزاً اجتماعيّاً وحيداً، لعالم جنينيّ وفوضويّ، خاضعاً على الدوام لتآمر الطبيعة القاسية المظلمة.

في مرّات أخرى لم يكن السوق في مركز المدينة بل خارجها، بعيداً عن السكن، ربّما لأنّه ليس بمقدور المدينة أن تضمّ ضمن أسوارها منشآت الباعة المترعة، وتدفّق سيول المشترين. أذكر هنا أحد هذه الأسواق القائمة في الضاحية قرب كانو شماليّ نيجيريا، وهي مدينة كبيرة مبنيّة بطراز جميل جدّاً بين البدائيّ والعربيّ، وإذا شاهدناها من مئذنة مسجدها، فإنّنا سنرى كيف أنّها مستديرة مثل جرم سماويّ، أو حوض، وسط سهل فسيح

ذي لون أخضر باهت يميل إلى الزرقة. لهذا الجرم لون أحمر آجريّ، ولا يكسر احمراره إلّا خضرة اليشم أو الجادّ في الحديقة أو في حوض مياه البلديّة. كما أنّ البيوت المبنيّة بطابق الواحد، من الطين المعجون بالقشّ، والتي طليت بعد ذلك بدهان بنيّ فاتح اللون، لها جدران ملساء، تموّجت، بعدما رسموا على طينها الطريّ، بالريشة أو بالمسحاة، أخاديد متعرّجة على شكل أمواج. تشكّل هذه الجدران المتموّجة، الخالية من أيّة فتحة، والمغلقة بطريقة محكمة، رغم وجود بعض الأبواب أو النوافذ الصغيرة هنا وهناك، تشكّل حولها طرقاً ضيّقة ومقفرة، تكشف عن البؤس الرهيب الكامن في حياة المدينة الأفريقيّة: غبار، بضعة أطفال عراة، امرأة منحنية على درجة الباب وهي تطحن شيئاً ما في الهاون، ورجل يجلس القرفصاء في الشمس بين الذباب. الصمت عميق، تشرق الشمس بين الفتحات الحمراء في أعلى الأسوار وفي السماء الزرقاء الناصعة. إنّها شمس عموديّة قاسية حارقة، ممّا يفسّر انغلاق المدينة المحكم، انغلاقاً عربيّاً. ورغم أنّ المدن العربيّة هي بيضاء، فإنّ مدينة كانو حمراء بالكامل، وهو اللون الذي غالباً ما تظهر به أرض أفريقيا.

تتدفّق القوافل إلى كانو من أرجاء بعيدة من أفريقيا، من الشرق كما من الغرب، فيها أناس يريدون أن يشتروا وأناس يريدون أن يبيعوا. على بعد خمسين كيلومتراً من كانو كان يعقد سوق في ذلك اليوم بالذات. ذهبنا إلى هناك. بعد ساعة من الجري والتواثب على طريق رمليّ بين أجمات كثيرة وأكاسيا السافانا، رأينا أولى بوادر السوق: مجموعات أفارقة يرتدون ملابس متطايرة، وثياباً عريضة واسعة من القطن الأبيض، يسيرون بمشيتهم الغريبة والمرحة عبر القفر المنبسط، نحو هدف مجهول. لم يكونوا في البداية سوى مجموعة من الأشخاص المتفرّقين، ثمّ بعض المجموعات من العائلات، تلتها مجموعات أخرى من الحشود المتحرّكة. كانوا يسيرون بسرعة، وهم يثرثرون ويضحكون ويحرّكون أيديهم بحركات المتحمّس أصلاً للانغماس في جموع السوق التي تكثر

فيها الحشود الكبيرة، ذلك كما يحدث لمن يتوجّه إلى مكان للاجتماع يعرف مسبقاً أنّه سيغوص فيه. الخلاصة أنّ كلّ أولئك الأفارقة الذين يجرون بسرعة نحو السوق، ظهروا وكأنّهم يتذوقون منذ الآن لحظة انغماسهم بين الحشود، واختلاطهم مع آخرين كُثُر، ضمن أمواج الغبار والعرق والضجيج، وبشكل يتمكّنون فيه من التخلّص من التميّز الفرديّ، العابر والمزعج، وغير الضروريّ أصلاً.

ها هو السوق الآن. سهل فسيح فيه بضع أشجار كبيرة عليها أكاليل من الأغصان المورقة المتناثرة. وهناك تحت الأشجار حشود ترتدي الثياب البيض، كما لو أنّها جماهير مدينةٍ إغريقيّة أو رومانيّة قديمة. كان السهل منبسطاً بحيث بدت الجموع بإشاراتها وحركاتها البيض وكأنّها مرسومة على قمّة جبل ينتصب أمام السماء الزرقاء. يمكن للمرء أن يرى، حتّى عن بعد، أنّ هناك تيّارات مختلفة، تتضارب بقوّة وعنف ضمن ذلك المزيج، كما تتضارب أمواج البحر العاصف. كان الحشد يتماوج فينفتح وينغلق، ويذهب ويعود، ويدور ويبتعد ويقترب. إنّها حركات التجارة، وفي الواقع فما إن ينفتح الحشد حتّى تظهر قطعان ثيران قريبة من بعضها البعض، تظهر أعداد كبيرة من أرجلها القصيرة، وأعداد كبيرة من وجوهها ذات الأنوف السود، وأعداد كبيرة من قرونها الهلاليّة الضخمة. عندما ينغلق الحشد نستطيع أن نرى فوقه العقبان الكبيرة السود، وهي تدور ببطء وكأنّها تبحث عن فريسة، قبل أن تعود لتتوقّف على أغصان الشجر بأجنحتها المطويّة ورقابها المنتصبة. يرتفع من بين الحشد غبار يخيّم على المكان، غبار احتفاليّ، مرح، مندفع ومعدٍ.

دخلنا إذن وسط الحشد، وتجوّلنا بينه ساعتين أو ثلاثاً بدون توقّف، بين ذلك السيل المتدفّق من الحمم الإنسانيّة، الذي تصدّع بطريقة آليّة غريبة من أجلنا، أي ليفسح المجال أمامنا على شكل درب ضيّق مشقوق بين الأجسام، ذلك رغم أنّ الأفارقة لم يظهروا أنّهم شاهدونا، بل كانوا كأنّهم غارقين في نوع من النوم المغناطيسيّ الاحتفاليّ. من غير

المفيد وصف البضاعة المعروضة على الأرض بين أقدام باعة يجلسون القرفصاء على التراب. لم يكن شيء في تلك البضاعة يثير الانتباه، سواء عليها إن كانت من منتجات الحقول الأفريقيّة المعتادة، أم من بعض منتجاتهم اليدويّة القليلة، أو حتّى من المنتجات المصنوعة بأعداد كبيرة في أميركا أم في أوروبّا. لكنّ ما يثير الانتباه حقّاً إنّما هم الأشخاص، سواء كانوا باعة أم مشترين. لأنّ هؤلاء الناس قادرون على الاستفادة من تلك السلع البائسة ومن هذه البضاعة التي لا أهميّة لها، ليس بالنقود فقط، بل بطرق أخرى أيضاً جديدة ومتجدّدة.

تنتشر هذه الأسواق كما أسلفنا في جميع أنحاء أفريقيا السمراء. وإذا فرضنا أنّ الأفارقة سافروا من السنغال، ليذهبوا برّاً أو بالنهر، إلى أونيتشا في النيجر، ليس بعيداً عن نبع النهر، فهذا يعني أنّهم قطعوا، على الخريطة، أكثر من آلاف الكيلومترات. وهم يقطعون هذه المسافات الهائلة، ليبيعوا أو ليشتروا بضعة أكياس من البذور، أو عدّة عشرات من أمتار القطن. إنّ هذه المسافات الشاسعة تعطي فكرة واضحة عن أفريقيا الحقيقيّة، التي هي على طرفي نقيض مع أفريقيا الموجودة على الخرائط الجغرافيّة. لذلك علينا ألّا نفكّر بقارّة كبيرة مجزّأة في أمم عديدة، بل بمساحة شاسعة مترامية الأطراف، تعجّ بالقبائل لكنّها خالية من الأمم، مثلما كان عليه الأمر على الأرجح في أوروبّا خلال العصور المتوسّطة، عندما كان الناس يتجوّلون بين الأسواق ومختلف المعارض الكبيرة. إنّ هذه الصفة من صفات أفريقيا السمراء، تشترك مع صفات أخرى ليس هذا مكان وصفها، تبعدنا عن التنبّؤ بظهور كيانات متعدّدة كبيرة وصغيرة، على الطريقة الأوروبّيّة، وتدعونا إلى التنبّؤ بظهور كيان كبير موحّد، أي نوعاً ما، على طريقة البلدان القاريّة الكبيرة مثل الهند أو الصين أو الولايات المتّحدة أو الاتّحاد السوفياتيّ.

إنّ الأفارقة يسيرون، لكنّ سيقانهم الطويلة التي لا تتعب تحتاج إلى حيّز واسع تسير فيه.

نهاية الشجاعة

أروشا[1]، أيّار 1963

قدّم لنا همنغواي تصوّراً عن أفريقيا، التي سرعان ما ستصبح أثراً بعد عين، بعد نهاية الاستعمار من جهة، وبدء الغزوة الرأسماليّة الجديدة من جهة أخرى. والآن، إذا ما تجوّلنا عبر أفريقيا السمراء، فلا بُدَّ أن نلاحظ إلى أيّ حدّ كان همنغواي سجين «معطيات» أفريقيّة، أي مرتبطاً بفترة تاريخيّة معيّنة من حياة القارّة السمراء. كان همنغواي متعلّقاً بهذه الـ «معطيات»، ليس لأنّ هناك في رواياته الأفريقيّة وصفاً لمجتمع صغير من المتعجرفين والأثرياء والمفكّرين الفاشلين، ممّن زالوا وانقرضوا، بل لأنّ طريقة التفكير التي ترشح من هذه الروايات قد عفا عليها الزمن خاصّة وأنّها تعود إلى القرن الثامن عشر. ففي روايات مثل رواية ثلوج كليمنجارو وحياة فرانسيس ماكومبر القصيرة السعيدة، يقدّم لنا همنغواي لحظات خيبة الأمل المريرة التي مرّت خلال تاريخ الاستعمار، لكنّه لا يحيد عن سلّم القيم الموجود أيضاً لدى كيبلينغ[2]. أشير هنا قبل كلّ شيء إلى الشجاعة الجسديّة التي تشكّل، ولو بطريقة فرويد، أعلى قيم الرجل

1- أروشا هي مدينة في شمال تنزانيا تحيط بها بعض المناظر الطبيعيّة، من التي تعد أكثر شهرة في أفريقيا، وتضمّ العديد من المتنزهات الوطنية. (م)

2- جوزيف روديارد كيبلينغ Joseph Rudyard Kipling (1865-1936) صحافي إنكليزي وكاتب قصص قصيرة وشاعر وروائي. اشتهر خاصّة بأدب الأطفال، وتقلّد جائزة نوبل للآداب عام 1907. (م)

الأبيض، وذلك سواء بالنسبة لهمنغواي أو بالنسبة لكيبلينغ. لكنّ هذه الشجاعة هي عرضة اليوم في أفريقيا لأن تتخطّاها قيم أخرى، ضروريّة أكثر من سابقاتها. علماً أنّ الشجاعة ستبقى أمراً لازماً، بل أكثر لزوماً من الماضي، لكنّها لن تكون شجاعة شبيهة بشجاعة الصيّاد ويلسون في رواية حياة فرانسيس ماكومبر القصيرة السعيدة الذي يصعق الأسد على مقربة خطوتين منه، بل ستكون شجاعة من نوع آخر، أقلّ تلويناً، وأكثر مدنيّة، وغير محصورة قبل كلّ شيء بالرجل الأبيض، بل هي عامّة لدى الجميع من بيض وسود، ممّن يلجؤون إليها الآن ليغيّروا وجه أفريقيا.

على كلّ فإنّ همنغواي لا بُدَّ أن يعود إلى الذاكرة ما إن نصل إلى بعض نواحي أفريقيا الشرقيّة. يجب الاعتراف أنّ الأماكن التي تحمل على التفكير بهمنغواي هي من أجمل الأماكن في القارّة السمراء. منها ما يسمّى بمزارات الوحوش، أو الحدائق الطبيعيّة، أو مركز حملات الصيد الكبيرة، التي ينظّمها أثرياء أوروبّيون باحثون عن مشاعر المغامرة. لقد وصف همنغواي أكثر من حملة سفاري في رواياته الأفريقيّة، حتّى ليقال إنّ روح السفاري هي منتهى تجربته الأفريقيّة، وهي روح سياحيّة نوعاً ما، ومتعالية، وغير خالية من الابتذال والتجديف غير الواعي.

كلمة سفاري في اللغة السواحليّة، وهي لغة مشتركة في أفريقيا الشرقيّة، تعني «رحلة». بهذا المعنى الأصليّ للكلمة قمت أنا أيضاً بالسفاري. فقد سافرت ذات صباح جميل من جزيرة زنجبار، وانتقلت على عدّة مراحل بالطائرة إلى أروشا على سفوح جبل ميرو العظيم. في أروشا وهي بلدة ترتفع، بمواصفات سويسريّة، على أطراف الغابة، وجدت الشاحنة المحمّلة بمؤونة الموتيل الموجود على بعد حوالي مئة من الكيلومترات، والتي أقلّتني على طريق ودروب سيّئة عبر المرتفعات والسهوب إلى بحيرة مانيارا.

أويت إلى السرير في عتمة الليل الأفريقيّ، بدا لي في الظلام، أن غرف الموتيل كانت مصفوفة على شكل دائرة، تحيط بجرف هاوٍ،

يملؤه القمر بضوء فضّي هادئ وضبابيّ. خرجت من الغرفة في الصباح التالي وتوجّهت بالغريزة، تحت وطأة الشمس الحارقة، نحو درب بين الأكاسيا يفضي نحو سور، لا بُدَّ أنّ هناك فراغاً وراءه. عندما وصلت إلى السور اعتليته ونظرت فرأيت في الأسفل منظراً من المناظر المعروفة عن أفريقيا، أي منظراً من ما قبل التاريخ. واحداً من تلك المناظر التي تعيد إلى الذاكرة، بسحر ساحر، وحوشاً اختفت منذ العصور الجيولوجيّة، مثل الديناصورات والماموث والتنّين الطائر. كان هناك بحيرة بلون الفولاذ، ناعمة المظهر، تنيرها هنا وهناك أضواء مضطربة تعمي الأبصار، ممتدّة حتّى حدود الأفق، كان هناك أيضاً جبال تحيط بالبحيرة من كلّ جانب وكانت على شكل عوارض أو قواعد تماثيل لكن بدون تماثيل. كانت سفوح هذا الجبل مغطّاة بالغابات السود، وهي تهوي على شاطئ البحيرة العريض المنبسط، ذي البياض الشاحب والأقصاب المنتشرة. كانت الجبال المنخفضة، والمياه ذات المظهر المعدنيّ، والشاطئ بسبخاته، بل حتّى السماء بغيومها المرتفعة الثابتة، كانت كلّها توحي بعالم ساكن، صامت لا أصوات فيه، ومقفر لا وجود لبشر فيه، وبمنظر مسرحيّ شاسع فسيح الأرجاء، لكن بلا ممثّلين، إلّا ما فيه من نبات وحيوان.

ثمّ إنّي خفضت بصري. كان هناك، أسفل منّي، وعلى مقربة مئتي متر فقط، غابة تنتشر، كأنّها مفروشة بمواد منظّفة خضر في غليان متواصل. إنّها الغابة الأفريقيّة، سوداء، كثيفة، معشوشبة، غزيرة، ثقيلة وبرّاقة. لذلك فقد شعرت وكأنّها غابة متحرّكة.

أمعنت النظر فأدركت السبب: كان هناك قطيع فيلة، تموّهَ أحسن تمويهٍ بأوراق الشجر. كان القطيع يتحرّك وهو يرعى على سفوح الجبل. رأيت آذان الفيلة، الشبيهة بأوراق الأشجار الكبيرة التي تنمو في السبخات، ورأيت ظهورها الشبيهة بالبراميل وأقدامها المخروطيّة البدينة، وخراطيمها المرفوعة إلى أعلى، وأذنابها الشبيهة بأذناب الخنازير، القصيرة المائلة إلى الأسفل. كان يتحرّك وهو يأكل، يظهر

عليه ذلك الخليط المحيّر من البراءة والجبروت الذي يميّز وحوش الطبيعة... بدا بعيداً عنّي هناك في أسفل الغابة، فهل كان بُعده هذا هو بعد المكان، أم بعد العهود الدفينة التي ينتمي إليها، والذي كان يطلّ من ورائها وكأنّما بفعل معجزة؟

في تلك الظهيرة بالذات، نزلت إلى البحيرة بواسطة واحدة من تلك السيّارات الخاصّة ذات السقف المفتوح، والتي تستعمل عادة في عمليّات الصيد الضخمة. بعد أن اجتزنا الغابة التي شاهدتها من الأعلى، وصلنا أخيراً إلى السافانا. كانت الأعشاب هناك طويلة، لونها أخضر شاحب وجافّ، والأجمات ضخمة مستديرة، وشجيرات الأكاسيا صغيرة معوجّة. كانت مياه البحيرة رماديّة ملساء، وكنا نرى بريقها يلمع بين أجمة وأخرى. لكنّنا لم نجد أيّاً من الأسود والنمور وطرائدها من آكلات العشب، مثل الزرافات والغزلان والأرانب والخنازير البريّة. كما لم نشاهد الجواميس ووحيدي القرن التي تعيش عادة في هذه الأماكن. بدت السافانا فارغة على مدّ النظر، تائهة وسط ضوء أصفر هادئ، كأنّها صورة كانت مرسومة على لوح مهترئ وأصبحت تالفة ممحيّة.

عندها طلبت من السائق، وهو شابّ زنجيّ عليه ملامح الذكاء والأنـاة، أن يتوجّه نحو طرف المزرعة حيث يمكن لنا أن نرى الوحوش. فأجابني مبتسماً بأنّنا موجودون بالفعل في ذلك الطرف من المكان المطلوب. وهنا توقّفت السيّارة، فصعدت بقدميّ على المقعد، ومددت رأسي من فتحة السقف. كانت تهبّ نسمات ريح حارّة ضعيفة، شممت فيها رائحة أفريقيا، رائحة واخزة رغم رقّتها، لكنّها بعيدة على ما يبدو عن أيّ صفاء. كانت الشمس ملتهبة في كبد السماء، تسطع فوق الأجمات وشجيرات الأكاسيا ومياه البحيرة. رأيت عندها شيئاً ما يتحرّك بين الأعشاب، ثمّ وعلى حين غرّة بزغ رأس أشقر لأسد كان بين السنابل الخضر الرفيعة. نهض الأسد على قدميه وهو ينظر باتّجاه البحيرة، ثمّ فتح فمه بصمت، وهو يقلب شفتيه ويعرض أنيابه البيض

الكبيرة. بدا كأنّه يريد أن يستعيد أنفاسه ويستجمع غضبه، لكي يضمّخ صوتَه بتعابير التهديد المناسبة.

وفي الواقع فها هو صوت زئيره ينفجر، وكأنه يصدر من أعماق مغارة. كان قد انتصب على قدميه، فظهر نحيلاً وصغيرَ الجسم بالمقارنة مع رأسه المشرئبّ إلى الأمام. كانت عضلات جسمه بارزة، تحت جلده وذنبه الطويل، بعقدة النهاية الغامقة المائلة نحو الأرض. لبّت زئيرَ الأسد لبوةٌ لم ألاحظها من قبل، فنهضت ببطء من بين الأعشاب، وذهبت لتضع رأسها الحليق والمستدير، إلى جانب رأس الذكر. في النهاية توقّف الزئير، فتحرّك الأسدان ببطء وتكاسل، كأنّما سئما أو تضايقا، وعلى كلّ لم يكونا عابئيْن بنا. تحرّكا حوالي عشر خطوات حتّى وصلا إلى أجمة أخرى فاستلقيا هناك على العشب المرتفع، قبل أن يغيبا كلّية عن الأنظار. نظرت، فلم أشاهد أيّ شيء جديد على الإطلاق. لكنّي كنت أعرف أنّ الأسود موجودة، وأنها تراني رغم أنّي لا أراها ولا أستطيع أن أحدّد مكان وجودها. انطلقت السيّارة من جديد ووصلنا إلى شاطئ البحيرة. هل سبق ورأيتم بعض اللوحات السيرياليّة، التي تصوّر آفاقاً مذهلة، تمتدّ وراء منبسطات من الأرض، تنتشر عليها هنا وهناك أشياء صافية برّاقة؟ هكذا هو شاطئ البحيرة. أبيض، بياضه قذر رثّ. بدا على مدّ البصر مليئاً بالعظام والجماجم وبما يشبه حطام هياكل عظميّة منتثرة. اقتربت السيّارة من بعض هذه العظام فاكتشفت أنّها ليست إلّا جذع شجرة مع بعض الأغصان البيض، وقد تحجّرت وتآكلت بسبب الشمس والرمال. كان الجذع مسجّى هناك، كأنّه هيكل عظميّ لرجل مات من جوع وعطش في تلك الصحراء، ولا بدَّ أنّه سقط من تلقاء ذاته، بسبب الهرم، فحملته الرياح والمدّ العاصف، من البحيرة إلى هذا المكان المعزول، حيث بقي يبرق تحت أشعّة الشمس. كانت هذه أيضاً صفة نموذجيّة لأفريقيا: فالأشجار تموت من الهرم، وتسقط وتتحلّل، من غير أن يتدخّل الإنسان، لأنّ الإنسان غير موجود في ذلك المكان.

تقدّمت السيّارة فرأيت شجرة أخرى من تلك الأشجار المتهيكلة البرّاقة. لكن ما إن اقتربنا منها حتّى اكتشفت وسط دهشتي العارمة أنّها كانت هيكلاً عظميّاً بالفعل، ربّما كان هيكل جاموس. هذا إذا حكمنا عليه من خلال القرون السود البارزة من الجمجمة المغروسة في الرمال، ومن المنكبين المقوّسين العظيمين البارزين بين الأحجار. هل التهمته الأسود، أم مات بسبب الهرم، من يدري؟ وهكذا تنكشف على ذلك الشاطئ صفة أخرى من صفات الطبيعة التي يغيب فيها الإنسان: الموت هادئ، متروك لنفسه جنباً إلى جنب مع الحياة. أمّا الإنسان فإنّه، هو، لا يقبل بوجود الموت قرب الحياة. لهذا فقد أوجد المقابر، وشاحنات القمامة، وقطارات الضاحية التي يكوّم فيها الأنقاض، أوجدها كلّها ليمحو كلّ أثر للموت، وليتظاهر أمام نفسه أنّه يعيش في عالم ليس فيه إلّا الحياة.

تقدّمنا لمسافة نصف كيلومتر آخر على طول الشاطئ المليء بالهياكل العظميّة، فوجدنا، بعد أحد المنعطفات، وعلى حين غرّة، أنّ مزار الحيوانات قد احتشد بالحيوانات. كانت تهرب أمامنا، على شاطئ البحيرة، بعض طيور النعام الضخمة، تهتز خلفها حزمة ريشها الأسود، تحت أعناقها الطويلة، وهناك أبعد منها قطيع من حمر الوحش الضخمة، الممتلئة الجسم البدينة، كانت ترسم في الفضاء خطوطها البيض والسود، ثمّ وأبعد بقليل، كانت تندفع باتّجاه السافانا، بل تتواثب وسط الأعشاب، أعداد كبيرة من الغزلان الصفر والسود. وكان هناك في النهاية جواميس سود ضخمة كثيرة، تتهادى بعيداً على خلفيّة السافانا الضبابيّة، بقوائمها النحيلة وأجسامها الهائلة. كما ظهرت حيوانات صغيرة بين الأجمات، ربّما كانت ثعالب أو خنازير برّيّة أو ظباء قزمة. أي إنّ المزار محتشد حقّاً بأنواع الحيوانات، وممّا يثير الدهشة أنّ الأسود والحيوانات العاشبة، أي الحيوانات التي تَلتَهِم والحيوانات التي تُلتَهَم، كانت كلّها تعيش جنباً إلى جنب، تتجاهل بعضها بل تعيش بانسجام رائع.

كنت كما أسلفت واقفاً على قدميّ فوق مقعد السيّارة، وتخيّلت ربّما بسبب سحر المكان أنّي شخصيّة من شخصيّات همنغواي، وأنّي أحمل بندقيّة بين يديّ وأصوّب نحو جاموس أو أسد أو غزال أو حمار وحش. لكنّي وجدت أنّي ومهما حاولت تقمّص شخصيّة الصيّاد فإنّي لا أتمكّن من التخلّص من مشاعر محدّدة توحي لي أنّ قتل تلك الحيوانات هي جريمة قتل شبيهة بجريمة قتل شخص من البشر. في النهاية بدا لي أنّي أفهم أنّ الشروع بالصيد يستدعي تقمّص شخصيّة إنسان اليوم، إذا صحّ القول. إنّنا نعيش الآن في زمان المجتمع الاستهلاكيّ، ولذلك فإنّ الفيلة أو الأسود بالنسبة لصيّادي السفاري، هي مثل السيّارات والثلّاجات، أي مجرّد أشياء يجب استهلاكها أو بالأحرى تحطيمها، من أجل استبدالها بأخرى أفضل، أو أرخص منها. لكنّي بكلّ بساطة لا أستطيع أن أكون معاصراً أو عصريّاً، بهذا المعنى. أي إنّي لا أستطيع أن أنسى أنّه يمكن للإنسان أن يستبدل السيّارات والثلّاجات بكلّ سهولة، أمّا الأسود والفيلة فإنّها ستزول إلى الأبد إذا هي «استُهلِكَت».

الفردوس الذي كان جحيماً

زنجبار، أيار 1963

زنجبار هي مكان من الصعب ألّا نسمّيه ساحراً. تخيّلوا الذي أراه الآن: هناك غابة كثيفة من أشجار نخيل جوز الهند، تغطّي قسماً معتبراً من الجزيرة، ولا شيء أشدّ أناقة منها ولا أشدّ غموضاً وأكثر خياليّة، وذلك باستثناء غابة أخرى من غابات الصنوبر وربّما النخيل بجذوعها النحيلة العارية، ذات اللون البنيّ الفاتح، التي تتمايل على الطرفين، إلى هنا وهناك، ضمن منظور متصالب متشابك، تضاعفه وتزيده غموضاً أشعّة الشمس التي تتسلّل عبر الأوراق المرتفعة، ثمّ تنعكس بطريقة غير مباشرة. المكان تحت الغابة فارغ على مدّ البصر، غارق في ضوء أخضر وذهبيّ يبرق كلّ ما فيه ويختال، حتّى لو كان مجرّد عِرق من الأعشاب. هناك أيضاً أكواخ كبيرة من القشّ بسقوف مائلة تعشّش بين النخيل، أمام فسحات صغيرة تتكوّم فيها أهرامات من ثمرات جوز الهند، ممّا يعطي انطباعاً، ولا يهمّ إن كان صحيحاً أو خاطئاً، أنّ الحياة هناك متكاسلة حلوة حالمة وسعيدة. عندما لا توجد غابات نخيل، فهناك أجمات خضر، فاتحة اللون، تفوح منها رائحة حلوة معروفة، تذكّر بأفران المعجّنات التي تخبز الحلوى في الصباح الباكر: إنها نباتات القرنفل التي تعتبر زنجبار أكبر مصدّر له في العالم بأسره.

تعطي شواطئ زنجبار الانطباع بأنّها جنّة الله على الأرض، أكثر من

أيّ مكان آخر، عدا ربّما الشواطئ البرازيليّة الكبيرة. تظهر المياه في الخلجان الصغيرة ذات شفافيّة مضيئة، بل وخضراء كثيفة الألوان بشرائط وبقع ولمعان يعمي الأبصار، رغم هدوئه. أمّا الرمال فهي بيضاء مثل الثلج ترى عليها سرطانات البحر الكبيرة والورديّة اللون، أو تتجمّع فيها زواحف سود قذرة تجعل المرء يفكّر بحطام سفن قديمة. تنحني أشجار النخيل فوق الساحل، نحيلة، ملتوية، أوراقها متبعثرة وبرّاقة تحت أشعّة الشمس، فضلاً عن زوارق طويلة وضيّقة مرميّة على الشاطئ، محفورة منها ضمن جذوع الشجر. يصدر عن البحر صخب جميل، شبيه بحفيف الحرير، ذلك عندما ترتمي أمواجه على الحصى النظيفة البيض التي تختلط بعروق المرجان الحمراء، والأصداف الضخمة الصفر، التي تبدو مثل آذان من الرخام.

زنجبار مدينة عربيّة صغيرة، فيها جميع صفات حضارة أنيقة متناسقة وشريفة، رغم أنّها حزينة الآن بعدما تلاشت واضمحلّت. هناك إلى جانب الدروب الضيّقة والملتوية التي لا تدخل الشمس إليها إلّا بصعوبة، بيوت أخرى مرتفعة توجد في طوابقها العليا شرفات مغلقة بشبكات من خشب حفرت فيه ثقوب صغيرة كثيرة. صنعت النوافذ بأربعة مصاريع يمكن فتحها جزئيّاً لينظر المرء إلى الطريق من غير أن يشاهده أحد. أمّا في الطوابق السفلى فتظهر الأبواب التي اشتهرت عن حقّ بأخشابها الأفريقيّة الثقيلة المزيّنة برسوم هندسيّة، وصور ورود منحوتة بطريقة رائعة. ويوجد على الأبواب أقفال كبيرة ومقابض من برونز، تمّت معالجتها، وزخرفت بزخارف الأرابيسك. يشرف كامل الحيّ العربيّ، بدروبه الملتوية، وفسحاته غير المنتظمة، على الحدائق الممتدّة بين البحر وقصر السلطان. هذا القصر هو بناء على الطراز الهنديّ، رائع الجمال، يهب مشاعر خفّة ونضارة لأنّه محاط في جميع الطوابق بشرفات واسعة مفتوحة وبستائر خفّاقة. يكون الطقس في النهار شديد الحرارة، فتغرق المدينة العربيّة في السكون والصمت والنوم، لكن

ما إن يقترب الغروب حتّى يحتشد الناس في الحدائق العامّة، ليتعرّضوا لنسائم المحيط اللطيفة. يحتشد عرب وهنود وأفارقة في هذه الحدائق، الممتدّة على عرض البحر، حيث تبرق أضواء بعض السفن الراسية. يتسابق هناك الأطفال، وتتمشّى النساء في جماعات وهن يمسكن بأيدي بعضهنّ بعضاً، كما يحيط كثير من الناس بالعربات المضاءة بأنوار غاز الأستيلين التي تعمي الأبصار، ليشربوا كأساً من عصير قصب السكّر أو ليأكلوا بعض الفواكه المداريّة، ذات الطعم الحلو حتّى الغثيان.

ومع هذا فإنّ هذا الفردوس كان ذات يوم مثل جهنّم، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. نتخيّل الآن تجّار المدينة العربيّة وهم يزورون حيّهم الجميل والإنسانيّ هذا، نتخيّلهم بكلّ سرور وهم يمشون بهدوء بلحاهم البيض الطويلة، وثيابهم النظيفة، وبحديثهم اللطيف المعسول، الذي يتضمّن آيات قرآنيّة. لكنّ هؤلاء التجّار كانوا يعيشون، بل إنّهم أثروا من وراء أبشع تجارة وجدت في هذا العالم، ألا وهي النخاسة وتجارة العبيد. لقد بقيت زنجبار لعدّة قرون أكبر سوق للنخاسة في هذه الأنحاء من العالم. إنّ كآبة زنجبار اليوم المغرية، وتهاويها الذي يحتفظ بالحضارة، هما تعبير عن الكآبة والتهاوي الناتجين عن إلغاء تجارة العبيد عام 1897. وهكذا فإنّ الجمال الشاعريّ المتخمّر في الحيّ العربيّ لم يكن، إذا استخدمنا التعابير الماركسيّة، إلّا البنية الفوقيّة القابعة فوق البنية الاقتصاديّة التي نشأت بسبب تجارة لحم الإنسان. ويؤسفني أن أقول هنا إنّ هذا من الأمثلة القليلة التي لا يبدو فيها أنّ المال، الذي تمّ تحصيله بالقسوة وانعدام الحساسية الإنسانيّة، قد أنتج ما يقال عنه اليوم غربة، أي بعداً عن الواقع من النوع السوقيّ الفاسد.

كانت تجارة العبيد تجري بطرق قاسية من المفيد أن نذكرها. فالزنوج الذين كان يصطادهم التجّار العرب، ممّن تحدّثنا عن قراهم المسالمة في مركز أفريقيا، كانوا يساقون، عبر طرق الموت، على أقدامهم المقيّدة بالأصفاد كالحيوانات. لكن ما إن يصلوا إلى زنجبار، حتّى يتمّ تغسيلهم

وتنظيفهم ودهنهم بالزيوت وتعطيرهم بالعطور وتزيينهم بحسب العمر والجنس بأقمشة ومجوهرات من ذهب ومن فضّة، وتوضع على رؤوسهم العمائم. ثمّ كانوا يوزعون، على هذه الحال من الزينة والجمال، في طابور يقف التاجر على رأسه، يعبر طرق زنجبار ليصل إلى السوق. كان التاجر ينادي، وهو في الطريق، على بضاعته البشريّة ويمدح صفاتها، وكان الموكب الصغير يتوقّف، كلّما طلب أحد الشراة، تفحّص أحد العبيد طرفاً بعد طرف. وكان الفحص يشبه تماماً طريقة فحص الحصان أو البغل قبل شرائه. مثل لمس عضلات الأقدام والأذرع، وتفتيش الأعضاء الحميميّة من غير أيّ اعتبار لأيّ خجل، والنظر في الفم للتأكد من سلامة الأسنان، كما كانوا يطلبون من العبيد أن يجروا وأن يثبوا ويرقصوا، ويسألونهم فيما إذا كانوا يعانون من بعض الأمراض أو إذا كانوا يشخرون خلال النوم. وعندما يقرّر الشاري شراء سلعته، يجري في الحال تعرية العبد من كلّ زينته، ليعطى إلى سيّده الجديد، الذي ما يلبث أن يسوقه بالحبل مثل حيوان الركوب. أمّا بقيّة العبيد فيعرضون عند وصولهم إلى السوق على المنصّات، ليباعوا واحداً بعد الآخر.

كان العبد بالطبع مجرّد سلعة، من غير أيّ اعتبار للعمر، أو لصلات القرابة أو للجنس، أو لأيّ اعتبار آخر غير القيمة التجاريّة. يعامل العبد بعد بيعه مثل أيّ حيوان منزليّ، أي بطريقة جيّدة أو سيّئة، لكن من غير أيّ اعتبار إنسانيّ، وبحسب طبيعة السيّد الجديد.

إنّ العبوديّة هي أحد أسرار أفريقيا، يزداد غموضها كلّما اتّضحت معالمها التاريخيّة. كما أنّ السبب الاقتصادي لا يفسّر كالعادة أيّ شيء. فالعبوديّة قبل أن تكون شأناً اقتصاديّاً، هي شأن إنسانيّ أي نفسيّ بحت، لكنّها قد تكون ذات شأن دينيّ وثقافيّ أيضاً، وبأقصى حدّ. كما أنّ سرّ العبوديّة هو سرّ مزدوج: فهناك من جهة المستعبِدون، ومن جهة أخرى العبيد. نكتفي بالقول فيما يتعلّق بالمستعبِدين، إنّهم كانوا قساة، وغير حسّاسين وجشعين، وهم كانوا يعتقدون بنيّةٍ حسنة أنّ حضارتهم هي الحضارة الوحيدة

الممكنة، وبما أنّهم كانوا يرون أنّ حضارة الأفارقة مختلفة عن حضارتهم فقد استنتجوا أنّ الزنوج ليسوا بشراً بل حيوانات. بمعنى آخر كان المستعبدُ عنصريّاً من النوع الحديث جدّاً، عنصريّاً باسم الحضارة. وهكذا فإنّه كان ينكر على الأفارقة بشريّتهم وإنسانيّتهم، أي تآخيه معهم. ولم يكن يفصل هذا عن معاملة الأفريقيّ كسلعة إلّا الشيء القليل. لكن ماذا فعل النازيّون غير هذا خلال السنين الأخيرة مع سكّان أوروبّا الشرقيّة؟

أمّا من ناحية العبيد فعلينا أن نتساءل عن حجم المسؤوليّة التي يتحمّلها الأفارقة أنفسهم في مأساة العبوديّة هذه. نجد أنفسنا مجبرين على الإجابة بأنّ بعض السمات التاريخيّة الموجودة في الثقافة الأفريقيّة قد سهّلت العبوديّة. فمن المعروف في المقام الأوّل أنّ النخّاسين العرب والأوروبّيّين وجدوا تعاوناً فعّالاً لدى الملوك ورؤساء القبائل في أفريقيا السوداء. كان هؤلاء الرؤساء لا يعتبرون أتباعهم مواطنين - ولو بحريّات فرديّة محدودة- بل شيئاً مملوكاً لهم، لا أكثر ولا أقلّ. وهكذا فقد كانوا يرون أمراً طبيعيّاً مقايضة النخّاسين عليهم، باللؤلؤ الاصطناعيّ وبأسلاك النحاس والأقمشة والأسلحة الناريّة. وعلى ما يبدو فإنّ ملوك الزنوج كانوا لا يعطون للنخّاسين في بداية الأمر سوى أتباعهم الذين ارتكبوا بعض الجرائم. لكنّهم اعتادوا بعدها على تطبيق الأمر على السكّان الأبرياء بأكملهم. بتعبير آخر كان النخّاسون يفعلون ما يفعله صيّادو السفاري اليوم، أي إنّهم يدفعون ثمناً معيّناً ليشتروا به حقّ سرقة كثير من الفتيات والنسوة، مع أطفالهنّ، وكثير من الفتية، وكثير من الرجال البالغين. ومن المفهوم أنّهم عندما يجدون أنّ الملك نفسه، يقبل بتحويل رعاياه إلى سلعة، فإنهم لن يشعروا بأيّ وازع يمنعهم بعدها، من بيع تلك السلعة أو تخريبها أو حتّى تحطيمها.

يبقى علينا أن نقول شيئاً ما عن أكل لحوم البشر، الذي كان أمراً شائعاً في أفريقيا قبل حوالي قرنين من الزمان، والذي نعتقد أنّه مرتبط بالعبوديّة، وقتها، وعلى الدوام. كان أكل لحوم البشر شعيرة وسحراً

متّبعاً، لكنّه كان لا يبدو للنخّاسين إلّا مجرّد شأن اقتصاديّ، أي ناشئ عن نقص الغذاء المزمن في أفريقيا. ذلك أنّ النخّاسين كانوا يجهلون السحر كلّ الجهل، وهو أساس أكل لحم البشر، لكنّهم لم يتمكّنوا ألّا يلاحظوا أنّ الإنسان الذي يُستخدم طعاماً لإنسان آخر له سمات الأشياء كاملة، بل هو الشيء على الحقيقة، لأنّه يجري استهلاكه بصورة مباشرة وكاملة، من خلال التهامه ومضغه وهضمه وتبرّزه. وهكذا فإنّ السحر، الذي عليه في رأي الأفارقة أن يفيد، من خلال شعيرة أكل لحوم البشر، في تأكيد تفوّق الإنسان على الطبيعة، أي على الأشياء، يأتي هذا السحر بالذات، في مغالطة مضحكة، ليشجّع النخّاسين على معاملة الزنوج على أنّهم أشياء وجماد غير حيّ.

بعد أن قيلت هذه الأمور تبقى العبوديّة على ما هي عليه، أي سرّاً غامضاً غموض الشرّ المطلق، وهذا هو الفشل التامّ. إنّ هذا السرّ الغامض الدنيء والمؤذي، يعكس ظلّه الجليديّ على حرارة الجمال الناعس في زنجبار، ويجبرنا على رؤيته على أنّه مجرّد شاشة تضعها الطبيعة أمامنا لتخفي وراءها الواقع الفظيع. واليوم، أقيمت في الموقع الذي كان يجري فيه سوق النخاسة، كنيسة بروتستانتيّة قبيحة المظهر، شيّدت قرب حديقة خضراء عامّة. لكنّ من يتجوّل وسط أروقة الكنيسة، أو في الحديقة بين ظلال الأشجار الكبيرة المشتعلة باللون الأحمر، لا بُدَّ أن يرى أنّ معبداً مسيحيّاً قبيح المنظر، وحديقة استوائيّة جميلة، قد يكفيان لإلغاء ذكرى العبوديّة الماضية، لكن ليس لمنع إمكانيّة العبوديّة في المستقبل. لا يمكن تجاهل العبوديّة عن طريق وضع لصاقة تاريخيّة فوقها، بل لا بُدَّ من اعتبارها على أنّها دعوة مستمرّة وإغراء دائم يحيط بجميع الثقافات والحضارات، حتّى الساميَة منها والمتقدّمة، ذلك كما رأينا للأسف خلال وقت حديث في النازيّة الألمانيّة، والستالينيّة الروسيّة. لذلك يجب تفسير هذا الإغراء وتوضيحه بالكامل على أنه إغراء، وعدم قمعه من غير الالتفات إلى تتبّع أسبابه العميقة.

هاوية القرون

نيروبي، حزيران 1963

تنتشر في المكان بصورة غير منتظمة أشجار ذات لون أخضر ضعيف باهت. كما أنّ البيوت المنخفضة الطويلة وذات الطابق الواحد لا تفلح في حجب كامل ذلك المربّع من الأرض المُداس والمليء بالغبار. إذ ترتفع خلف البيوت التلال المنخفضة أيضاً والطويلة، وذات اللون الأخضر الشاحب المختلط ببعض الأكاسيا العارية وبظلالها.

أكثر ما يشغل البيوت محلّات عليها لافتات نيون على الطراز الإنكليزي، مكتوبة بحروف بيض أو صفر على خلفيّة غامقة توضّح وظيفة المكان: مركز تجاري صغير للقبائل المجاورة، وبخاصّة لقبيلة ماساي وقبيلة سامبورو وهم من الرعاة الذين لا يزرعون الأرض. عندما أجلت نظري حولي وجدت أنّ المكان مليء بكلّ أنواع المحلّات بدون استثناء: محلّات حدادة، أقمشة، أغذية، مصنوعات يدويّة، عدّة وهكذا. تتميّز هذه المحلّات بمظهرها الهنديّ، أي بما يبدو أنّه متخمّر، بل قذر ورثّ، كذلك كما هو موجود في أسواق بومباي أو حيدر أباد. المحلّات مظلمة، البضائع مكدّسة قرب أبوابها، ووجه هنديّ قاتم بثيابه البيض خلف طاولته.

رأيت أنّي في حاجة إلى لحم بقري معلّب، وهو ضروريّ خلال الرحلة بالسيّارة في هذه المناطق الشاسعة المقفرة، لذلك فقد دخلت

إلى محلّ أكبر من غيره، ويبدو أنّه يجمع كلّ ما في المحلّات الأخرى، أي إنّه نوع من مخازن الأغذية الأميركيّة «دراغ ستور». كان مخزناً جميلاً حقّاً، خاصّة إذا ما عرفنا أنّنا في مارالال وهو آخر مكان تصل إليها الطريق المعبّدة، قبل بلوغ الطرق التي تؤدّي إلى بحيرة رودوليو. كانت ترتفع على طرفي الباب أهرامات من العلب المحفوظة، ببطاقاتها الملوّنة التي رسم عليها سمك السلمون وهو يقفز من مياه نهر كنديّ، أو الثور الواقف وسط الحقول الأستراليّة. بينما تكدّست علب أخرى على الرفوف في الداخل، وتتدلّى من السقف علّاقات قمصان وسراويل وملابس نسائيّة. في الزوايا تتكوّم العصيّ وسنانير الصيد والمظلّات والمكانس. استندت إلى الطاولة ورفعت بصري فرأيت تمساحاً محنّطاً بلون بنيّ وأصفر برّاق، كما لو أنّه قدّ من زجاج، ويظهر كأنّه يسير على الجدار بفمه المشرّع وأنيابه البارزة. طلبت علبة لحم بقريّ معلّب من البائع الهنديّ الشابّ: كانت عيناه واسعتان وسوداوان ونظراته صفراويّة، ليس له جبهة ولا ذقن، بينما يسقط أنفه فوق فمه المتراخي، شعره طويل وأملس ومتناثر على كتفيه. شعرت بأنّ هناك شخصاً ما إلى جانبي، لم يلمسني، لكنّه موجود. التفتّ عندها فرأيت فتاة صبيّة، ربّما كانت في العشرين من العمر. رأسها صغير ومستدير، سرّحت شعرها وأسدلت العديد من الجدائل الطويلة المتفرّقة والمليئة بالعقد المتجاورة، ممّا يذكّر بمنحوتات بنين التي يظهر عليها صفاء العملّ الفنيّ، ممزوجاً بلون الصدأ وخشونة الحديد. تخطّط الجدائلُ كلّ دورة الرأس، لكنّها تختفي في الخلف تحت قرص من روث البقر المجفّف، لا يوجد في وجهها بروز الفكّ المؤثّر المعروف عن زنوج غينيا، كما أنّ عينيها تبرزان على حافّة الجلد لكنّهما غير جاحظتين، الأنف مسحوق ومتمدّد لكنّه غير أفطس، الشفتان كبيرتان ومكتنزتان لكن بغير برطمة. عنقها طويل جدّاً وإن كان غير ظاهر، ربّما بسبب الدوائر المعدنيّة التي تحيط به، أي الحلقات الكثيرة المصنوعة من معدن غامق اللون، ربّما من نحاس، والتي تبدأ من الحلق وتضيق على الرقبة، قبل أن تتّسع من جديد، لتشكّل

نوعاً من المشط المعدنيّ يغطّي كتفيها وأعلى صدرها. كما أثارت أذناها انتباهي، من حيث أنّ ثقبي الشحمتين قد تمّ توسيعهما فظهر كأنّهما مجرّد إطارين من اللحم يحيطان بسدّادتين ضخمتين من الفلّين وضعتا داخلهما، شبيهتين بتلك السدّادات التي توضع عادة لإغلاق الأدنان الكبيرة. يتدلّى من السدّادتين طوقان من خرز أزرق وأحمر. وهناك طوق آخر موضوع على مشط الدوائر النحاسيّة. أنظر إلى جسمها، فأرى أنّها ترتدي قميصاً أحمر غامقاً ملتصقاً بجسمها القوي، بينما ساقاها وقدماها عارية. تضع على معصميها وكاحليها خواتم نحاسيّة كثيرة أخرى تصل حتّى الركبتين والكوعين.

كان هناك إلى جانبها شابّ عارٍ بصورة كاملة عدا عن خرقة صغيرة مربوطة إلى جنبيه. كان نصف وجهه ونصف صدره مدهونين باللون الأحمر، وكذلك نصف الظهر حتّى الكليتين. بينما هناك على رأسه جدائل مثل جدائل المرأة، لكنّها تسقط على الجبهة تحت قرص من روث البقر المجفّف. لكنّه لا يستند إلى الطاولة، مثلما تفعل المرأة التي تتظاهر بأنّها تريد شراء بعض الأغراض، لكنّه من الواضح أنّها لم تدخل إلّا لتستطلع وتتطفّل، بل بقي واقفاً في وسط الدكّان يتكاسل، وهو مستند إلى رمحه الطويل ذي الرأس الحديديّ. يمسك بيده عصا تنتهي بكتلة كبيرة ضخمة.

شعرت وأنا أنظر إليهما بالشعور الذي توحي به رؤية بزّة عسكريّة، أو ملابس الاحتفالات، أو أيّة ثياب أخرى ذات مغزى رمزيّ واضح. أي بفضول علميّ تقريباً، كما لو أنّي أمام رسالة غامضة يجب تفسيرها. لكنّ البزّة العسكريّة أو ملابس الاحتفالات الأوروبّيّة تنسب بسهولة إلى ثقافة معروفة ومألوفة. أمّا تلك الدوائر النحّاسيّة، وذلك الصباغ الأحمر، وتلك الجدائل، وذلك الروث البقريّ المجفّف، هي منتجات ثقافة غريبة تماماً، وربّما كانت تعبيراً عن علاقة مع الطبيعة ما زالت مباشرة وغير وسيطة. أي كأن نقول إنّ ذلك الرجل وتلك المرأة هما مقنّعان بالنسبة

لي، بينما هما في الوقع ليسا إلّا شخصين عويصين يصعب تفسيرهما، هذا يعني بتعبير آخر أنّ هناك بيني وبينهما هوّة قوامها عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف سنة، فكيف يمكن ردم هذه الهوّة؟

مدّ الهندي يده إليّ بعلبة اللحم المحفوظ، فدفعت ثمنها، وخرجت من المخزن، وذهبت لأجلس في السيّارة بانتظار رفاقي الذين ابتعدوا عنها. هناك تابعت تأمّلاتي وأنا أنظر إلى الفسحة التي بدأت تحتشد بشخصيّات أخرى شبيهة بشخصيّتي المخزن. هل من الممكن إذن إقامة علاقات مع امرأة ترتدي دوائر نحاسيّة، ومع رجل مصبوغ بالأحمر، وذلك بعد يومين من الوصول بطائرة نفّاثة من مدينة كنيويورك أو باريس؟ كذلك، أليس أمراً ذا مغزى أنّ إمكانيّة إقامة هذه العلاقات تتحقّق الآن بالذات، أي في وقت أصبحت العلاقات البشريّة، فيما يسمّى بالعالم الغربيّ، مجرّد تبادل لعبارات مقولبة وشعارات، وإلى تأليل الاعتبارات، وإلى التنفيس عن بعض الغرائز؟ أي أليس أمراً ذا مغزى أنّ ما قبل التاريخ السحريّ والطبيعيّ، يزدهر بالنسبة للأفارقة والبدائيّين في جميع أنحاء العالم، في الوقت الذي نرى فيه أنّ التاريخ لدى الأوروبّيّين أصبح في أزمة؟

مع ذلك، من المفهوم أنّ العلاقة مع الأفارقة تبقى صعبة، حتّى لو أنّ التاريخ لا يحجزنا عنهم كما كان يحجزنا في السابق. وهنا أتذكّر مبشّراً إيطاليّاً كان في كينيا، اعترف لي أنّه لم يفلح إلّا في هداية شخص واحد فقط، وفي مكان ناء على الحدود مع السودان، رغم أنّه أمضى عشر سنوات وهو يعظ في تلك المنطقة. ما زلت أذكر الغرفة البائسة الفقيرة التي كانت تعمل فيها بعثته التبشيريّة، بأثاثها المصنوع من الخشب الأبيض، وصورة البابا إلى جانب صورة أسقف زنجيّ، وغطاء الطاولة المطرّز، وعليه إناء الزهور، وكذلك رقّاص ساعة نوريمبرغ مع العصفور المغرّد، والأريكة والمقاعد القاسية والمتواضعة، تذكّرت هذا كلّه بينما كنت أقول لنفسي إنّ ذلك الشخص الوحيد الذي تنصّر لم يكن يشعر بأيّ شيء ضدّ الأفارقة ولا ضدّ الديانة المسيحيّة. لكنّه يشير ربّما إلى

الصعوبات الكبيرة التي يشعر بها الإنسان الإفريقيّ عندما يعرض عليه الإنسان الأبيض القفز فوق هوّة من آلاف السنين، فيجد نفسه بعدها، ويا للغرابة، في عالم لا يختلف في الواقع عن عالمه، عالم مليء بالمخاوف غير المنطقيّة وبالأساطير الطبيعيّة.

لكن تبقى في ذاكرتي نظرة الفتاة التي كانت ترتدي الدوائر النحاسيّة، نظرة متهرّبة ومفعمة بإنسانيّة خجولة، كأنّ فيها دعوة خجولة لإخوّة عتيقة نائية.

تأكّدت لي هذه التأمّلات بالصدفة بعد يومين. عندما كانت سيّارتنا تسير في منطقة أقرب إلى الحلم منها إلى الواقع، في سهل شاسع ذي لون أخضر باهت، مبرقع، منقّط في آخره بقطعان غريبة من الحيوانات البرّيّة، فضلاً عن شجيرات آكاسيا متفرّقة على شكل مظلّات منتشرة على مدّ النظر، وعن مخاريط حمراء يرتع فيها النمل الأبيض. على حين غرّة رأيت غير بعيد عن الطريق شيئاً ما مستديراً يلمع تحت أشعّة الشمس، فطلبت التوقّف. رأيت عندها ما توقّعته، كانت مجموعة من أكواخ قبيلة سامبورو.

توجّهنا نحوها عبر الأعشاب البيض الطويلة التي كانت تنثني عند مرورنا. كان هناك صمت عميق يلفّ المكان لا يسمع فيه إلّا رنين آلة التصوير السينمائيّة التي كان أحد أفراد فريقنا يصوّر بها المكان.

كان هناك سياج، أو بالأحرى أكوام من الأشواك تحيط بالفسحة. اجتزنا السياج عبر فتحة تقوم على الأرجح مقام الباب، فوجدنا أنفسنا في ساحة مطروقة ومليئة بآثار أقدام الحيوانات. كان هناك حولنا ثلاثة أكواخ ظهرت لنا عند النظرة الأولى كأنّها شرانق ضخمة طارت منها اليرقات بعد أن تحوّلت إلى فراشات. أو كأنّها ثلاث حشرات من الدود الأبيض. أمّا لونها الأبيض فهو لون روث البقر المجفّف الذي يغطّي تلك الأكواخ. يشكّل الروث سطحاً غريباً، كأنّه مدرّعة ذات صفائح كبيرة تتخلّلها شقوق متلوية هنا وهناك.

أدهشني انخفاض فتحة المدخل. انحنيت واجتزت الفتحة بشيء من اشمئزاز الشخص الحذِر، لأنّ الأكواخ بدت مهجورة، ويمكن أن تكون قد أصبحت ملجأ لبعض الزواحف أو بعض الحيوانات البرّيّة. انطويت في اثنين، وسرت في مكان يشبه ممرّاً بطول بضعة أمتار، قبل أن أصل إلى المسكن الفعليّ. أي إنّ الكوخ مبنيّ على شكل قوقعة الحلزون، أو بعض الأعشاش بشكل الحذاء التي توضع في أفريقيا فوق الشجر الاستوائيّ. فهناك مدخل منخفض جدّاً، وممرّ ضيّق جدّاً، يفضي إلى الغرفة، وذلك بشكل يمكن معه من الداخل وبسهولة بالغة طرد أيّ وحش يحاول أن يدخل.

بدأت شيئاً فشيئاً أميّز في الظلّ، أدلّةً على مظاهر بشريّة لا ريب فيها، كان يتمتّع بها بناة ذلك الجحر. فهناك الأحجار المحروقة والمدخّنة، الموضوعة حول كومة من الرماد، ومن الجمر الأسود المطفأ، أي الموقد، وهناك شقّ يتسرّب منه شيء من الضوء، أي النافذة، ثمّ مجموعة من الأقصاب موضوعة خلف الفاصل، تشكّل السرير.

لا يمكن للمرء أن ينتصب على قدميه داخل الكوخ، وعلى من يعيش فيه أن يستسلم إمّا لجلوس القرفصاء أمام الموقد، أو مستلقياً على السرير. ومع هذا فإنّ ما أدهشني حقّاً هو انخفاض السقف، فلماذا هو بهذا الانخفاض؟ ربّما كان هذا تقليداً غير واعٍ، للجحر الذي تتكوّم فيه الحيوانات كي تنام أو لتلتهم طريدتها. أي إنّ الحيوانات علّمت السامبورو كيف يبنون بيوتهم، وقد قاموا هم، باعتبارهم تلاميذ غير مستقلّين جدّاً، بإدخال القليل من التجديدات الضروريّة: مثل الحجارة لإشعال النار، والتي لا تحتاج إليها الحيوانات، لأنّهم لا يطبخون طعامهم، ثمّ النافذة التي لا حاجة للحيوانات بها، لأنّها ترى في الظلام، والسرير من قصب الذي تستغني عنه الحيوانات، لأنّها تنام على الأرض وداخل جلودها. تجديدات قليلة، لكنّها كافية لتشهد على بشريّة سكّان هذه الأكواخ، ولتثير فينا مشاعر الهويّة المتشابهة.

وهذا هو الواقع بالفعل. فعند زيارة عرين أسد أو جحر ثعلب مثلاً لا يخطر في بالنا أن نضع أنفسنا مكان الأسد أو الثعلب، لكنّني عندما زرت كهف السامبورو، الشبيه بالجحر عدا بعض التجديدات الصغيرة التي ذكرتها عنه، فإنّي تصوّرت نفسي مباشرة وأنا جالس القرفصاء، وعارٍ من ملابسي، ومدهون باللون الأحمر، ومرتدٍ دوائر من نحاس بالقرب من زوجتي في هذا الملجأ، وهي عارية إلّا من دوائر النحاس أيضاً. هأنذا هنا، لقد عدت إلى الوراء عشرين ألف سنة، وهذا هو بيتي. الآن بعد أن التهمت قطعة لحم نيّئ أو عصيدة الدخن أذهب لأضطجع على سرير من القصب، أصغي قليلاً إلى سكون الليل الأفريقيّ ثمّ أنام. سأنهض غداً في الصباح وسأخرج من الكهف، وأنا أدفع بأغنامي خارج السور، وإلى سهل يهدّده خطر الأسود والفهود. أحمل في يدي هراوتي وفي اليد الأخرى رمحي، وسيكون نصف جسمي مدهوناً بالأحمر. سيكون يوماً مثل كلّ الأيّام، منذ عشرين ألف سنة حتّى يومنا هذا.

المعلّم كيكويو

نيروبي، حزيران 1963

نسير من مقطع في الطريق الريفيّ إلى مقطع آخر، كلّها طرق من التراب الأحمر مثل اللحم المذبوح حديثاً، تظلّلها أشجار ذات خضرة دهنيّة قاتمة، وتحت سماء لا توجد فيها غيوم، يذكّر لونها الأزرق الذي يبهر العيون، بالمينا الذي كانت تدهن بها مقالي المطابخ في الأيّام الخالية. في النهاية رأينا بضعة فتيان في حوالي الخامسة عشرة من عمرهم، ربّما كانوا طلّاباً، كانوا يرتدون قمصاناً بيضاً بدون أكمام وسراويل بيضاً قصيرة، وربطات عنق برتقاليّة اللون. أوقفْنا اثنين منهم وسألناهما عن مكان المدرسة. ارتسمت ابتسامة بيضاء عريضة على وجوههم اليقظة والحريصة على إرضائنا. أشاروا لنا بالاتّجاه عن طريق حركات مكرّرة وتفسيرات كثيرة بإنكليزيّة غنائيّة وطفوليّة، لكن سليمة.

ها هي المدرسة بالفعل: رأينا الأرض الدمويّة المعتادة، مزروعة بحشائش المرج على الطريقة الإنكليزيّة، لكنّ نتائج الزرع لم تكن باهرة. يوجد حول المرج حقل، ومبانٍ عديدة طويلة ومنخفضة، مبنيّة بآجرّ دون جصّ، على طابق واحد. رأينا صالة الطعام وقاعات الدراسة والكنيسة والإدارة وصالة النوم. المدرسة مبنيّة إذن على الطريقة الأنجلو سكسونيّة التقليديّة، بل هناك في الحقل حتّى تلك العصيّ الملوّنة، التي تشير إلى بابيْ لعبة الفوتبول، لكن كلّ الأشياء هنا هي أصغر من العادة، وأفقر

وأضيق وأشدّ تواضعاً من مثيلاتها في إنجلترا أو الولايات المتّحدة. من ناحية أخرى لا يمكن أن ننكر أنّ للمدرسة مظهرَ شيء جدّيّ ومتماسك، حتّى عندما تكون فقيرة. أي إنّنا نشعر هنا بأنّ هذه المدرسة بنيت ضمن إمكانيّات ماليّة ضيّقة بالفعل، لكنّها لم تبنَ لمجرّد ذرّ الرماد في العيون، بل لتربية وتعليم فتية الكيكويو.

بعد قليل من الوقت جاء الأستاذ الأوّل أي المدير للقائنا، وكان يتبعه معلّمان آخران. من الصعب علينا أن نحكم من الهيئة الخارجيّة ونتخيّل رجلاً أكثر بريطانيّة من هذا الرجل، بشعره الأحمر وقَصّة الفرشاة وشاربه المقصوص على شكل فرشاة الأسنان، ووجهه الأبيض المنمّش، ووسط ذلك كلّه عينان صغيرتان زرقاوان. علت وجهه تعابير فيها نوع من الخجل والمراوغة التي يعدّلها غليون التسلّط الذي يضغط عليه بين أسنانه. يرتدي قميصاً منفوخاً بنصف كمّ وسروالاً قصيراً بلون خاكيّ وجوارب من الصوف تصل حتّى الركبة وحذاء ملمّعاً ذا نعل بثلاث طبقات. استقبلنا بودّ ينمّ عن شيء من الاستقلاليّة والريبة أيضاً. ثمّ قدّم لنا المعلّميْن الآخرين، أحدهما طويل أشقر هادئ، والثاني أسمر، قصير ومتوتّر. ثمّ تقدّمنا لنقوم بزيارة المدرسة.

في الحال تأكّد انطباعنا المبدئيّ عن فقر المدرسة وجدّيتها. فها هي مثلاً غرف النوم، فيها صفّان من الأسرّة العسكريّة، وعليها أغطية من الصوف بلون داكن، فضلاً عن صندوق أو حقيبة الطالب مرميّة على الأرض، إلى جانب السرير. الجدران من الآجرّ بدون جبس، والأرضيّة من الإسمنت. ثمّ ها هي الكنيسة على هيئة كوخ كبير فيه مقاعد من الخشب الخشن، وأرغن جديد جدّاً كان يتدرّب عليه طالبان في تلك اللحظة. السقف مخروطيّ مرتفع على الطريقة البولينيزية وله دعائم مكسوّة بالآجرّ. ها هي قاعة التدريس بثلاثة صفوف من المقاعد المسودّة، المنصّة من الخشب الفاتح اللون، الكرسيّ، السبّورة، الخريطة. ها هو المطبخ في إحدى الصالات الواسعة، فيه أفران كثيرة يغلي فوقها

حساء البطاطا الذي يعدّونه للعشاء. وها هي في النهاية المكتبة المؤلّفة من أربعة رفوف، تتكاسل فوقها كتب متباينة في الشكل والمضمون.

بعد أن انتهت الزيارة دعانا المدير لتناول الشاي في منزله الخاصّ. جلسنا في صالون صغير ومريح. رأينا من خلال النوافذ المفتوحة على مصاريعها، مشهد التلال الخضر والحمر التي تحيط بالمدرسة. استرخيت في مقعدي المزهّر، ووضعت فنجان الشاي على ركبتي، ووضعت على الركبة الأخرى طَبقاً فيه قطعة حلوى التفّاح، ثمّ بدأت مباشرة بالحديث الرئيس. قلت إنّ هذه المدرسة تجعلني أفكّر بالبعثات التبشيريّة الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة التي تعمل في أفريقيا، وذلك بسبب فقرها الأبيّ العزيز والباهت، في الوقت نفسه. ففي تلك البعثات، كما هو الأمر في هذه المدرسة توجد أهداف عظيمة ومطامح كبيرة. هنا تريدون أن تدخلوا الأفارقة في ثقافة الغرب، وهناك يريدون تحويلهم إلى الديانة المسيحيّة. وفي الوقت نفسه، هنا كما هناك، فإنّ الإمكانيّات محدودة، وهناك فقر، ومظاهر بؤس مدقع، متواضع، ومزرٍ. هذا في الوقت الذي تشعل فيه الكنيسة في أوروبّا خيال المؤمنين منذ عصور طويلة ببهاء فنونها وروعة ملابس كهنتها، كما أنّ للجامعات أبنية ضخمة رائعة باهرة صارمة. فأين يمكن العثور على مظاهر الغنى وبهاء الفنون وعظمة العمارة في الأبنية التي بناها الأوروبّيّون في أفريقيا؟ أنت تعلم أنّ هذا غير موجود في البعثات التبشيريّة وفي المدارس، فكلّها رماديّة الشكل، بائسة المظهر، وإن كنّا نجد مثل هذا في أبنية البنوك والمراكز التجاريّة، التي تختال برخامها البرّاق وبوّاباتها الضخمة، وكذلك في فنادق الرأسماليّة الجديدة، وهي من أفخم فنادق العالم، كما في المخازن المترعة بالمواد والمصنوعات، وفي المقاهي والمطاعم والنوادي الليليّة المثيرة المزيّنة الأصيلة. لا يثير الدهشة إذن أن يرى الأفارقة أنّ الدين والثقافة، هما في المكان الثاني بالنسبة للأوروبّيين، وذلك بعد التجارة والمال وإشباع الغرائز والفخامة. فهل ندهش بعد هذا، إذا لم يتحوّلوا عن دينهم، ولم يتعلّموا بالمقدار

المرغوب والمطلوب؟ خاصّة وأنّهم يفكّرون أنّ الحضارة الغربيّة هي أساساً حضارة متعة وتجارة، وتراهم، اعتماداً على هذه الفكرة، ينتفضون ضدّ الأوروبّيّين، كما حدث في أنحاء أفريقيا خلال الفترة الأخيرة؟

كان المدير يستمع إليّ وهو يدخّن غليونه الذي يحمله بين أصبعيه، وكأنّه يتحضّر لنزعه من بين أسنانه ليجيبني. لكن عندما انقطعتُ عن الحديث، استغرق وقتاً قبل أن يتكلّم، لأنّه سعل وصفّى حنجرته، ثمّ سعل من جديد ولفظ كلماته بصعوبة وبصورة متقطّعة، وقال إنّه تمّ في المدّة الأخيرة بناء جامعات كبيرة في أفريقيا، وإنّه في كلّ الأحوال مسرور جدّاً من الطلبة الأفارقة.

بصورة عامّة، أضاف وهو يحوّل الحديث عن سؤالي، إنّ طلبة كيكويو هم جادّون مجتهدون أكثر من الطلبة البريطانيّين الذين علّمهم لسنين طويلة. والسبب هو أنّ فتية كيكويو يدركون أنّ تلقّي العلم ما زال يشكّل في كينيا ميزة وحظّاً، ولهذا فهم يسعون جهدهم لكي يظهروا أنّهم جديرون بهذه الميزة. أمّا الفتية البريطانيّون فيعتبرون التعليم حقّاً من حقوقهم، بدهيّاً، ومسلّماً به. ولهذا فهم لا يدرسون. ثمّ أنهى حديثه قائلاً بعد ضربة سعال جديدة: إنّه يمكن لنا أن نتساءل حول إمكانيّة استيلاء الفتية كيكويو بالفعل على الثقافة الإنكليزيّة. والذاكرة فعّالة الآن فيهم أكثر من الفهم. أي إنّهم يرسلون إلى أذهانهم كلّ شيء لا يفهمونه. لكنّ الإرسال إلى الذهن يبقى أفضل من عدم الدراسة بتاتاً، كما يحدث أكثر الأوقات في المدارس الإنكليزيّة.

والمستقبل؟ إلى ماذا سيؤول أمر هذه المدارس بعد أن تستقلّ كينيا؟ اعترف المدير أنّ المستقبل هو أمر غير مؤكّد إلى حدّ ما، على الأقلّ فيما يتعلّق بوضعه الشخصيّ. يمكن له أن يبقى في المدرسة، لكن من غير أن يكون مديراً، لأنّ مديراً من كيكويو سيحلّ محلّه ليصبح رئيساً له. ولهذا فهو يظنّ أنّ من الأفضل له أن يعود إلى إنكلترا، ليستأنف، بحظّ قليل، تدريس الفتية البريطانيّين غير الراغبين بالدراسة.

والحضارة الأوروبّـيّـة؟ ماذا سيحلّ بالحضارة الأوروبّيّة بعد الاستقلال؟ بدا أنّ المدير لم يفهم أو أنّه فهم فقط جانباً من السؤال. قال ببطء إنّ تدريس اللغة والأدب الإنكليزيّ سيستمرّ على الأقلّ في هذه اللحظة، وإنّ الكيكويو وغيرهم من شعوب أفريقيا بحاجة إلى لغة أوروبّيّة تمكّنهم من فهم بعض الأشياء ومن التفاهم مع بقيّة الشعوب الأفريقيّة. وقال إنّ المدارس ستكون بخير لأنّ الكيكويو هم تلاميذ رائعون وأساتذة جيّدون. واصل هذا الحديث لفترة من الوقت، وهو يمدح الكيكويو، ويعبّر عن ثقته بالمستقبل. قرّرت في النهاية ترك هذا الموضوع عندما تأكّدت من عزمه على المراوغة والتحفّظ، المُقنّعين بهذا التفاؤل التجريبيّ.

لكنّي حصلت بعد أيّام على جواب عن سؤالي، ذلك عندما كنت أقوم بجولة من قرية إلى أخرى في شمال كينيا. كنّا موجودين في عقار أوروبّيّ ضخم، فيه فيلّا داخل المزرعة، وأمكنة لتربية الخيول، وزراعات بواكير، وحدائق ومسبح إلخ. طلبت بعد كلّ هذه الفخامة، زيارة مدرسة قرية الكيكويو الموجودة ضمن العقار، وقد أجيب طلبي في الحال. كانت المدرسة على بعد خطوات من الفيلّا، فذهبنا في نزهة قصيرة سيراً على الأقدام.

أذكر مكان المدرسة، كواحد من أكثر الأمكنة أفريقيّةً، بين تلك التي أتيحت لي فرصة زيارتها خلال رحلتي، فيه بحيرة من المياه الثابتة، بيضاء مثل الفضّة، فيه جداول ومستنقعات تتخلّل الجبال الزرق المغطّاة بالأدخنة ذات الشكل المخروطيّ المقطوع الشائع جدّاً في أفريقيا، وفيه حقل محاط بأشجار شبيهة بأشجار الجنّة، المصوّرة في بعض المنحوتات الرومانيّة، أي جذع ضخم أملس وخصلة من أوراق قليلة وكبيرة، وفيه بعض الأكواخ المغلقة ذات السقوف المائلة المصنوعة من القشّ المسودّ. كان شفق المغيب قد بدأ يظهر، في سماء تكاد تكون خضراء، وفيها بعض النجوم البيض البرّاقة، وسط صمت مخيف قادم

من ما قبل التاريخ المليء بالوحوش. والحقيقة أنّي لم أكن لأدهش إذا رأيت هذه الوحوش وهي تتزاحم، بين تلّة وأخرى وراء البحيرة، بأجسامها الضخمة وأعناقها الطويلة ورؤوسها الصغيرة مثل رؤوس الديناصورات.

لكنّه، وعلى حين غرّة، ظهر الأستاذ من أحد تلك الأكواخ. إنّه أحد شبّان الكيكويو، بدين الجسم، ريفيّ المظهر، ذو وجه خشن مفعم بالتعابير الكثيفة. هناك شيء ما من الوهم والسذاجة في نظرة عينيه، وفي ضحكاته المتكرّرة، وفي طريقة وقوفه الحربيّة، وهو متباعد الساقين وسط الحقل، بين تلك الأكواخ التي يعيش فيها ويعلّم فيها. استقبلنا بحفاوة وودّ، وما إن عرف أنّنا كتّاب وصحافيّون حتّى عبّر عن حماسته. برقت عيناه وأجاب بالكاد على أسئلتنا، ثمّ بدأ يعدّد أسماء الكتب التي قرأها، أو التي سمع عنها. «أرسطو، أفلاطون، هوميروس... شكسبير، سرفانتس، غوته... دانتِه، تولستوي، سبينوزا، راسين...»، وكان يضيف بعض الأحيان أحكامه على بعض الأسماء، ولا أدري إذا كانت أحكاماً من آرائه، أم أنّه قرأها في بعض الكتب المدرسيّة، لكنّه اكتفى في النهاية بتعدادها متداخلة، كأنّها أسماء طرق أو أمكنة. كان نوعاً من المنظر الثقافيّ ذلك الذي بدأ يصفه لنا، المنظر المعتاد للثقافة الأوروبّيّة، لكنّه كان يراه رائعاً ومليئاً بالأسرار، تماماً كما أرى أنا المنظر الأفريقيّ الذي أشاهده الآن أمام عينيّ. عندما رأيته وحيداً بهذه الطريقة، ومتحمّساً وسط الطبيعة الأفريقيّة البهيّة والقاتمة المؤسية، لم أتمكّن إلّا أن أفكّر أنّ المدير لم يخطئ عندما أكّد أنّ الثقافة الأوروبّيّة هي بين أيدٍ أمينة. لكن ليس كلّيّة بالمعنى العمليّ والمهنيّ الذي قدّم به حديثه، بل بالقبول الأسطوريّ وغير المنطقيّ لها، أي السحريّ نوعاً ما، ذلك كما جرى، على سبيل المثال، مع فرجيليو والثقافة اللاتينيّة خلال العهود المتوسّطة.

الثقافة التي تمنع فهم الآخرين

موباسّا، تمّوز 1963

ما زلت أذكر صالة الطعام في فندق كبير من فنادق موباسّا: المناشف نظيفة ناصعة، أدوات الطعام والزجاجيّات برّاقة، تكييف الهواء، الأوركسترا من فيّينا، النُّدل بقمصانهم البيض ذات الحوافّ الحريريّة، مائدة بوفيه مليئة بالطيّبات الغربيّة، طنين رصين صادر عن المحادثات وقرقعة الصحون. هناك إلى مائدة ليست بعيدة عن مائدتنا مجموعة من عشرة رجال، ليس بينهم امرأة واحدة. كانوا كلّهم رجالاً كباراً، بين الأربعين والخمسين من العمر، كلّهم شقر بدينو الأجسام، يرتدون جميعاً سراويل قصيرة قد يقال إنّها سراويل داخليّة، فضلاً عن قمصان بيض بلا أكمام. نظرت إليهم طويلاً بمشاعر خليطة بين الانجذاب والعداء، والتي يشعر بها من يرى أمراً لا يفهمه بالكامل ولا يميل إليه كلّ الميل. ويجب أن أعترف داخل نفسي أنّ الموضوع يتعلّق بأمثلة صالحة عن ذلك النوع الإنسانيّ الذي سأسمّيه «الإنسان الفيكتوريّ»[1] والذي يصعب الآن أن أجد نموذجاً عنه حتّى في إنكلترا. إذ يندر أن نشاهد بين الإنكليز اليوم تلك السيقان الضخمة الهرقليّة نوعاً ما، وتلك الأفخاذ العظيمة، وتلك البطون المتوتّرة مثل الطبول، والصدور ذات العضلات، والرقاب الضخمة، والذقون الناتئة،

1- homo victorianus. (م)

والشوارب المقصوصة على هيئة الفرشاة. فهم أصبحوا وخاصة لدى الطبقة الحاكمة نحيلي ومستطيلي ومرني الأجسام، أنيقين ومهووسين بالفكر والثقافة. ذلك أنّ ثورة سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة حدثت بين العهد الفيكتوريّ والزمن الحاضر، وهي أيضاً ثورة فيزيولوجيّة إذا صحّ التعبير. لكنّ جوّ الإمبرياليّة الفيكتوريّة ما زال ماثلاً بشكل أو بآخر، هنا في كينيا، لذلك فمن السهل أن يظهر في الحال نوع الأجسام المناسب لذلك الجوّ.

لست قادراً على كثير من الانتباه وحساسيّة السمع، لكنّ الصديق، الذي كنت جالساً إلى جانبه، كان قادراً على سماع حديث يجري في الطرف الآخر من القاعة. وهذا ما حدث في ذلك اليوم. فقد رأيته يقطع الطعام فجأة ليحوّل أجنحة أذنيه، إن صحّ القول، نحو المائدة المستديرة التي جلس إليها الرجال فقط. في النهاية سألته: «من هم؟».

«وحوش».

«يعني؟».

«ملّاك أراضٍ، تجّار، موظّفو شركات».

«وعن ماذا يتكلّمون؟».

«يتكلّمون عن الأفارقة بالطبع».

«وماذا يقولون؟».

«يقولون ولا يقولون».

«لكن ماذا يقولون؟».

«يقولون أموراً سيّئة».

«يعني؟».

سكت لبرهة وهو يسمع، ثمّ شرح وهو يتابع الإصغاء إليهم: «هل يمكن أن أنقل محادثة جرت بالإنكليزيّة نقلاً كاملاً؟ قد أنقل بعض التلميحات والإشارات ومثل ذلك، لأنّه ليس الكلمات وحدها هي التي يجب أن تنقل، بل لا بُدَّ من تفسير معاني السعال والهنهنات والتردّدات

وبحّات الصوت وما إلى ذلك. لهذا فإنّي لست قادراً على نقل كلّ ما قالوه، لكن يمكن لي تلخيصه».

«فلنسمع الملخّص إذن».

أصغى لفترة أخرى ثمّ استأنف: «هذا هو الملخّص: الأفارقة غير قادرين على السير قدماً بالجهاز الإداريّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ الذي أوجده الأوروبّيون في أفريقيا. فما إن يرحل البيض حتّى يتطاير كلّ شيء أدراج الرياح. وهذا ليس لأنّ الأفارقة لا يملكون بعض المهارات التي يمكن لهم أن يتعلّموها بمرور الوقت، بل لأنّهم لا يستطيعون عمليّاً فعل بعض الأمور، أي لأنّهم من مستوى عنصريّ أدنى».

«وما هي البراهين التي ساقوها لتأكيد آرائهم هذه؟».

«ليست براهين، فهم مقتنعون بالأمر منذ البداية. بل إنّ كلّ حديثهم يستند إلى هذا المنطلق الذي هم على قناعة مسبقة وصامتة به».

«وماذا يقولون أيضاً؟».

رأيت أنّه يصيخ السمع ثانية، وتبرق عيناه بخبث، ليقول في النهاية: «إنّهم يتكلّمون الآن عن شخص اسمه هارّيسون طلّق زوجته ليتزوّج من امرأة اسمها ماود».

«هذا يكفي، لا يهمّني الأمر».

يوجد تحت ناظري في هذه اللحظة عشرات النماذج من «الإنسان الفيكتوريّ» الذي يملأ أنحاء كثيرة من أفريقيا، لكنّ النماذج تقلّ، بمقدار ما تحلّ الرأسماليّة الجديدة محلّ الاستعمار بطابعه القديم. يجب القول إنّ الأفكار العنصريّة لدى هذا «الإنسان الفيكتوريّ» لا تستند إلى المنفعة فقط، كما يمكن للمرء أن يظنّ. وهؤلاء الرجالات العشرة الذين يرتدون قمصاناً بلا أكمام، وسراويل قصيرة، لا يدركون أنّهم، في نهاية الأمر، وعلى الأرجح، ناطقون باسم ثقافة وحضارة محدّدة، حضارة من النوع القوميّ والفرديّ والبرجوازيّ والبروتستانتيّ، والذي كشف عن وجهه في أوروبّا مباشرة بعد الإصلاح. ومن العدل أن يكون الأمر على هذا

المنوال. فالأوروبّيّ يخضع دائماً لإملاءات تاريخه، وهو يستخدم بصورة واعية، أو غير واعية، خلال علاقته مع شعوب من حضارات أخرى، أدوات ثقافيّة معقّدة جدّاً، ودقيقة ومرسومة من قرون عديدة. لكنّ الثقافة ذات الأصول البروتستانتيّة ليست الثقافة الوحيدة التي ينطق الأوروبّيّون باسمها في أفريقيا.

بعد أيّام، وخلال مناسبة مختلفة جدّاً، حصلت على برهان عن الأمر. كنّا مسافرين عبر كينيا الجنوبيّة، حين اقترح السائق في مرحلة معيّنة أن نأخذ طريق تحويلة تختصر الطريق على حدّ قوله. والواقع أنّه كان هناك على المفرق إعلان عن أعمال جارية على الطريق، وأنّ الطريق مقطوعة، لكنّ السائق أكّد لنا أنّ الإعلان قديم، وأنّ الطريق سالكة منذ وقت طويل. وهكذا فقد استدرنا نحو التحويلة، واستأنفنا السير.

كانت الطريق غير معبّدة، وأرضها من تراب أحمر كالدم، وقد شقّت في منطقة رائعة، ذات مظهر خرافيّ، خياليّ غريب. كان هناك تلال وتلال على مدّ النظر، ووديان صغيرة عميقة بين التلال، فضلاً عن أشجار باوباب[1] كثيرة منتشرة هنا وهناك، متباعدة عن بعضها، كبيرة ضخمة ومنعزلة. سرنا لفترة بين هذه التلال، وكنّا نقف كلّ فترة لنتأمّل هذا المنظر الغريب. عندها وفي ذلك الصمت العميق بدا لنا أن تلك الأشجار، المنتشرة هنا وهناك، هي حيوانات وليست أشجاراً، وذلك بسبب حركات أغصانها الجرداء. حتّى إنّنا توقّعنا أن نسمعها وهي تصرخ، أو أن تنتصب على جذورها وتشرع في السير. لكنّ الطريق انتهت فجأة بعد أحد المنعطفات. فرأينا الجانب المقسوم من تلّة خضراء جدّاً، كان هناك فسحة حمراء مشتعلة،

1- شجرة التبلدي أو البُوجِبَاب أو الباوباب أو شجرة القارورة أو الشجرة المقلوبة أو شجرة خبز القرود - الاسم العلمي Adansonia - تختزن أشجار هذا النبات كميات هائلة من الماء تمكنها من الحياة، وقد يصل قطر جذع الشجرة إلى عشرة أمتار، وتتفرع غصون شجرة التبلدي، وتقل أوراقها حتى يخيل للناظر إليها أنها جذور، وذلك للتقليل من عملية النتح (أي تبخر الماء من النبات)، وبالتالي يقل الفاقد من الماء عن طريق التبخر. (م. عن ويكيبيديا)

نثرت فيها أدوات وآلات حفر مدهونة باللون الأصفر، ساكنة تحت الشمس، كما هناك في الوادي القريب بيت مسبق الصنع.

ذهبنا إلى هناك، فخرج منه رئيس الورشة الكبير في السنّ، وعامل أصغر منه، طويل وأشقر. كانا يشرفان على الورشة، أمّا العمّال فقد سافروا إلى المدينة بما أنّه يوم أحد. كان رئيس الورشة من منطقة ليغوريا في إيطاليا، بينما كان العامل من منطقة البيمونت. دعوانا للدخول إلى البيت وفيه أثاث ملموم، قدّما لنا الشراب، وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث.

بعد أسئلة مبدئيّة حول الطريق والأشغال والعائلة، انتقل الحديث حتماً إلى الأفارقة. إنّه حديث إجباريّ لأنّه حيثما ذهبنا في أفريقيا فإنّ المشكلة الكبرى لدى الأوروبّيين، وشغلهم الشاغل الأساسيّ إنّما هم الأفارقة بالذات. وقد اكتفى رئيس الورشة الليغوريّ أن يذكر عبارات قليلة مقتضبة ومتستّرة ولو كانت معادية، ترافقها ابتسامات وهزّات رأس، لكنّ العامل البيمونتيّ كان أشدّ فصاحة. ثمّ وكما لو أننا مفتّشون مبعوثون من هيئة عالميّة خياليّة من أجل تجميع أدلّة ماديّة ومنغّصات، فإنّه اندفع في خطبة لاذعة حول مساوئ العمّال الأفارقة العاملين إلى جانب البيض في الورشة. لن أكرّر هنا أحاديثه التي أعتبرها مجرّد شعارات مستهلكة، رغم أنّها مدعّمة على ما يبدو بتجربة شخصيّة مباشرة. الخلاصة أنّ العامل كان يعيب على الأفارقة أنّهم يسلكون سلوكاً يختلف عن الذي عليهم أن يقوموا به، داخل الورشة وخارجها. أي إنّ هذا السلوك المثالي هو سلوك البيض بالذات، بمعنى أنّ هذا العامل كان يعيب على الأفارقة أنّهم لا يتصرّفون كما يفعل الأوروبّيّون. بعد سيل الاتّهامات هذا، أنهى حديثه بهذه العبارة، التي لفظها بقناعة عميقة: «ماذا تريد؟ الجهل هو المصيبة الرئيسة لدى هؤلاء الناس».

ألقينا عليهما التحيّة بعد قليل، واستأنفنا رحلتنا تاركين إيّاهما منعزلين بين أشجار الباوباب. لكنّي فكّرت خلال الرحلة بذلك اللقاء، ولم أتمكّن إلّا أن أقارن بين كلام العامل الإيطاليّ، وحديث مجموعة

الإنكليز في فندق مونباسّا. فالعامل في حكمه على الأفارقة كان ينطق عن غير وعي منه باسم ثقافة وحضارة معيّنة. في حال الإنكليز كانت تلك ثقافة بروتستانتيّة وقوميّة، وفي حال العامل كانت ثقافة إنسانويّة وكاثوليكيّة. في الواقع فقد كان الإنكليز يعيبون بعنصريّة على الأفارقة «بأنّهم أفارقة»، بينما كان العامل يعيب عليهم بأنّهم «يتصرّفون» كأفارقة. والفرق كبير، ففي الحال الأولى لا يوجد شيء يمكن فعله، أمّا في الحال الثانية فيمكن لهم أن يفعلوا شيئاً إذا شاؤوا ذلك. أي يمكنهم أن يتصرّفوا بطريقة مختلفة. وبينما كانت دونيّة الأفارقة بالنسبة للإنكليز مسألة دم وإرث، فهي بالنسبة للعامل مجرّد «جهل».

الجهل: بهذه الكلمة عبرت إنسانويّة العامل اللاواعية عن ذاتها بطريقة تامّة. الجهل كان يعني: هؤلاء الرجال يشبهوننا، لكنّهم جهلة، أي إنّهم لا يعلمون. وما إن يقرّروا التحرّر من الجهل، حتّى تنعدم الفروق بين الرجل المولود على الضفاف البرّيّة المقفرة لبحيرة رودولفو الأفريقيّة، وبين ذلك المولود على الشواطئ المزهرة اللطيفة لبحيرة كومو الإيطاليّة. وإذا أردنا مزيداً من الدقّة والعمق نقول إنّه لو كان الأفارقة «يعرفون» فإنّهم «لن يكونوا بعد ذلك» أفارقة، أي لن يكونوا سوداً بوجوه بارزة وشعر أجعد. وهذا هو التصوّر الإنسانويّ وقد دُفع به إلى حدود المعجزة.

وطبيعيّ أنّه لا التصوّر البروتستانتيّ، القوميّ والعنصريّ، ولا ذلك الإنسانويّ والكونيّ العموميّ، قادران على مساعدتنا في فهم الأفارقة، وفي إقامة علاقة غير وهميّة معهم. الغريب أنّ التصوّر الأول، وهو أشدّ عداوة للأفارقة، هو الذي يتمتّع بكميّة أكبر من المفاهيم العلميّة، أمّا الثاني فهو أخلاقيّ كلّيّة، ودينيّ. لكنّ الاثنين يشتركان في كونهما أداتين ثقافيّتين للدخول في علاقة مع شعوب لا تملك أصلاً ثقافة بالمعنى الذي يعطى لهذه الكلمة في أوروبّا. هناك طبعاً ثقافة أفريقيّة، لكنّها لا تملك صفات وسيطة وفكريّة ومنطقيّة، وهي تنبثق من الحاجات البيولوجيّة

التي تبقى متشابهة، وليس من تقدّم التاريخ الذي يبقى مختلفاً على الدوام. إنّ هذا التمايز الجذريّ في المنسوب بين ثقافة الأفارقة وثقافة الأوروبّيّين، يميّز في رأينا صعوبة إذا لم نقل استحالة إقامة العلاقات. لذلك فإنّ الجهل الذي نسبه العامل البيمونتيّ إلى الأفارقة، هو جهل يُنسب أيضاً وفي كلّ الأحوال إلى الأوروبّيّين، لكن بمعنى مختلف. فكلّما استطاع هؤلاء أن يعرفوا، أصبحوا قادرين على التعليم. أي إنّ جهل الأوروبّيّين هو السبب الأوّل لجهل الأفارقة.

مكتبة
t.me/t_pdf

ذكرى ماساي

نيروبي، تمّوز 1963

شيرلي هي فتاة إنكليزيّة مولودة في كينيا، حيث كان أبوها يمتلك عزبة كبيرة على بعد حوالي مئة كيلومتر من نيروبي. لا يمكن أن يكون هناك فتاة أكثر منها شبهاً بالشماليّين البريطانيّين: كانت طويلة، نحيلة، ليّنة القدّ، شعرها أشقر بالشقرة المعروفة غير المضيئة، عيناها زرقاوان غير جميلتين لأنّهما جامدتان وبلّوريّتان نوعاً ما، أنفها قاس صغير، فمها عريض وفكّها مربّع. لم تقم شيرلي أبداً بزيارة أوروبّا، بل إنّها لم تزر نيروبي إلّا مرّات قليلة. كما أنّ تربيتها جرت، بصورة أو بأخرى، داخل العائلة. شيرلي الجاهلة وغير المتعلّمة، تتحدّث بطلاقة اللغة السواحليّة، وهي اللغة الشائعة في أفريقيا الشرقيّة، فضلاً عن لهجة الكيكويو. كما أنّها تملك المهارات المعتادة في أفريقيا: فهي تعرف تنظيم المخيّمات، صيد مختلف أنواع الوحوش، من الغزلان إلى الأسود، إدارة الأعمال الزراعيّة في أملاك أبيها، الطبخ، بل ومعالجة بعض الأمراض المداريّة حين الحاجة.

تأخذني شيرلي الآن في سيّارتها القديمة من نوع لاند روفر. كانت تهتزّ صعوداً وهبوطاً على طريق رمليّة، تعبر السهول الخضر وغابات آكاسيا السافانا، وذلك لمشاهدة بعض الأمور الغريبة في الأرجاء، مثل حديقة حيوان صغيرة تضمّ وحوشاً برّيّة، جمعها صيّاد سابق محترف، كان يؤجّرها تباعاً لدور الإنتاج السينمائيّ التي تصوّر أفلاماً عن الصيد

والمغامرات في أفريقيا. كانت شيرلي تقود السيّارة بلامبالاة، يبدو أنّها تشير إلى خبرة كبيرة، بل كانت تتحدّث بطلاقة وهي تقود، أو بالأحرى كانت تجيب عن أسئلتي. كانت تتكلّم من غير أن تتحرّك، كانت تنظر بثبات، تنظر إلى الأمام، إلى الطريق. وبما أنّها كانت لا تنظر إليّ، فإنّي كنت أرى طرف وجهها، وكنت ميّالاً لأن أنتبه إلى حديثها أكثر من انتباهي إلى حركاتها وتعابير وجهها. كانت كلماتها تصلني صافية ودقيقة، كما لو أنّي أسمعها من الراديو[1].

قرّر أبو شيرلي ترك كينيا، لأنّ حياة الأوروبّيّين ستصبح فيها صعبة عمّا قريب، وذلك ليعود إلى إنكلترا. سألتُ شيرلي فيما إذا كانت ستسرّ لرؤية بلدها الأصليّ للمرّة الأولى، وماذا تفكّر بأنّها فاعلة هناك، وفيما إذا كانت ستشتاق إلى كينيا وأشياء من هذا القبيل. أجابتني شيرلي بدقّة لكن بطريقة باهتة كلّية، بل وآليّة. قالت إنّها مسرورة لأنّها ستسافر، لأنّها ستذهب إلى إنكلترا، حيث ستبدأ حياة جديدة هناك. لن تشتاق إلى كينيا، لأنّ هذا البلد أصبح مؤخّراً بغيضاً جدّاً بالنسبة للإنكليز. أضافت إنّها ستكون بخير في إنكلترا، لأنّ لها هناك أقارب كثراً وأصدقاء كثراً. كانت تتكلّم كما أسلفت بتراخ وبطريقة آليّة، بإنكليزيّة بائسة شاحبة بلا حيويّة، يكفي تفحّصها ليتبيّن أنّها مفعمة بالشعارات والعبارات الجاهزة. كانت إنكليزيّة مؤلّفة ليس من أكثر من مئة كلمة، أي التي تتكلّم بها عادة البرجوازيّة المتوسّطة. أظنّ أنّ حظّي كان سيّئاً مع شخص مملّ لا يثير أيّ اهتمام، وعندما نظرت إلى وجه شيرلي الشائع جدّاً، قلت في نفسي إنّه كان عليَّ أن أتوقّع مثل هذه النتيجة.

لكن عندما وصلنا إلى منعطف، وسط تلك العزلة الخضراء اللامتناهية، شعرتُ بشكّ ما فتوقّفت. كان هناك ريح خفيفة تهبّ

1- فضّلت استعمال كلمات أجنبيّة على إيراد ترجمتها المعتادة. فالترجمة بكلمة المذياع تنقل معنى الوظيفة الخارجيّة المحسوسة فقط من كلمة راديو ولا ترجمها. وهذا ينطبق أيضاً على ترجمات لكلمات مشابهة أخرى مثل الهاتف بالنسبة للتلفون والرائي بالنسبة للتلفزيون وغيرها كثير. (م)

وتداعب الآذان، وكانت الشمس مرتفعة مشعّة، لكنّها غير محرقة. ظهر فجأة من وراء أجمة ضخمة شاب أفريقيّ... كان طويل القامة جدّاً، شبه عارٍ، نصف جسمه مدهون بالأحمر، شعره مجزّأ في مئة جديلة صغيرة، يحمل رمحاً طويلاً في يده وهراوة في اليد الأخرى. أخرجت شيرلي رأسها من النافذة، ونادت عليه بالسواحليّة. لاحظت عندها تغييراً عنيفاً في صوتها وفي وجهها. فصوتها أصبح حارّاً، متناغماً، ثاقباً يلتوي بين الخجل والتعالي، كما اتّقد وجهها، وعلاه تعبير غريب من البراءة المدروسة، ولمع في عينيها، كما ظهر في ابتسامة شفتيها، لطفٌ فيه بعض التلميح. أمّا الأفريقيّ فبدأ يجيب عن أسئلة شيرلي بصوت بطيء متردّد، لكنّه أظهر في البدء هو الآخر تعبيراً عن اعترافه بالجميل، وبقبول مليء بالحرج بهذه العلاقة الإجباريّة. شكرته شيرلي في النهاية واستأنفنا السير.

تشجّعتُ فتركت الحديث عن إنكلترا جانباً، وحوّلت أسئلتي إلى حياتها في كينيا. هنا استعادت حيويّتها وبدأت تروي. كانت فترة مراهقتها شرسة، فهي وإخوتها كانوا يتجوّلون طيلة النهار في الريف، مع عصابة من الفتيان الماساي في عمرهم. سألتها من هم الماساي، مع أنّي أعرفهم كلّ المعرفة، لكنّي أردت أن أسمع كلامها، وهي أجابتني بصوت غنائيّ تقريباً، إنّهم قبيلة من الرعاة يعيشون في شمال كينيا. وهم طوال القامة، نحيلون، أنيقون، يتميّزون بحسن الهيئة وبالجلَد خلال الصيد، كما أنّه لدى الماساي مقاومة تامّة للحضارة الأوروبّيّة. وهم، على عكس الكيكويو، لا يتحوّلون إلى ديانة الأوروبّيّين، ولا يرتدون ثياباً على الطراز الأوروبّيّ، ولا يقبلون بعادات الأوروبّيّين وتقاليدهم. وأضافت شيرلي من غير أن أسألها: «شخصيّة الماساي لطيفة جدّاً، مرحة، طلقة، خفيفة. وهم سطحيّون، مغرورون، مشتّتو الذهن وطفوليّون. يضحكون ويمزحون طيلة الوقت. كانت شيرلي تنظر إلى الطريق من غير انتباه، ثمّ أضافت، وكأنّها مدفوعة بحاجة لا تقاوم لأن تتحدّث عن الماساي، إنّ هؤلاء الرعاة يتغذّون بالدم والحليب. يحلبون الحليب من حيواناتهم،

كما يمصّون دماءها كأنّها حليب، بالفعل. هذا يعني أنّهم يجرحون وريد الحيوان ويشربون الدم ثمّ يغلقون الوريد.

لاحظت قبل قليل أنّ لغة شيرلي فقيرة شاحبة وبلا حيويّة، وأنّها تتكلّم باستخدام مئة كلمة فقط، من التي تكوّن كلّ لغة طبقتها. لكنّي لاحظت أنّها عندما تتحدّث عن الماساي، فإنّ لغتها تتغيّر، كما يتغيّر صوتها وتتغيّر تعابيرها. لقد أصبحت الآن أغنى وأشدّ حرارة، وجاءت من حيث لا أحد يعرف، كلمات ذات طابع أدبيّ، وغير معتادة في جميع الأحوال، بل وأصيلة، لتختلط بالكلمات المبتذلة المجرّدة المعتادة. أي إنّه قد يقال إنّ لغة شيرلي هي مثل آنتيوس ابن الأرض، الذي كان يستعيد قوّته كلّما لامس الأرض بقدمه، فهي أيضاً كانت تسترجع العزم والقوّة واللون، كلّما تكلّمت عن أفريقيا والأفارقة. أجريت بعدها تجربة مضادّة، فركّزت حديثي على العمل الذي ستعمله شيرلي في إنكلترا، وعلى الأوساط التي ستعيش فيها. ها هي لغتها الآن تنقلب من جديد انقلاباً عنيفاً، لتعود بائسة شاحبة وآليّة. تعبّر شيرلي الآن عن نفسها الآن بكلمات، فيها جفاف وقحط عبارات التخاطب المتداولة، كما عاد وجهها بارداً وصارم المعالم، وعيناها جامدتين وفارغتين. ولو لم تكن مبالغة لقلنا إنّها أصبحت شخصاً آخر، لكنّه من الممكن القول إنّ شيرلي الحقيقيّة هي تلك التي تنفعل وتتّقد، عندما تتحدّث عن أفريقيا. والتناقض الغريب هو أنّ شيرلي ترفض طبيعتها الأفريقية، وهي تريد أن تبقى إنكليزيّة وإنكليزيّة فقط. والواقع أنّه لا يمكن لنا إلّا أن نلاحظ، أنّها تظهر انفصالاً عن الماساي، فيه نوع من الازدراء، رغم تعاطفها معهم، ورغم أنّها تخفّف ذلك الانفصال بشيء لا نفهمه من الجاذبيّة والفضول. أي إنّ هناك الكثير من التفاصيل المعقّدة في العلاقة بين الأوروبّيّين والأفارقة. وشيرلي عن غير إرادة منها هي مثال جيّد، يبيّن تلك العلاقة.

حادت السيّارة عن الطريق الرئيسة، وعبرت بوّابة خشبيّة منصوبة

بين حاجزين، يضيعان في البعاد ليظهرا في تلك القفار كأنّهما سور لا يحيط بعقار محدّد أو مسجّل في سجلّ الكاتاستو العقاريّ، بل بعالم غارق في الأحلام. وهنا اتّقد وجه شيرلي فجأة وبدأت بتذكّر فترة مراهقتها برفقة الماساي. كانوا يذهبون إلى صيد الخنازير البرّيّة ذات الأنياب الطويلة التي تبرز من أفواهها. كانوا أربعة فتية إنكليز، فضلاً عن الماساي، وذلك حتّى عمر الخامسة عشرة. كان الماساي يشهرون رماحهم ويجرون بسيقانهم الطويلة الدقيقة وراء الخنازير البرّيّة، حتّى يرهقونها، ثمّ يقتلونها في النهاية. كان الأمر يسبّب لهم كثيراً من الإثارة في تلك الأيّام الإفريقيّة الطويلة جدّاً، حيث كانت الشمس لا تغرب أبداً، وكانت كلّ دقيقة من العمر تمرّ كأنّها جديدة وغريبة. سكتت شيرلي للحظة ثمّ أضافت، ومرّة أخرى من غير أن أسألها، إنّ الماساي لا يملكون مشاعر خاصّة إزاء النساء، لأنّهم يعتبرونهنّ من أشياء الملكيّة. وهم لا يحتاجون إلى ودّ النساء، لذلك فإنّهم لا يطلبون منهنّ إلّا القيام بالأعمال الشاقّة في القرى. بينما كانوا هم يجوبون عبر السافانا الشاسعة، عراة ومسلّحين كأبطال الإغريق، يسوقون أبقارهم أمامهم، أو يذهبون للصيد. وهي مهنة أخرى مخصّصة للرجال فقط. سكتت شيرلي من جديد، ثمّ قالت إنّ أحد الماساي ذهب لعند أبيه وطلب منه أن يشتريها، أي هي، شيرلي، وذلك ليجعلها زوجة له. حكت هذه القصّة بينما كانت عيناها تسبحان في الأحلام، كما لو أنّها ترى بعين الخيال أنّها قد ارتبطت في تلك اللحظة بعلاقة زوجيّة مع راعٍ أفريقيّ. لكنّها ما لبثت أن أنهت حديثها بقسوة قائلة إنّ الماساي أغبياء بالفعل، وإنّ هذا الطلب يبرهن من جديد على غبائهم.

بينما كنّا نسير على الطريق الملتوية بين أعشاب السافانا الطويلة، اقتربت مجموعة من الماساي، وكادت تقطع علينا الطريق. كانوا مسلّحين بالرماح والهراوات، وكانت الشمس تنعكس على جباههم، وتبرق بما يشبه الآبنوس، بينما كانت عيونهم تحدّق فينا بانتباه. أوقفت

شيرلي السيّارة في الحال، وانهمكت في حديث طويل معهم. أثارني من جديد التألّق والغموض والألفة الفريدة في صوتها وتعابيرها. ابتسمت مرّتين أو ثلاث مرّات، وفي مرّة أخرى قطّبت حاجبيها وبدا أنّها غاضبة. في النهاية التفتت نحوي، متناسية السواحليّة لتتكلّم بالإنكليزيّة، وقالت لي إنّ هؤلاء الفتية، المغرورين مثل جميع الماساي، يطلبون أن أتصوّر معهم، وسألتني فيما إذا كنت أقبل بأخذ الصورة لهم؟

قبلت بكلّ سرور. سحبت شيرلي آلة تصوير من صندوق لوحة السيّارة، شرحت لي كيف تعمل، ثمّ نزلت بسرعة فائقة من السيّارة وذهبت لتقف معهم استعداداً للصورة. أحاط بها الماساي وهم عراة نحيلون، سود، وبدوا إلى جانبها وبطريقة تصعب على التفسير همجيّين بدائيّين، بضفائرهم وسلاسلهم من الخرز البرّاق، وأساورهم النحاسيّة، وأصبغتهم الحمراء التي بدت كأنّها خمار من دم، يغطّي جلدهم الأسود. أحاط واحد منهم، وهو أكبرهم وأقواهم بنية، خصر شيرلي بذراعه، بينما وضع واحد آخر يده على كتفها، تردّدت شيرلي قليلاً، لكنّها ما لبثت أن ابتسمت ابتسامة عريضة خبيثة، ثمّ صاحت عليَّ بصوت حادّ وواضح، كانت ترنّ فيه ولا أدري أيّة سعادة، وطلبت أن ألتقط الصورة بعناية. كان رجال الماساي يضحكون أيضاً، ووجدت أنّ شيرلي كانت على حقّ، عندما قالت إنّ مواقفهم تظهر غرورهم وتفاهتهم، فضلاً عما بدا لي من وجود شيء من التسلّط والتعالي إزاء شيرلي، وكأنّهم لا يعتبرونها شخصاً بل شيئاً ما، أو بالأحرى مجرّد امرأة.

بعد التقاط الصورة تحرّرت شيرلي من غير تسرّع من الماساي، ثمّ صعدت إلى السيّارة، ولوّحت بيدها في إشارة تحيّة لهم، قبل أن تنطلق من جديد على الطريق. سرنا حوالي كيلومتر تقريباً فظهرت لنا حديقة الحيوان الخاصّة الصغيرة، وهي هدف رحلتنا. كان هناك شجرتان أو ثلاث أشجار كبيرة، ساقطة مغبرّة، تظلّل بعض الأكواخ وصفّاً متواصلاً من الأقفاص. ما إن اقتربنا حتّى وجدت أنّ هناك على الأقفاص قضباناً

سميكة غليظة من الخشب القاتم اللون، وأنّ هناك وحوشاً كبيرة وصغيرة تتجوّل في الظلّ خلف القضبان، بينما ظهر في أعلى الأقفاص، وفوق القفص المجاور، زوجان من الزرافات، برأسيهما الصغيرين المثيرين للفضول، المنتصبين في أعلى الرقبتين السميكتين الطويلتين.

توقّفت السيّارة وترجّلت شيرلي منها بقفزة واحدة، ثمّ ذهبت لملاقاة حارس حديقة الحيوان، وهو إنكليزيّ، نحيل قويّ البنية، قاتم الهيئة، حتّى ليظنّ أنّه موظّف في البنك. كان حديثهما قصيراً، لكنّه أكّد لي رغم قصره صحّة ملاحظاتي السابقة: فشيرلي كانت تتقّد حيويّة، وتشتعل حرارة، عندما تتحدّث عن الماساي أو تتكلّم معهم، بينما تعود إلى الكلمات المهترئة عندما تكون مع مواطنيها، وإلى آليّة السلوك التي تميّز العلاقات الاجتماعيّة في الحضارة الصناعيّة.

يبدو أنّ صاحب حديقة الحيوان غير موجود، لأنّه ذهب لمرافقة أسدين سيستعملان في تصوير فيلم سيكون اسمه ذا دلالة عميقة، أي: مغريات أفريقيّة. سألتني شيرلي إذا كنت أريد أن أزور حديقة الحيوان، فأجبتها مستعملاً نبرة سؤالها نفسها، وقلت إنّ هذا لا يهمّني، فقالت بعد أن تنفّست الصعداء مرتاحة: «بالفعل، لأنّ هذه الحيوانات الموضوعة في الأقفاص لا تثير أيّ اهتمام. فهي تفقد شخصيّتها داخل الأقفاص، لأنّها مجبولة على الحريّة والعفويّة الطلقة. يجب أن نرى الأسد وهو يسير حرّاً طليقاً بين أجمات السافانا، وأن نرى الفيل وهو يقف حرّاً بين أوراق الغابة الكثيفة، وأن نرى وحيد القرن وهو يبرز بكلّ حرّيّة بوجهه الأسود بين الأعشاب الصفر الطويلة».

قالت هذه الكلمات وهي تقود السيّارة بالطريقة نفسها، أي بلامبالاة وتهوّر. كانت نظراتها ضائعة عبر السهول الشاسعة، كانت تنظر إليها بطريقة غريبة، وكأنّها تبحث عن شيء معيّن. وهكذا فإنّي لم أتمكّن إلّا من تخيّلها وهي في لندن، أو في مدينة إنكليزيّة أخرى، خلال شتاء من شتاءات الشمال الضبابيّة القاتمة. فقلت في قرارة نفسي إنّ عينيها لا بُدَّ

أن تُسحرا من حين لآخر، وهما تبحثان بطريقة غريزيّة، وبين الضباب الصناعيّ القذر، عن صور التلال الأفريقيّة الخضر، وعن ضوء الشمس الذي ينير الجبال، كما عن خيالات رجال الماساي السود الأنيقة وهم يجوبون السهول بسلاحهم.

ديدان كيماثي

نيروبي، آب 1963

ها هو منتصب أمام عينيّ، جبل كينيا المسمّى كيكويو كيرا نياغادا، أي «جبال البهاء». إنّه واحد من الجبال الأفريقيّة المعروفة عادة ببهائها وبإثارتها للرعب في الوقت نفسه. كان المخروط الضخم ينتصب فوق المرتفع بميلان ليس فيه شيء من التهوّر، بل بحلاوة وتدرّج، بحيث يبدو أنّ سفوحه تستطيل كأنّها جذور ضخمة تمتدّ حتّى حدود الأفق. تغطّي جبل كينيا فروة مكوّنة من غابة شديدة الكثافة، بخضرة مدهامّة تقترب من السواد. وتصعد الغابة حتّى القمّة الصغيرة الجرداء، التي تشبه الماس في بريقها، الذي يشعّ من مختلف أطرافها. يبدو الجبل كأنّه رجل يرتدي معطفاً يغطّيه حتّى أسفل أنفه، وهو جالس ينظر، وقد ينتصب في أيّة لحظة ليقف على قدميه، وليمدّ ذراعيه الواسعتين، ويمسك بالأرض والسماء.

تقول أساطير الكيكويو إنّ جبل كينيا هو أوليمبوس علويّ، يستوي عليه الخالق، أو بالأحرى الإله نغاي، مع كلّ متاعه. كما أنّ ديانة نغاي هي أنموذج عن الديانات الوثنيّة لشعب مؤلّف من المزارعين البدائيّين. وأحسب أنّها ليست ديانة أصيلة بالكامل، رغم أنّها طبيعيّة، ويسهل توقّع شؤونها، ومتلائمة تماماً مع حاجات الكيكويو. نغاي هو إله فلّاح يطلبون منه السلام، والنسل الكثير، والرفاه، ليهبها لهم على شكل قطعان سليمة ومحاصيل وفيرة. ويتّصف نغاي بصفات الأب في العائلة

الأفريقيّة، الأب المتسلّط والتعسّفيّ والسريع الغضب. وبما أنّه كثير المشاغل، فيجب عدم إزعاجه بصلوات وطلبات فرديّة خاصّة، لذلك فإنّه يهتمّ بمشاغل شعبه الإجماليّة. وفي الواقع فإنّ الكيكويو يقولون ما يعني: «يعيش الإله في السماوات ولا يهتمّ بأشغال رجل واحد بمفرده. إنّه يرعى أمور شعب كامل أو قبيلة بأجمعها. كما أنّه لا توجد أيّة قيمة لتضحية الرجل بمفرده، ولا لتديّنه»[1]. وأعتقد أنّ هذا هو الأمر الذي يميّز ديانة الكيكويو، أي رفض الفرد، وسيادة العائلة، الجماعة، الشعب.

أمّا في بقيّة الأمور فإن نغاي يتصرّف بطريقة غيره من الآلهة الوثنيّة، أي يقبل الضحايا الحيوانيّة، ويتطلّب كميّة من الطقوس التي تقام عند الدخول في الديانة، أو خلال العبادات، ويتجلّى من خلال ظواهر الطبيعة: فالرعد على سبيل المثال، ليس إلّا طقطقة عظامه عندما يليّن ركبتيه. أمّا مقرّه فهو في جبل كينيا وفي جبال أخرى يقدّسونها لهذا السبب. وفي النهاية فإنّ نغاي منغمس حتّى أعلى رأسه، ومثل جميع الآلهة الإفريقيّة، في ممارسات السحر الأبيض والأسود.

والآن إلى أين وصلت ديانة الكيكويو البسيطة هذه؟ أقول إنّها في طريقها للزوال. فلقد تهاوت على وقع قدوم الإسلام النشيط في كينيا، فضلاً عن النصرانيّة، لكنّ ما يعيب النصرانيّة هو أنّها ديانة البيض. كما ساهم في تحطيم تلك الديانة، التحوّل الذي طرأ على الكيكويو، من شعب من المزارعين إلى مجموعة من العمّال اليدويّين المنفصلين عن جذورهم. حدث هذا الانفصال بسبب سياسة الاستملاك التي انتهجها بحماقة المستوطنون الإنكليز، أي أولئك الذين كان يهمّهم أكثر من غيرهم المحافظة على ديانة الأفارقة المتأخّرة تلك، لأنّها ستكون أفضل عماد للسلم الاجتماعيّ. وما حدث في كينيا خلال السنوات الأخيرة،

1- eikaraga matuine, na nderorangia na wera wa mondo omwe mwanya,» eroranagia na mawera mà ando oothe, kana ando a nyomba emwe. Ngai ndegiagiagwo». (م)

كان صورة مصغّرة عمّا حدث في إنكلترا، بطريقة أكبر، خلال القرن الثامن عشر، أي عندما انفجرت الثورة الصناعيّة. لقد تحوّل الفلّاحون وقتها إلى بروليتاريا، بعد أن تحطّمت أصولهم الاجتماعيّة. لذلك لماذا يجب الآن على العامل، أو الشغيل اليدويّ، أن يتعبّد نغاي؟ هل عليه أن يفعل ذلك لكي ينهمر المطر على أراضي المستملكين البيض؟ وقد قيل لي إنّ الأجيال الجديدة قد هجرت نهائيّاً ديانة الآباء والأجداد.

لكنّه من الخطر بمكان تحطيم ديانة ما، عوضاً عن تركها تموت بسبب الشيخوخة وعدم التلاؤم مع الواقع، خاصّة عندما نتكلّم عن ديانة بدائيّة مثل ديانة الكيكويو، التي كانت تجمع بين كونها ديانة وحضارة في الوقت نفسه. والواقع أنّنا نعتقد أنّه ليس هناك من ألم أشدّ على الإنسان من ألمه، عندما يرى أنّ أساساته الثقافيّة تنهار تحت قدميه. لذلك فإنّ المؤرّخين يسمّون تحطّم الثقافة، والألم الناجم عن ذلك، بالأزمة. أزمة العالم القديم في زمن الهيلينيّة الإغريقيّة، وأزمة أوروبّا أيّام الإصلاح، وأزمة العالم الغربيّ بين الحربين العالميّتين، وهكذا دواليك. لكنّ الأوروبّيّين، الذين يتفهّمون الأمور، عادة، إذا كانت تتعلّق بثقافتهم، فإنّهم يتفهّمونها بصورة أقلّ بكثير عندما يتعلّق الأمر بثقافات مختلفة عن ثقافتهم. لذلك فإنّ أكثر الإنكليز، حتّى من يحسنون النيّة بينهم، لا يرون أيّة أزمة في مأساة شعب الكيكويو الصغير، بل يعتبرونها مجرّد صعود قبيلة أفريقيّة، من ظلام الهمجيّة نحو نور الحضارة. بل إنّهم أخفوا عنّا وراء هذا الوهم مصيبة الكيكويو الاجتماعيّة، ليتمّ الانتقال من هذه المصيبة مباشرة إلى مأساة الماوماو. ولا شيء يمكنه أن يعطي فكرة عن عدم تفهّم الأوروبّيّين لتمرّد الماوماو، من هذه العبارة التي قالها قاضٍ إنكليزيّ خلال محاكمة مجموعة من الكيكويو، اتُّهمت بالنطق بقسم الماوماو الشائن: «لا يوجد أيّ شكّ بأنّ هؤلاء المتّهمين قد عادوا، رغم أنّ بعضهم قد تلقّى التعليم، إلى الظروف الفكريّة والأخلاقيّة التي

كان يعيشها الأفارقة في عهد ليفنغستون»[1]. لكنّ الحقيقة هي عكس ذلك تماماً: فعنف الماوماو القاسي ليس إلّا أمراً جديداً حدث نتيجة الاستملاك وما تبعه من تحطيم الثقافة التقليديّة. أمّا الأفارقة في عهد ليفنغستون فكان لهم بشكل أو بآخر نظامهم الاجتماعيّ والدينيّ الذي لم يكن يسمح بذلك النوع من العنف.

يبرهن على صحّة هذا الأمر مجرّد فحص سطحيّ لتمرّد الماوماو. يبرز عندئذٍ أمران يثيران الانتباه في الحال: هناك أوّلاً التهجين الثقافيّ للتمرّد الذي تتدفّق فيه عناصر أخرى ذات طابع أوروبّيّ، وإن كانت قد تشوّهت وأسيء فهمها، مثل القوميّة والاشتراكيّة والإرهاب، وذلك إلى جانب عناصر بدائيّة مثل طقوس أكل لحم البشر. وهناك ثانياً الضراوة الشديدة التي يؤذي بها الماوماو أنفسهم، ويكفي أن نعرف أنّ مقابل أقلّ من خمسين أوروبّيّاً قتلهم الماوماو، هناك أكثر من عشرات وعشرات الآلاف من الكيكويو الأبرياء الذين قتلوا بدون رأفة. فكيف لا نرى في تلك الهُجْنَة الثقافيّة وفي تلك الضراوة الانتحاريّة، تشنّجات مجتمع ينهار وهو يحارب تفكّكه الداخليّ، أكثر ممّا يحارب المتسلّطين الأجانب؟

لماذا خطرت هذه الأمور في بالي وأنا أتجوّل في دروب حديقة الفندق الموجود مقابل جبل كينيا؟ لأنّ جبل كينيا هو المقرّ الأسطوريّ للإله نغاي، فضلاً عن أنّه أصبح في الزمن القريب الملاذ الأخير لديدان كيماثي[2]، إرهابيّ الماوماو الذي جسّد في شخصه، أكثر من أيّ رجل آخر، التمرّد الذي اتّصف بوجود خليطٍ من العناصرِ الأفريقيّة القديمة، مع نماذج أوروبّيّة أسيء فهمها.

لكن عليَّ أن أحذّر في الحال، وأقول إنّ ديدان كيماثي لم تكن له أيّة

1- ديفيد ليفينغستون . David Livingstone 1813 - 1873 كان مستكشفاً اسكتلندياً وأول أوروبيّ يرى شلالات فيكتوريا، فأطلق عليها هذا الاسم. كان من أشهر المبشّرين المسيحيين في أفريقيا. يقال إنّه عامل الأفريقيين باحترام، وتعلم لغاتهم وعاداتهم. (م)

2- Dedan Kimathi. (م)

علاقة برجال سياسة من نوع يومو كينياتا[1] على سبيل المثال. فهو لم يكن رجل سياسة يلجأ إلى العنف والدم من أجل تحقيق مآربه السياسيّة، بل كان عنيفاً ودمويّاً وجد في التمرّد فرصة للتنفيس عن غرائزه. لكنّي أرى أنّ ديدان كيماثي كان، بشكل ما، مفكّراً مثقّفاً، أعني بالشكل الذي كان فيه الزعماء النازيّون أيضاً مفكّرين ومثقّفين. ومن هنا الصفة التمثيليّة التي تميّز شخصيّته كما سبق وأسلفت.

أذكر صورة لديدان كيماثي أخذت له خلال المحاكمة التي انتهت بإصدار حكم الإعدام عليه. كان وجهه بارداً عنيفاً، تقاسيمه تكاد تكون منغوليّة بعينين صغيرتين وعظام بارزة على الخدّين، وأنف صغير مهروس، وفم عريض جدّاً يتميّز بتعبير يوحي بالغثيان. إنّه وجه كيكويو بروليتاريّ من المدينة، ليس بالبسيط ولا بالساذج. في المدرسة كان ديدان كيماثي طالباً ناجحاً (وقد أهداه أستاذ اللغة الإنكليزيّة عنزة لتفوّقه في الشعر) كما أنّه تسجّل لدى البعثة البروتستانتيّة، ممّا ساعده بعدئذٍ على استخدام التوراة ككتاب سحريّ قادر على إعطائه صفة العصمة في عيون أتباعه. كان يقول، ولربّما كان يصدّق أقواله، إنّ إلهاً قد كتبها خصّيصاً له وأرسلها له من السماء مترجمة بلغة الكيكويو. كما أنّه كان من جهة أخرى جنديّاً، واستمدّ من ملاحظته للنظام العسكريّ الإنكليزيّ، بعض المبادئ البسيطة والفعّالة التي نفعته فيما بعد لشنّ حرب العصابات.

لكنّ ديدان كيماثي كان مصاباً أيضاً بجنون العظمة ودمويّاً وعصابيّاً. كان يدّعي أنّه حصين منيع، وكان يطلب أن ينادوه مرّة بالطريقة الإنكليزيّة «السيّ رئيس الوزراء سير ديدان كيماثي»، ومرّة أخرى «الفارس آمر الإمبراطوريّة الأفريقيّة». وكان هو مثل الماوماو يصبّ جام غضبه على مواطنيه وليس ضدّ الإنكليز. كانت قصّة حرب عصاباته في غابات جبل كينيا، قصّة عنف وطغيان من النوع الاستبداديّ حيث يؤدّي أدنى شكّ،

1- Yomo Kenyatta. (م)

ولا أقول الخيانة، ولكن بوجود أيّ ميل نحو الاستقلال، يؤدّي إلى اعتماد وسيلة العقاب الوحيدة التي هي الموت. بهذه الطريقة أعدم وخنق أو أمر بخنق الكثيرين من رجال عصاباته، فضلاً عن كلّ نساء حريمه، عدا واحدة فقط. لكنّ ديدان كيماثي كان، كما قلنا، مفكّراً أيضاً وإن كان مثقّفاً من نوع خاصّ وشاذّ، إذ كان يتلو التوراة على أتباعه، خلال اجتماعه بهم في الغابة وكان يفسّرها ويشرح معانيها ببلاغة ملوّنة. كان يتجوّل مسلّحاً بأوراق وقلم، وكان يعطي أوامره مكتوبة على أوراق دفتره. وكان يرجع، قبل أن يتصرّف، إلى كتاب للصيغ السحريّة اسمه كتاب نابوليون السحريّ. وهذا ما يفسّر كيف أنّ هذا الرجل الدمويّ، الجبان والجائر الظالم، استطاع أن يثير إعجاب تلامذته، ويفتنهم حتّى آخر لحظة.

بعد أن أثير أمر ديدان كيماثي، لن يكون عبثاً وصف الفندق، الذي عمل ممثّل أميركيّ على استثمار رأسماله عن طريق تشييده مقابل جبل كينيا بالذات. تخيّلوا بناءً من طابقين، مقاماً على شكل نصف دائريّ، على أرض بارزة مقابل الجبل المقدّس تماماً. إنّه نوع من الموتيل، الذي يمكن للمرء أن يتمتّع من على شرفاته بمنظر الجبل المقدّس، وهو يحتسي الشاي، أو شرابه المفضّل المثلّج. هناك أسفل الفندق نوع من المدرج المزروع بالعشب الأخضر، تبرق في آخره بحيرة اصطناعيّة بمياهها السوداء. وتعوم في البحيرة طيور البجع الناصعة، فضلاً عن أشجار غريبة تخيّم فوقها بزهورها الحمر، وطيور إفريقيّة ضمن أقفاص محصورة بين فروع الأشجار. وجميع هذا نظيف، وواضح المعالم ومطمئن مريح، رغم ما فيه من الجنائزيّة. لكن إن نحن ذهبنا إلى آخر الحديقة باتّجاه الجبل، وخرجنا إلى الطريق المعبّد، فسرعان ما نجد أنفسنا مقابل حاجز ممرّ مغلق، عليه عمود علّقت عليه لافتة، كتب عليها خطر، مع توصية بعدم التقدّم وراء الحاجز نحو الغابة.

أعتقد أنّ الخطر الذي تشير إليه اللافتة، هو أساساً خطر الفيلة التي ما زالت تعيش بأعداد كبيرة في الغابة. لكن لا يمكن إلّا أن نجري

مقارنة بين وضع الفندق الأوروبّيّ، المعلّق بشرفاته على جوانب جبل كينيا الضخم، وبين الثلاثين ألف مستوطن، الذين توهّموا لفترة ما، أنّ بوسعهم السيطرة بطريقة عنصريّة على مليون ونصف من الكيكويو. ربّما كان بوسع محاولة استرقاق مماثلة أن تنجح خلال أزمان أخرى، لكنّها لا يمكن لها أن تفلح اليوم. بل من الواضح إنّ مطامع المستوطنين تلك، تلقى عداوة في إنكلترا قبل أفريقيا. وهكذا فإنّ الماوماو تمكّنوا بكلّ وحشيّتهم وفي سنين قليلة من الحصول على ما لم تتمكّن شعوب مستعمرَة أخرى من الحصول عليه خلال قرون.

الصليب فوق أفريقيا

أوجيجي، كانون الثاني 1969

تتقدّم السيّارة ببطء على طريق أحمر، حمرته كحمرة النزيف الرطب الشاحب، كما لو أنّ أحجار الطريق مخلوطة بالدم. نعبر قطعة الأرض المزروعة، التي تمتدّ بين المرتفعات وبحيرة تنجانيقا. كانت الحقول والسهول والحدائق مغطّاة كلّها بخضرة إسفنجيّة برّاقة، كما تتدلّى هنا وهناك وسط الهراء بالونات غامقة اللون، هي ثمرات المانغو. إنّها الزراعات الأولى التي صادفناها بعد يومين من السير عبر أحراج المرتفعات. يعتبر هذا الجانب من تنزانيا على الحدود مع بورندي، برّيّاً متوحّشاً، ليس بالجميل ولا بالغريب. بل إنّنا فكّرنا، ونحن في بعض أطراف هذه الأحراج، بمقارنتها مع بعض أحراج الآبنين. ولم يذكّرنا أنّنا في أفريقيا، إلّا ذلك الضوء الفجّ الرائع، الذي يعمي الأبصار، وخاصّة بعد عواصف المطر.

ها هي بحيرة تنجانيقا تظهر فجأة بين هضبتين، فتوسّعهما وتقسمهما، قبل أن تمتدّ حتّى تغزو الآفاق. تبدو سوداء تحت سقف من الغيوم السود في موسم المطر. لا يمكن أن تُرى حدودٌ لمياهها المقفرة (فطول بحيرة تنجانيقا وعرضها هما بمقدار البحر الأدرياتيكي تقريباً)، لكنّها تبقى مجرّد بحيرة لأنّه لا يبدو فيها بأيّ شكل الاضطراب المعروف عن البحر، وطلاقة البحر، وترامي أطرافه. لا بل إنّها، والحقّ يقال، توحي بشيء من أحاسيس الرهبة التي تثيرها الأماكن المغلقة.

الحقيقة أنّ بحيرة تنجانيقا هي سرّة أفريقيا، سرّة بعمق ألف وخمس مئة متر، مغلقة في بطن القارّة، بعيدة لأيّام سفر كثيرة، على طرقات بعيدة عن المحيط الهنديّ كما عن المحيط الأطلسيّ. تستخدم لتخفيف الإحساس بالطريق المسدود، وعبور البحيرة للوصول إلى الشاطئ المقابل. هناك يوجد الكونغو، وأحراج أخرى فارغة، وأراض أخرى بلون الدم.

تقول إحدى الأساطير المحلّيّة إنّ بحيرة تنجانيقا، كانت في الأصل مجرّد بئر صغيرة عميقة يملكها زوج وزوجته. ملأت الآلهة هذه البئر بأسماك شهيّة، على أن يبقى الأمر سرّاً يجب ألّا يعرفه أحد. اتّخذت الزوجة لها عشيقاً وأخبرته بالسمك، بل وقدّمت له طعاماً منه. هنا غضبت الآلهة، فأترعت البئر حتّى فاضت، وغرق فيها الزوج والزوجة والعشيق، وبقيت البئر تفيض حتّى صارت بحيرة تنجانيقا، ثالث بحيرة في العالم. قد يرى البعض في هذه الأسطورة عنصراً بنيويّاً يتعلّق بالسرّ، وبفضح النساء له. أمّا أنا فأرى فيها، قبل كلّ شيء، البؤس الأفريقيّ. ومن يدري؟ فقد يكون هذانِ الزوجان هما أوّل قبيلة بانتو تطلّ على هذه البحيرة الغنيّة بأسماك الصيد (يقول الخبراء إنّ البحيرة تحتوي على مئة وستّة وأربعين صنفاً من الأسماك). ويمكن أن تكون هذه القبيلة التي أدركت مدى غناها، أرادت أن تحفظ سرّ هذه الثروة السمكيّة. لكنّ قدوم قبيلة أخرى إلى المنطقة أدّى إلى هتك ذلك السرّ وإشاعته.

ها هي أوجيجي. هنا، وفق تاريخنا (نحن الأوروبّيّين) وفي 10 تشرين الثاني 1871 تقابل الدكتور ليفنغستون، وهو مريض ومحمول على المحفّة من قبل عبيده الزنوج المخلصين، مع ستانلي مبعوثاً من قبل بينيت مدير نيويورك هيرالد، والذي كان يبحث عن المبشّر. في أوجيجي جرى ذلك الحوار الشهير المضحك السخيف (السخافة المعروفة عن الرفعة والسموّ الفيكتوريّ) بين الرجلين من الرحّالة المستكشفين:

- أحسب أنّك الدكتور ليفنغستون؟

-أجل.

- أحمد الله لأنّه أذن لي برؤيتك.

- وأنا ممتنّ لك لأنّك جئت إلى هنا، فمرحباً بك.

قرأت عن هذه اللقاء والحديث، في كتاب كبير كنت أطالعه في صباي، اسمه «البحث عن منابع النيل» والذي كان مزيّناً بالعديد من الصور المحفورة التي أخذت في صدر غابة شبه عذراء. والحقيقة أنّ المكان مختلف جدّاً. حادت السيّارة عن الطريق وسارت على درب جانبيّ، بين صفّين من الأكواخ المربّعة المصنوعة من الطين الجافّ بلون الشوكولاته، والمسقوفة بالصفيح الصدئ. هبطت السيّارة وهي تهتزّ بسبب انزلاقات الطريق، التي تبدو عند مرسى البحيرة، كأنها مهد سيلٍ، حيث يشاهد الرصيف وبعض القوارب الراسية بين القصب. لكنّها لا تصل إلى المرفأ، بل تقف فجأة على مسطّح مستوٍ صغير. الغريب أنّه تمّ في هذا المكان، المهلهل المجهول، رفع نصب صغير، هو عبارة عن نوع من الهرم المقطوع، المصنوع من قطع بلون بنّي فاتح. نقش على إحدى حوافّ الهرم نحتٌ بارز يصوّر القارّة الأفريقيّة، بصورة بليدة ضخمة، وشبيهة جدّاً بحيوانها البليد الضخم، أي وحيد القرن. كما رسم فوق نقش القارّة، وبشكل يكاد يغطيها، صليب مسيحيّ بارز أسود كبير، تصل أطرافه إلى طرابلس في الأعلى، وإلى كيب تاون في الجنوب.

انحنيت فقرأت على الشاهد: «هنا كانت تنتصب شجرة المانغو التي تقابَل تحتها في 10 تشرين الثاني 1871 كلّ من هنري مورتون ستانلي مع الدكتور دافيد ليفنغستون». نظرت حولي، فوجدت أنّه عليَّ أن أقول إنّ الأفارقة لا يعلّقون على ذلك اللقاء تلك الأهميّة التي يعلّقها عليه الأوروبّيون. فها هي تنتشر في هذا المكان بالذات، فضلاتٌ يحومُ فوقها الذباب الأسود والأزرق والأخضر. والأعشاب قذرة ومهروسة من الدوس. وهناك حشد من الأطفال شبه العراة وجوههم مذهولة، وكانوا ينظرون إلينا بتوجّس ودهشة.

ليسوا كُثُراً الأوروبّيّون الذين يجيئون إلى أوجيجي. صعدنا إلى السيّارة، ثمّ وصلنا إلى الميناء. كان هناك زورق كبير، مثقوب مليء بالمياه الآسنة، مرميّ بين الأعشاب العالية. كان هناك بعض السفن المحفورة في جذوع الشجر، وهناك صيّادون، ما إن رأوا آلات التصوير معنا، حتّى قاموا بإشارات الاستهجان وبالحركات المتوعّدة. صوّرنا البحيرة بأقصابها الخضر الناعمة، وكانت تحلّق فوق مياهها بعض طيور النحام، فبدت لنا في برهة معيّنة كأنّها لوحة صينيّة قديمة. انصرفنا بعد ذلك. وداعاً أوجيجي.

لكنّ الصليب المسيحيّ، الذي وضعوه بكلّ ثقة، فوق عموم القارّة الأفريقيّة، بدأ يحرّك الأفكار. ليس هذا إلّا رمزاً غير دقيق الدلالة، فالديانة المسيحيّة، ولأنّها ديانة الغزاة الأوروبّيّين، لم تتمكّن البتّة من الاستيلاء على أفريقيا. بل يبدو أنّ التقدّم الكبير إنّما حقّقه الإسلام رغم أنّه دين العرب، أي الجلّادين التقليديّين لشعوب أفريقيا. غير أنّ الإسلام هو دين أبسط من المسيحيّة. والعلاقة فيه أكثر مباشرة مع الله، ولا حاجة لأيّ وسيط. كما أنّ الإسلام «ثابت» بينما المسيحيّة «تتحرّك». لم تفعل منذ البداية سوى «التحرّك». وهكذا فإنّ الإسلام بقي ديناً بالمعنى التقليديّ للدين، وقادراً لهذا على جلب الأفارقة أكثر من المسيحيّة، التي انقلبت إلى مجرّد فلسفة أخلاقيّة. لكن ليست هذه النقطة التي تدور حولها تأمّلاتي. فالمسألة الكبيرة هي باختصار: هل يجب «اكتشاف» أفريقيا؟ ثمّ ما هو المعنى الحقيقيّ لفعل «اكتشف»؟ فلننظر قليلاً. هناك باحث «يكتشف» نصّاً قديماً خلال مجرى دراساته، وبعد بحث مضنٍ وطويل، وهناك بعدها طلائعيّ «يكتشف» كتاب أوليس لجويس بعد ثلاثين سنة من الطبعة الأصليّة، وذلك بفضل ترجمة الكتاب التي صدرت مؤخّراً. يبقى الأوّل شخصاً متواضعاً، يدرس ويبحث ويغرق في عمله وفي الكتاب الذي يقرؤه، أمّا الثاني فهو متغطرس مغرور، لأنّه عندما «اكتشف» جويس، توهّم أنّه هو الذي أوجده، وهو الذي اخترعه وهكذا

فإنّه، بدلاً من اكتشافه، فإنّه طمسه وأخفاه. ومن هنا فإنّ «اكتشاف» أفريقيا ينتمي لهذه الفئة الثانية. فما الذي «اكتشفه» في الواقع مكتشفو القرن الثامن عشر؟ لا شيء أفريقيّاً، في الحقيقة (عدا ربّما تحديد الأماكن). عند هذا الحدّ يمكننا حتّى التأكيد أنّ المكتشفين «غطّوا» أفريقيا بدلاً من أن «يكشفوها». غطّوها بـ «حضارة» أوروبّيّة وذلك، ليعطوا الفرصة للذين جاؤوا بعدهم من جنرالات ومغامرين ورجال أعمال وتجّار، كي يغزوا تلك القارّة البائسة، ويحتلّوها ويخضعوها ويقتسموها، من غير وازع ضمير، ومن غير شعور بالذنب.

لكنّنا أصبحنا اليوم ندرك أنّ «اكتشاف» أفريقيا كان في الحقيقة دفعة بيولوجيّة ساذجة، لا يمكن مقاومتها. كانت تعتمل في قلب الشعوب القويّة ضدّ الشعوب الأضعف. لكنّ الصدمة حدثت بشكل لا يمكن إصلاحه. ولا نرى سبباً لاعتبار التوسّع الأوروبّيّ في أفريقيا خلال القرن الثامن عشر أمراً إيجابيّاً في نهاية الأمر، بينما يتمّ شجب الغزوات الهمجيّة في أوائل العصور الوسطى أو تسلّط المسلمين على الهند. الحقيقة أنّ هذا التوسّع شكّل كسراً مؤلماً وإدخالاً وحشيّاً لجسد غريب، وتدخّلاً فتّاكاً مهّد على الأرجح إلى انحراف نهائيّ.

كان يجب إعطاء أفريقيا بعض الوقت. كان يجب تمكين الثقافة القبليّة، الواسعة جدّاً، والمجزّأة جدّاً في الوقت نفسه، كي تنظّم نفسها على صعيد قـارّيّ، وألّا تجد نفسها مجبرة على الانحباس بصور اصطناعيّة، ضمن حدود تعسّفيّة لبلدان خياليّة، لم يكن لها أيّ وجود في السابق، أقيمت وفقاً للنموذج الأوروبّيّ، وما تبع ذلك من آلام تخصّ ذلك النموذج، من مركزية بيروقراطيّة، قوميّة متعصّبة، جيوش، حدود، جمارك، شرطة، وهكذا إلخ. وكما قال مرّة يوليوس نيريري رئيس تنزانيا: « تنجانيقا هي بلد مصطنع كلّيّة. لدينا مئة وعشر قبائل، وبوسعنا أن نمتلك أقلّ أو أكثر. لكنّي لم أفهم البتّة كيف يمكن عند نقطة معيّنة أن يكفّ الناس عن أن يكونوا تنجانيقيّين ليصبحوا كينيّين أو كونغوليّين

أو أوغنديّين». ونضيف أنّه ليس من المؤكّد أيضاً أنّ هذا الحلّ العابر لأفريقيا هو الحلّ السليم. كلّ شيء مضطرب، مخادع، غامض وملفوف بضبابِ ألفِ صعوبةٍ كبيرةٍ، ومن جميع الأنواع.

الشيء الوحيد الأكيد هو أنّ أفريقيا متكاملةً هي الآن حالة هائجة، متفجرة وفوّارة.

أسمال وبزّات

كيغوما، شباط 1969

إنّه المساء. وقت حلول الظلام في كيغوما. ذهبتُ لأجلس في شرفة الفندق، وهو مركز الحياة الاجتماعيّة في المدينة، على كرسيّ في مجموعة من ثلاث أو أربع مجموعات من الكراسي الصدئة، والطاولات المخروطيّة التي تشكّل أثاثها. تمتدّ الشرفة فوق الطريق، بشكل يسمح لي بالحصول على رؤية شاملة لكيغوما، أكبر مركز مدنيّ لمنطقة شاسعة، لكنها خالية من السكّان، تحمل الاسم نفسه وتمتدّ على طول بحيرة تنجانيقا. أجل، إنّ كيغوما كلّها هنا، في هذا النوع من الشارع الرئيس أو درب المدينة، عبارة عن صفّين من البيوت ذات الطابق الواحد، مصطفّة على طرفي الطريق، تحت ظلّ حارّ تلقيه أشجار مانغو ضخمة ذات أوراق متشابكة قاتمة. كما توجد هنا البنوك والمكاتب والمحلّات والأماكن العامّة، كلّها في هذه الأجنحة ذات الأروقة الممسوخة والجدران الملوّنة بلون أخضر عشبيّ، أو أزرق نيليّ أو أصفر كناري. وهي الألوان التي يحسبها المرء، من كثرة انتشارها، الألوان الوحيدة الموجودة في هذه الأنحاء من أفريقيا. يبدأ درب كيغوما من ساحة المحطّة لينتهي بعد حوالي خمس مئة متر في ساحة السوق. كيغوما هي مدينة منعزلة تحيط بها الوحدة وانعدام المواصلات. فالقطار الذي يصل إلى دار السلام في مدّة ثلاثة أيّام لا يعمل للأسف إلّا مرّة واحدة كلّ ثلاثة أسابيع، بينما هي أسبوعيّة السفينة التي تصل بين كيغوما

وألبرت فيل على الشاطئ المقابل، وذلك بعد اجتياز خمسين كيلومتراً عبر البحيرة. هناك بالطبع طرق السفر، لكنّها تجبر على التوقّف وسطياً كلّ عشرين أو ثلاثين كيلومتراً، كما يمكن للمسافر أن يسير ليومين متتاليين من غير أن يجد فندقاً. أمّا الطائرات فهناك مطار قرب أوجيجي، لكن لا توجد شركة طيران واحدة تستخدمه. هذا ما يفسّر مظهر كيغوما «المؤرَّخ» على أساس أنّها بلدة تعود إلى أزمان الاستعمار الأوّل، التي كانت بطلتها في هذه الحال ألمانيا الغوليلميّة.

نيروبي عاصمة كينيا، كامبالا عاصمة أوغندا. مدينتان صغيرتان حديثتان، نظيفتان وبرّاقتان لا يبلوان إلّا حسناً حتّى في كاليفورنيا. فهما من الإبداعات المدهشة التي تمخّض عنهما الاستعمار الجديد، أو بالأحرى الرأسماليّة الجديدة. أمّا في كيغوما فما زال يسود جوّ أفريقيا التي يمكن تسميتها بـ «الغامضة»، أي المتخلّفة حتماً والبائسة، أفريقيا ليفنغستون الذي أراد أن يحوّل الأفارقة إلى المسيحيّة، وأفريقيا جنرالات بسمارك الذين كانوا يبيدونهم لأنّهم رفضوا بركات الثقافة الألمانيّة. كيغوما هي Far West أو الغرب الأقصى بالنسبة لتنزانيا، كما أنّ طبيعتها كـ «حدود» تبدو واضحة في المحلّات المملوكة كلّيّة لهنود. فليس لهذه المحلّات واجهات نظيفة ولا تعرض فيها البضائع بطريقة منطقيّة، وليس هناك محلّات «متخصّصة» إذا صحّ القول، التي يباع فيها نوع واحد من البضائع، كما هو الأمر في نيروبي وفي كمبالا، بل دكاكين تعيسة يوجد فيها كلّ شيء، كما هو الأمر في مخازن البقّالة في الغرب الأميركيّ، أي من الأدوية إلى الأقمشة، ومن أدوات الحدادة إلى القبّعات، ومن العطور إلى الملابس الجاهزة. ولا حاجة بالطبع لكثير من الخيال كي يفهم المرء أنّ هذه الخانات المظلمة تضخّ كلّ أموال المنطقة. وأكثر ما يبرهن على هذا الأمر، وجود تلك الشاليهات الكثيرة والفاخرة جدّاً، التي بناها الهنود، ملّاك هذه الدكاكين، على التلال المطلّة على البحيرة، خلف كيغوما.

والآن، بما أنّ الوقت في الظهيرة أصبح متأخّراً، فقد أغلقت المحلّات، وبدأ التجّار يسيرون جيئة وذهاباً على طريق كيغوما الرئيسة. هذه ساعة التنزّه والتمشّي، كما هو الأمر في إيطاليا بل وبصورة عامّة، في كلّ البلدان ذات الطقس المعتدل. لا بُدَّ أنّ للمنظر أهميّته، على الأقلّ لأنّه يُوضّح تكوين المدينة الاجتماعيّ. فالمتنزّهون كلّهم هنود، أي إنّ كلّ البرجوازيّة في المدينة هي من الهنود. هناك رجال بدينون ملتحون يرتدون ملابس بيضاً، معمّمون، وهناك شبّان نحيلون يرتدون قمصاناً طويلة قاتمة الألوان ولها ياقات مضمومة. هناك إلى جانبهم نسوة، مثل يرقات بعيون ضخمة، يسرن ملفوفات في خمر الساري الدخانيّة، ألوانها بين الكوارتز الأرجوانيّ، والأزرق الليلكيّ، والرماديّ اللؤلئيّ. تتمشّى هذه البرجوازيّة الدكاكينيّة ببطء ووقار، مسرورة وهي تتلذّذ بنسيم المساء (رغم الحرّ الخانق) وباسترخاء استحقّته بعد عناء النهار وتوتّراته. كلّهم هنود، ولا يوجد ظلّ من الأفارقة. لأنّ من يريد أن يشاهد الأفارقة فعليه أن ينهض باكراً في الصباح، ليستعرض صفوف البروليتاريّين، وهم في طريقهم إلى أعمالهم في الميناء، في المحطّة، في ورشات البناء، في معامل السكّر الصغيرة وحبال السيسال. أمّا في المساء فيتمشّى الأفارقة بوقار وبطء، وهم يرتدون ثياب العيد. لكنّهم يسرعون في الصباح بأقدام حافية، يرتدون أسمالاً بالية، وبوجوه قلقة غارقة في همّ ضرورة احترام الموعد، والخوف من الوصول متأخّرين. وتستحقّ طريقة ثياب هذه البروليتاريّة الأفريقيّة دراسة متعمّقة، وخاصّة ذلك النوع من الكنزات والقمصان الداخليّة التي يرتديها هؤلاء الرجال فوق السراويل البالية. لبعض هاته الكنزات طابع رمزيّ بصورة تامّة، لما فيها من ثقوب كثيرة ولضآلة قماشها السليم. لنتخيّل البروليتاريّ الذي ينهض وهو داخل كوخه الفارغ العاري (لا تحتوي الأكواخ إلّا على حصيرة للنوم وبعض السلال التي تجمع بها الحاجيّات الضروريّة) ثمّ يرتدي قميصه الداخليّ الرائع. يوجد في ظهر هذا الثوب ثقب كبير بحجم الظهر نفسه، وفي الأمام ثقوب أخرى كثيرة تكشف أكثر ممّا تغطّي. فماذا يفعل البروليتاريّ

كي لا يخطئ في اختيار الثقب المناسب؟ ولماذا يرتدي أصلاً مثل هذا القميص؟ بماذا يفيده؟

لا يتواصل الأفارقة والهنود، ولا يتناولون الطعام سويّة، ولا يتزاوجون فيما بينهم. فالهنود عنصريّون، وليس حديثاً، بل منذ آلاف السنين. وليس بصورة فرديّة أو بطريقة عرضيّة، بل على أساس نظام اجتماعيّ قديم، لهذا لا يصعب تخيّل ماذا يظنّون بالأفارقة. أمّا هؤلاء فموقفهم معقّد. ولا يصف هذا التعقيد أفضل من الحكم الذي أطلقه على الأثرياء الهنود، شخصٌ أفريقيٌّ بائسٌ فقير، يرتدي الأسمال، حين قال: «ليسوا أذكياء». ليس في هذا الحكم حقد سياسيّ أو طبقيّ بمقدار ما فيه من اختلاف في فهم الحياة ورؤية العالم.

كان الاستعمار يكرّر بخبث في تنزانيا، هيكليّة الكاستا[1] العنصريّة التي بناها في الهند. تسمّى كلمة كاستا في الهند «فارنا»[2] والتي تعني أيضاً لون، أي لون الجلد. فلقد بدأت في تنزانيا، كما في الهند، ولو بطريقة مبسّطة، بدأت عمليّة التوحّد بين الوظيفة الاجتماعيّة وبين لون الجلد. ففي القمّة، أي على كرسيّ السلطة، هناك الأوروبّيّون، وأوّلهم الألمان ثمّ الإنكليز لاحقاً، وهم بيض، شقر، بعيون زرق. وهناك تحتهم التجّار والوسطاء من هنود وعرب ومشرقيّين، وهؤلاء ليسوا بيضاً، لكنّهم ليسوا سوداً أيضاً. لقد نسفت الحركة القوميّة الأفريقيّة هذا النوع من الأبارثيد[3] الليبراليّ، والذي لم يكن أقلّ عنصريّة من الأبارثيد الذي ساد في جنوب أفريقيا.

لكنّ الحركة القوميّة لم يكن بوسعها التخلّص من عنصريّة كاستا لولا الاشتراكيّة. وهنا يظهر الفرق بين الاشتراكيّة الأوروبّيّة وبين تلك

1- Casta تعبير إسبانيّ الأصل وجد ليصف نسل أشخاص من زيجات مختلطة في أميركا الإسبانيّة، أي من البيض الأوروبّيّين والهنود المحلّيين والأفارقة الزنوج. (م)

2- Varṇa كلمة سنسكريتيّة تعني نوع أو طبقة أو لون. (م)

3- Apartheid هو نظام ساد في جنوب أفريقيا بين 1948 و1994 وكان قائماً على التمييز العنصريّ. (م)

الأفريقيّة. ففي أوروبّا كانت الاشتراكيّة أمميّة على الدوام، بينما هي تقدّم في أفريقيا المحتوى الضروريّ للقوميّة، التي لا يمكن لها بدون هذا المحتوى، إلّا أن تصبح وسيلة في يد الاستعمار الجديد. بل إنّها أصبحت كذلك في بعض الحالات.

تمّ التصدّي لأفرقة المجتمع في «ورقة أروشا». ففي هذه البلدة الجميلة من منطقة كليمنجارو، حاول الرئيس يوليوس نيريري أن يقدّم من خلال تلك الورقة تبريراً أيديولوجيّاً للعديد من تدابير تأميم البنوك، والصادرات-الواردات، وشركات التأمين وهكذا دواليك. وعلى الهنود محتكري التجارة أن ينصرفوا جماعات وفرادى من حينها وحتّى عام 1972 وما بعد ذلك، كما حدث في كينيا.

يقول المحامي آتزيكّا غاربولي بصورة واضحة عن المراسيم المضادّة: «لبناء الاشتراكيّة يجب أن يكون العمّال والفلّاحون في السلطة، وأن يشرفوا على وسائل الإنتاج». لكنّه يجب أن نرى فيما إذا كانت تلك الورقة التي تلحظ أيضاً تأميم الأراضي، وإعادة تنظيم الاقتصاد الريفيّ على أسس تعاونيّة، مع إنهاء «استغلال المدن للأرياف»، أقول إنّه يجب أن نرى فيما إذا كانت تلك الإصلاحات ستنفّذ من أسفل القاعدة، وبتدريج وتعميق مزيد من الوعي الاجتماعيّ والسياسيّ، أو من الأعلى أي باللجوء إلى الأساليب الاستبداديّة المعتادة، التي تتّبعها الحكومات التي تعتمد على الحزب الواحد. ومن المعروف أنّ الحزب الواحد موجود في تنزانيا، وهو اتّحاد تنجانيقا القوميّ الإفريقي.

لكن يبدو أنّ يوليوس نيريري، رئيس تنزانيا المثقّف والحديث، يريد أن يسير بالطرق الديموقراطيّة. وقد تمّ في تنزانيا خلال السنوات الأربع الأخيرة إصدار أربعة دساتير. بالطبع، إذا كانت الديموقراطيّة ستتحقّق هناك فإنّها ستكون ذات طابع اشتراكيّ، و«صينيّ» في بعض نواحيه، أي محدّثاً على أساس نموذج الثورة الثقافيّة، ولو بصورة أقلّ صلابة وأخفّ من الناحية الأيديولوجيّة ممّا هو الأمر في الصين. فالحرس الصينيّ الأحمر

سيصبح هنا حرساً أخضر، كما سيصبح اسم الاشتراكيّة أوياما، أي أخوّة، أمّا يوليوس نيريري، رئيس تنزانيا الكاريزماتيّ فسيدعى بلقب عاطفيّ هو موالامو، أي «معلّم المدرسة». أي إنّنا لسنا بعيدين عن ماو، أو على الأقلّ عن ماو الأبويّ والتعليميّ الذي طرحته الثورة الثقافيّة في الصين.

لقد قيل إنّ الخطر يكمن في الاستبداد القمعيّ والعسكريّ الذي تتعرّض له، لأسباب تاريخيّة وإثنيّة عرقيّة، جميع الأمم الأفريقيّة الناشئة. فهناك في تنزانيا على سبيل المثال قوى شرطة ترتدي أحسن البزّات وهي من أشدّ القوى فعّاليّة وأكثرها احتراماً في كلّ أفريقيا. وفي الواقع فقد رأيت في أبعد القرى، وبين حشود شبه عارية، تسير وسط غبار الأسواق والذباب، رأيت رجال شرطة بملابس شبيهة بملابس كبار الضبّاط الإنكليز، بزّاتهم نظيفة مكويّة بل ومنشّاة أيضاً. ذلك أنّهم يمثّلون أمراً أكبر من النظام، أي الدولة، وهم يعرفون ذلك. أذكر هنا زيارة إلى مخفر في بلدة نائية، من أجل مراقبة جوازات سفرنا. كانت الغرف نظيفة ومهوّاة، الرفوف مليئة بمصنّفات مرتّبة بنظام تامّ. كانت هناك أيضاً بعض النساء في بزّات عسكريّة يرتدين سترات فاتحة وتنّورات سود، وكان هناك العديد من رجال الشرطة، يتقنون جميعهم الإنكليزيّة، ويبدو أنّهم قد توصّلوا إلى المعادلة السليمة التي تجمع بين الكياسة البيروقراطيّة وبين القسوة العسكريّة. الغرفة الأولى كان فيها زاوية يحتلّها قفص حديديّ. كان هناك داخل القفص سجين واحد تمّ احتجازه للتوّ، وكان يقف على قدميه وهو متمسّك بقضبان الحديد، كان على الأرجح مجرّد لصّ صغير، فتى عمره أقلّ من عشرين سنة على الأرجح، كان ينظر إلينا بعينين واسعتين، لونهما أبيض وأسود وبتعابير الأسى. لا بُدَّ أنّه كان مستاء لأنّه لا يعرف سبب وجوده هناك. إنّه يمثّل أفريقيا البريئة حتّى إذا كانت مجرمة، والمندهشة حتّى إذا كانت خبيثة، أفريقيا التي وجدت نفسها غارقة على حين غرّة في الحضارة الحديثة، تجاه أوثان جديدة هي القمع والتربية والفعّاليّة والقوميّة.

نهاية ما قبل التاريخ

نغورونغورو، شباط 1969

ترّجلنا من السيّارة عندما توقّفت على فسحة مستوية، بعد أن مرّت بسلسلة من المنعطفات على طريق صاعدة صعوداً قاسياً عبر غابة، تختلط فيها أشجار استوائيّة مع أشجار شبيهة، ويا للغرابة، بأشجار صنوبر جبال الألب. كان الهواء بارداً نقيّاً، وتنفتح أمامنا خلفيّة مضيئة بعيدة خياليّة. نظرنا. إنّه وادٍ شاسع مترامي الأطراف، خضرته شاحبة وكأنها جرداء، ضبابيّة. وادٍ مقفر مع أنّه معشوشب، وهناك في آخره عين زرقاء: إنّها بحيرة. ليس الوادي مثل غيره من الوديان، لأنّه لا يوجد في العادة حدود للوديان الأفريقيّة، بل يبدو أنّها تتجاوز الأفق. أمّا هنا فإنّ النظر، بعد أن يتعدّى الفسحة المعشوشبة، فإنّه يصطدم فجأة بجدار أخضر هو الآخر، وخياليّ. يصعد النظر على طول هذا الجدار ويصل إلى طرفه، يتبعه ليكتشف عندها أنّ الوادي ليس وادياً، بل فوهة بركان خامد. إنّه نغورونغورو أحد أكبر براكين العالم، وهو في الوقت نفسه حديقة حيوان، بل، وكما نسمّيه هنا، معبداً مقدّساً لحيوانات الفاونا البرّيّة الأفريقيّة.

بعدها نزلت السيّارة، وهي تهتزّ فوق حصى الطريق وحفره، وتوجّهت نحو فوهة البركان. فرأينا أنّ هذه قد اتّسعت وتعمّقت، كما ارتفعت الجدران المعشوشبة قبل أن تبتعد، وانتشر السهل في كلّ الجهات. إنّها واسعة بشكل يمكن من النظرة الأولى إدراك كيف

يمكن لنوعيّات مختلفة من الحيوانات، أن تعيش هناك جنباً إلى جنب، وهي تتجاهل بعضها بعضاً. ها هو قطيع من حمر الوحش، الحيوانات مخطّطة بشكل صارخ بالأبيض والأسود، تبدو وكأنّها مدهونة. لكنّ هذا التمويه يبدو غير مجدٍ في مكان مكشوف مثل هذا المكان. يجتاز القطيع الطريق ببطء، الحيوانات كبيرة، مستديرة، ضخمة. كأنّها براميل مخطّطة، ولها رأس وأربع قوائم. لقد دهنتها الطبيعة بكلّ دقّة، فترى أنّ خطوط الشرائط على الأرباع الخلفيّة لا تتوافق مع تلك الموجودة على الذنب. على مقربة منها كان هناك قطيع من الغزلان، فزع من السيّارة فبدأ يتواثب بقفزات جانبيّة، حتّى ليقال إنّ نوابض خفيّة هي التي تدفع تلك الحيوانات الصغيرة لتقفز إلى الأعلى. تحيد السيّارة عن الطريق، وتدخل عبر أرض مغمورة بالمياه، تبدو مسودّة بين السهول الخضر المرتفعة. نرى بعدها برّاً واضح اللون مضيئاً، ألبيّاً[1]، مغموراً بالضياء. ثمّ أشار لنا الدليل ببقعة صغيرة قاتمة اللون وبعيدة، لكنّ شكلها غريب وثقيل بشكل واضح: إنّه وحيد قرن، أو بالأحرى إنّه وحيد القرن، لأننا لم نعد نرى منه أكثر من واحد، وندرته تجعلنا نفكّر أنّه هو الوحيد الذي تبقّى من هذا النوع. إنّه يرعى بهدوء وطمأنينة، يبحث بفمه عن العشب على الأرض، بينما يهدّد بقرنه السماء.

نتقدّم إلى الأمام، فنجد أنّ نصف فوهة البركان أصبحت في الشمس، بينما نصفها الآخر في الظلّ، لأنّ غيمة جاءت فجأة، وهي تنذر بالعاصفة. هناك من الجانب المشمس ضوء باهر، بينما بدأت في جانب الظلّ خطوط المطر تحجب خضرة فوهة البركان. لكنّ الحيوانات لم تلحظ المطر. وها هو منظر مثير مثل منظر وحيد القرن: ثلاث أو أربع بقع سود، تكاد تبرز من بين الأعشاب المرتفعة ذات اللون الفاتح. إنّهم جواميس، وهم على ما يقال أخطر حيوانات أفريقيا. وقد حاولت بالفعل أن أقترب منها، لأطيل النظر في تلك القرون السود المسطّحة، المعقوفة نحو

1- نسبة إلى جبال الألب البيضاء. (م)

الأسفل، والتي تحيط برؤوسها، وتشكّل قبّعة من آبنوس فوق عيونها. لكنّ هذا لم يكن ممكناً. فالجاموس حيوان غضوب هائج، يهاجم برأس منخفض وبطريقة غير متوقّعة.

كان رفاقي يريدون بالطبع أن يروا الأسود. أمّا أنا فلست متحمّساً للأسد، لأن هناك منه الكثير في محافل السيرك الأوروبّيّة. كما أنّ الأسد أصبح حيواناً أهليّاً من كثرة ما اعتبروه حيواناً رمزيّاً. ومع أنّه الحيوان الذي يعبّر أكثر من غيره عمّا يسمّى عادة بالنبل، ويجسّد كذلك النبل، سواء في سلوكه أو في شكل رأسه وجسمه، فإنّي أفضّل عليه ذلك الحيوان الخياليّ الغريب، أي الزرافة. كما أنّ الأسد ليس حيوان أفريقيا السوداء النموذجيّ مثل الزرافة. فهو كان يقطن، حتّى قرون قليلة مضت، في ليبيا والجزائر، أي على سواحل البحر الأبيض المتوسّط. وهذا مستبعد عن الزرافة كما عن الحيوان الأسطوريّ وحيد القرن. وحتّى اليوم، إذا ما رأى أحدنا في صدر بعض السهوب الشاحبة التي يلتهمها الضوء، أشياء تشبه إشارات التعجّب، معلّقة بين السماء والأرض، ورأى أعناق الزرافات الطويلة (وهي تلتفت دائماً بوجوهها نحو الجهة المعاكسة لجسمها)، إذا رأى - أقول - مجموعة زرافات ثابتة في خطّ الأفق، فليعلم إذن أنّه موجود حتماً في أفريقيا.

بدأنا نبحث عن الأسود ونحن نطوف بطريقة متعرّجة عبر السهوب. لكن ها هو أسد يظهر فجأة. أو بالأحرى لبوة. عبر الطريق، كانت مستلقية تقريباً على ظهرها وهي ترفع قوائمها في الهواء. رأسها ممدّد ومهجور بين العشب، عيناها مغمضتان وبطنها أبيض رخو، كأنّها تشكو من لهاث، لكنّ هناك في أعلى الفخذ ثقباً كبيراً دامياً. لا بُدَّ أنّ اللبوة مجروحة، ربّما جرحها وحيد قرن أو جاموس، من يدري... وهي تسعى بالغريزة لتعالج نفسها بالشمس، أي بتعريض ثقب النطحة لأشعّة الشمس. أطلنا النظر فيها، لأنّها تثير الشفقة، وقد تكون في مرحلة الاحتضار. لكن ها هي ترفع رأسها فجأة ثمّ تتثاءب بطريقة ليس فيها شيء من الألم وتنهض،

تتردّد قبل أن تسير ببطء بين الأعشاب، ثمّ تذهب لتستلقي من جديد على بعد أمتار قليلة.

كان هناك على مسافة قريبة من اللبوة، ومن أسود أخرى من أقربائها المقرّبة، التي لا نراها، كان هناك قطيع صغير من ثيران النيو[1] الغريبة الشكل، فهي ملتحية ولها قرون ومقعد منخفض ورأس مرتفع. وقد تأثّرت من جديد، بالتعايش السلمي بين الأسود، وبين طرائدها الطبيعية المعتادة. فحيوانات النيو وكذلك الزرافات والظباء والغزلان تعرف جميعها أنّ الأسود على مقربة منها، ويعرف هذا أيضاً الرعاةُ العزّل العراة من الماساي الذين يجوبون غير بعيد عنّا حول أبقارهم، لكن لا يبدو أنّ شيئاً من الخوف يعتري تلك الحيوانات أو أولئك البشر. إنّ الخوف في أفريقيا ليس استثناء، بل قاعدة. وبما أنّه قاعدة فإنّه تحوّل إلى معرفة هادئة، وإن كانت محترسة، بالأخطار المحدقة. وهكذا فإنّ حيوانات النيو والزرافات والظباء والغزلان تعرف، وليس بالوعي بل بالغريزة، متى وكيف ولماذا يهجم الأسود. تعرف ذلك جيّداً وبثقة تامّة حتّى إنّها تستطيع أن ترعى رغم أنوف أعدائها. هذا ما أعتقد أنّه يفسّر السلام الغريب الذي يسود في أفريقيا، وحسّ الجلال والصفاء المأساويّ الذي يعمّ المشهد الأفريقيّ.

لكنّه صحيح أيضاً أنّ لهذا المشهد صفة خاصّة جدّاً، لا توجد في أيّة جهة أخرى في العالم. فعلماء الجيولوجيا يقولون إنّ القارّة الأفريقيّة هي أقدم الجميع، أي إنّها الأولى التي طفت من المحيط البدائيّ الأوّليّ، والأولى التي خضعت لعوامل التعرية ونحتها القسريّ. هذا من الممكن، لا بل من المؤكّد. لذلك فإنّنا نرى هنا لوحة كاملة لعالم ما قبل التاريخ، فيها، وقد يقال ليس بالصدفة، إنّ هناك حيوانات برّيّة ترتع في السهول المقفرة الشاسعة، التي تحدّها أحياناً تلال منخفضة على شكل ألواح، وأضواء باهرة تنتشر وسط الصمت العميق. وما كانت تسمّيه البلاغة

1- gnu. (م)

الغرائبيّة[1] الرخيصة السيّئة، ولوقت طويل، «هوى أفريقيا»[2] لم يكن إلّا ذلك الحنين إلى عالم لا يمكن أن يشاهد المرء فيه التاريخ أبداً، بل إلى عالم يسود ما قبل التاريخ في جميع أرجائه، وهو الحنين الذي عرفه كلّ من زار أفريقيا. وإذا كان التاريخ في أوروبّا وفي آسيا لا يثقل على المرء هناك، فإنّه موجود في الهواء، أي في كلّ مكان، إن صحّ التعبير. لذلك فما إن يصل المرء إلى أفريقيا حتّى يشعر بأنّه لا بُدَّ أن يتنفّس الصعداء، وهذا دليل على أنّ الغرب والشرق متخمان بل ومسمّمان بالتاريخ. وهنا فإنّه يمكن لما قبل التاريخ أن يظهر على أنّه ملجأ وعلاج، رغم كلّ أهواله.

لكن إلى حين، على ما يبدو. في طريق العودة من بركان نغورنغورو شعرنا جميعاً بالسرور لأنّنا شاهدنا كثيراً من حيوانات الفاونا الأفريقيّة، مجتمعة كلّها في مكان ضيّق واحد. لكنّه كان علينا أن نشعر بالحزن. فهذه التي تسمّى «معابد مقدّسة» لحيوانات الفاونا الأفريقيّة، والتي تتنشر بقعها الخضر الضئيلة على الخرائط الجغرافيّة، أي هذه الحدائق التي يعيش فيها بحرّيّة (لكن تحت حراسة رجال شرطة الغابات) آلاف من الحيوانات التي لا يزعجها مخلوق، إنّما تنبئ بموت قريب لما قبل التاريخ في أفريقيا، وبانتصار قريب للتاريخ. فبعد عشر أو عشرين سنة على الأكثر، لن تكون أفريقيا ما قبل التاريخ موجودة. وهو أمر بسيط يتعلّق بالتوسّع الماليّ والسكّانيّ. فأفريقيا السمراء هي هضبة مرتفعة بين الألف والألفي متر، وهي قابلة للعيش في جميع أرجائها، كما أنّها صحيّة وخصبة في أغلب الأحيان. أمّا أميركا الشماليّة فقد احتاجت إلى حوالي قرن ونصف من أجل تحويل صحاريها إلى بلاد مكتظّة

1- Exoticism وهي ظاهرة ثقافية تميل إلى تقليد فنون البلدان البعيدة الغريبة وطرق الحياة فيها، وقد تطوّرت على شكل حركة فكريّة اعتباراً من القرن الثامن عشر، كما انتشرت في أوروبّا بعد الفترة الرومانسيّة. (م)

2- mal d'Africa ويقصد بهذا الحنين الذي يشعر به من زار أو عاش في أفريقيا بعد أن يغيب عنها. وقد استعمل الفاشيّون المصطلح للتعبير عن أنشطة التوسّع الاستعماري في أفريقيا. (م)

بالسكّان. لكنّ التحوّل المماثل سيكون من كلّ بدّ أسرع في أفريقيا، وهذا ليس ضرباً من الخيال العلميّ، بل هو توقّعٌ منطقيّ أن نتخيّل أنّه سيتمّ غداً تمهيد الغابات الأفريقيّة بالبلدوزرات، وستتغيّر بالسماد الكيميائيّ، لتصبح أراضي مزروعة، كما سيستعاض عن الأكواخ التي يرتع فيها الذباب والغبار ومسبّبات العدوى، بأبنية إسمنتيّة ومن زجاج وفولاذ، كما أنّ الطرق ستفرش بالإسفلت وستتضاعف حركة الطيران، وباختصار فإنّ الهضبة السوداء، ستتحوّل إلى أمر جميل مذهل وحديث على شكل كاليفورنيا. لقد بدأ مثل هذا التحوّل في أوغندا وفي كينيا. وبانتظار أن يكتمل هذا التحوّل فإنّ معابد الحيوانات هذه، تنبئنا عمّا سيؤول إليه الأمر من إفناء فاونا حيوانات الماضي، أكثر مما تخبرنا عن المحاولات المتأرجحة لإنقاذ فاونا الحيوانات الحاليّة. فتنزانيا مثلاً كانت قبل الاستعمار الألمانيّ معبداً واحداً لا يتجزّأ، وعندما بنى الألمان سكّة الحديد بين دار السلام وكيغوما، من أجل حماية العمّال من جهة، وبسبب ساديّة القنص والصيد من جهة أخرى، فإنّ الأسود التي كانت كثيرة في كلّ أنحاء تنجانيقا أبيدت عن بكرة أبيها، مثل القمل، حسب تعبير أحد الرحّالة الإنكليز في تلك الفترة. وقد حدث الشيء نفسه، بالنسبة للفيلة ووحيدي القرن والجواميس والفهود. خاصّة وأنّ الدول الأفريقيّة الفتيّة أصبحت تعرف، أنّ بوسعها أن تأخذ العملة الصعبة مقابل بيع الفاونا، التي يملكونها، وليس شمس بلادهم فقط. ويحدث الأمر نفسه في مجمّعات السفاري التي بدأت تتكاثر والتي تسمح أصلاً لأيّ ثريّ، من أثرياء شارع مونتِه نابوليونِه[1] أو فيفث آفينو[2]، أن يقتل أيّ فيل أو فهد (لأنّ الأمر يتعلّق فعلاً بعمليّة قتل لا يجازف الصيّاد خلالها بشيء، لكنّه يقضي على الحيوان الذي يصطاده، بكلّ جماله وضخامته

1- via Montenapoleone شارع للتسوّق في مدينة ميلانو الإيطاليّة، ويعتبر من أفخم مناطق التسوّق في أوروبّا. (م)

2- Fifth Avenue شارع الجادّة الخامسة في منطقة منهاتن في نيويورك في الولايات المتّحدة، من أفخم مناطق التسوّق في العالم. (م)

وبراءته). وهكذا إلى أن تتمّ إبادة جميع أفراد النوع الحيوانيّ المعنيّ. وهذا يعني أنّ أفريقيا ستزول إلى الأبد. وهذا ما يظهر واضحاً في التغيّر الذي حصل في التعابير الأفريقيّة بالذات. فقبل قرن من الزمان كان يقال أفريقيا «الغامضة»، أمّا اليوم فيقال بكلّ بساطة أفريقيا «الكئيبة».

جواسيس ومصوّرون

تابورا، شباط 1969

سافرنا متأخّرين جدّاً من موانزا على بحيرة فيكتوريا: كنّا نتوقّع أن يكون موعد السفر عند الساعة التاسعة، لكنّنا لم نتحرّك إلّا في الحادية عشرة. ثمّ إنّنا أخطأنا الطريق بعد أن أصبحنا خارج موانزا، فذهبنا باتّجاه موزوما بدلاً من اتّجاه بيهاراموليو. في زورق بوسيسي (تضاهي مساحة بحيرة فيكتوريا مساحة إيرلندا، لكنّها تصبح في هذا المكان، مجرّد مضيق مستنقعيّ، بعرض نهر البو في شمال إيطاليا) أضعنا ساعتين تحت شمس حارقة ونحن نشاهد عبّارة قديمة غارقة تقريباً، بينما كانت العبّارة الجيّدة موجودة على الطرف الآخر من البحيرة. انتظرنا بعدها أن يصوّر بيير باولو بازوليني على راحته (وكان الفيلم الذي يجب أن يخرجه للتلفزيون الإيطالي هو السبب الرئيس لرحلتي إلى تنزانيا) المناظر الإفريقيّة (من قرى الماساي الدائريّة إلى أشجار الباوباب ذات الضخامة المرعبة، إلى صفوف الحصى الخياليّة الشبيهة بفواكه مانغو ضخمة وضعتها يد أحد العمالقة فوق بعضها بعضاً). وفي النهاية ثُقِب إطارُ السيّارة. وكنّا مسافرين في سيّارتين، إحداهما لاندروفر لا تثقب إطاراتها أبداً لكنّها تسير ببطء، والثانية سيّارة صالون للمدن سريعة لكنّ إطاراتها كثيراً ما تثقب. وهكذا فقد تعرّضت السيّارة أربع مرّات لثقب الدولاب في يوم واحد. هذا إذا لم نحسب تأخّرنا بسبب الفطور، وتوقّفنا من أجل شراء رمح راعٍ من الماساي، ثمّ التوقّف لمشاهدة عبّارة أخرى

صغيرة. كان علينا أن نصل إلى كيبوندو قبل هبوط الليل، لكنّنا وصلنا بعد حلول الظلام. على كلّ كان هناك على خريطة أوتوستراد كيبوندو إشارة تدعو إلى الطمأنينة: أي مربّع في داخله صليب، وهذا يعني دار استراحة مفروشة. أمّا إذا كان المربّع بدون صليب فهذا يعني أنّ دار الاستراحة غير مفروشة.

ها هي إذن كيبوندو. إنّها التاسعة. لكنّ سكّان كيبوندو أصبحوا في السرير، مثلهم مثل جميع الفلّاحين على هذه الأرض. ظهرت البلدة مظلمة ونائمة. قمنا بجولة بين البيوت الصغيرة، وسط طرقات المانغو، فوصلنا إلى فسحة مائلة وغير متناظرة، تحيط بها الأكواخ وينيرها مصباح واحد. هناك في وسطها مضخّة بنزين، وشاحنة مصابيحها مطفأة. لكنّ هناك أثر ضوء يشعّ تحت شقّ باب متجر هنديّ. قرعنا الباب وصرخنا، إلى أن جاؤوا وفتحوا لنا بثياب النوم، ورأينا أنّ المتجر مظلم لكنّ الخلف كان مضاءً، حيث كانت العائلة بكاملها جالسة حول مائدة كبيرة يأكلون طبق الكاري الوطني.

أشعل الهنود أضواء المتجر، وذهب أحدهم ليضخّ البنزين، بينما أخذ الآخرون بالتعامل مع مشترياتنا. إنّ الشراء هو طريقة من طرق الاتّصال: فبعد نهار من الجري عبر الغابات غير المأهولة، بدأنا نشعر بالرغبة في التواصل مع الآخرين، وبالفعل فقد أخذنا نشتري من كلّ شيء، مثل قطنيّات ملوّنة ومرسومة على الطريقة المحلّية، لكنّها مصنوعة في مانشيستر، علب أغذية محفوظة محلّيّة وأجنبيّة، قوارير بيرة دانماركيّة، وويسكي إسكتلندي معبّأ بقوارير سفريّة صغيرة، الأسبرين ومراهم لطرد البعوض، سجائر تنزانيّة سود رفيعة، بل ولعبة تستعمل لإثارة الضحك، أي ثعبان مطّاطي يتحرّك من تلقاء نفسه فيبدو حيّاً.

ملأنا سيّارتينا بالوقود، دفعنا ثمن مشترياتنا وانطلقنا. قمنا بجولة معقولة عبر كيبوندو، حتّى قابلنا رجلاً يسير في الظلام ويحمل حربة صيد علّق فيها سمكة نهريّة ضخمة. دلّنا هذا الرجل بثقة كبيرة على

الطريق، وعندما سلكناها، وجدنا أنفسنا أمام باب مغلق يعلوه الصليب، لربّما كانت كنيسة أو مقرّ بعثة تبشيريّة، أو ربّما حتّى مقبرة، من يدري. عدنا إلى الوراء فرأينا جماعة من عشّاق السهر. توقّفوا وحقّقوا معنا، ثمّ علّقوا على أجوبتنا، بنقاش فيما بينهم، تردّدوا وعادوا فسألونا من نحن، وإلى أين نحن ذاهبون، ومن أين أتينا، ثمّ عادوا ليتناقشوا فيما بينهم. من الواضح أنّهم ليسوا على عجلة من أمرهم، وأنّ وجودنا بينهم كان مناسبة، كيف نسمّيها؟ اجتماعيّة، يجب انتهازها، قدر المستطاع، وسط هذه العزلة التامّة التي تغمر كيبوندو.

وما إن قدّموا لنا في نهاية الأمر المعلومات التي نريدها، وبمزيد من التفاصيل، حتّى انطلقنا بسرعة فائقة، ووصلنا إلى أحد البيوت. انتظرنا لفترة طويلة، ربّما لربع ساعة. في النهاية جاء شابّ أنيق يرتدي كنزة جديدة وسروالاً مكويّاً. بدا له هو أيضاً أنّ وجودنا معه هو مناسبة اجتماعيّة، لذلك فقد تركنا ننتظر، حتّى تمكّن من إكمال هندامه وارتداء أفضل الثياب. كان لطيفاً مؤدّباً، ووائقاً من نفسه، صعد إلى سيارتنا وقادنا إلى خارج كيبوندو عبر هضبة تسلّقناها، ثمّ وسط حديقة ظهر، على ضوء المصابيح، كوخ متداعٍ نوافذه مغلقة، وبابه مخفيّ وراء العرائش. لكنّ حارساً مسنّاً برز من حيث لا نعلم، وفتح بصعوبة باباً يبدو أنّه لم يفتح منذ عدّة سنين. لا توجد كهرباء، لذلك فقد استعملنا مصباحاً محمولاً، فرأينا أنّ الأرض مغبرّة، والجدران قاتمة اللون، في جميع الغرف الثلاث، التي تفوح منها روائح العفن والأماكن المغلقة. أمّا الأثاث، الذي تفاخرت به خريطة الأوتوستراد، فكان عبارة عن سريرين يوجد على أحدهما فراش رقيق، وهناك أيضاً ثلاثة كراسي ومقعد مكسور وطاولة. لا يوجد مطبخ، والحمّام عبارة عن دوش من الإسمنت الرمادي ذي الطابع العسكريّ. جلسنا إلى الطاولة، ونظراً لعدم وجود أدوات طعام، وأطباق وأكواب، فقد بدأنا نأكل، في الظلام تقريباً، ونحن نمسك بأيدينا القطع الدهنيّة من اللحم المحفوظ، ونكرع كذلك من القوارير مباشرة شراب البرتقال

الساخن. ثمّ ذهبنا إلى النوم، بعضنا على السرير، وآخرون على الأرض أو على مقعد السيّارة المركونة في الحديقة.

استيقظنا في الصباح التالي بعظام محطّمة، ونحن مبعثرون في أنحاء الغرف. أنارت الشمس الحادّة، بضوئها البهيّ والطائش في آنٍ، حبّات الغبار على الأرض، كما ظهرت القذارة فوق ألوان الجدران، وبرزت علب المحفوظات المبقورة، والقوارير الفارغة المبعثرة على الطاولة. غادرنا كيبوندو بسرعة ومن غير أن نتناول الفطور، بل احتسينا شراب البرتقال والويسكي. ها نحن من جديد على الطريق الحمراء، الدمويّة، الشبيهة بجرح لا يلتئم، نسير عبر الأدغال المحمومة بالضوء، وبتفرّعات الشجر المتشابكة. سرنا ببطء كي لا تتعرّض الإطارات إلى ثقب جديد. توقّفنا عند سوق صغيرة حسبناها حلبة رقص. كان هناك سور مرتفع، اختلطت وراءه حشود من الناس، كانوا شبه عراة منضمّين إلى بعضهم بعضاً، ثابتين تقريباً في أمكنتهم، الرؤوس قرب الرؤوس، الصدور قرب الصدور، البطون قرب البطون، السيقان قرب السيقان، وكأنّ هذا نوع من حفل كوكتيل وليس سوقاً تجاريّة. كان من الطبيعيّ أن يصوّب بازوليني عدسته، وكان من الطبيعيّ حينها، أيضاً، أن تمثل أمامنا سيارة جيب جاءت من حيث لا ندري. كان الضابط شخصاً طويل القامة نحيلاً جدّاً، رأسه صغير ملتح وشعر لحيته أجعد، أمسك السائقين على طرف وأجرى لهما غسيل دماغ بالسواحليّة. ثمّ عاد وانطلق من غير أن يتنازل ويرمقنا بنظرة واحدة.

فهمنا أنّه لا يسمح بتصوير أشياء يمكن لها أن تقدّم أفكاراً مغلوطة عن الحياة في تنزانيا. عدنا إلى السّيارة وانطلقنا.

ها هي لوحة كتب عليها: كاسولو. إنّه مكان ينكشف في الحال عن فقر مدقع. رأينا ساحة سوق واسعة تتفرّع عنها طرق جانبيّة عديدة. السوق عبارة عن فسحة مغبرّة حامية، كان هناك فيها بضع نساء مسنّات شبه عاريات، يجلسن القرفصاء على الأرض، ويبعن الموز أو قطع لحم

لونها أسود ومغطّاة بالذباب. كان هناك حول الساحة بضعة من الأكواخ المعهودة، وفيها المتاجر الهنديّة المعهودة أيضاً. بعد تجاوز بضعة أكواخ رثّة، تنحسر الطرق ضمن الأدغال. تبدو كاسولو مقفرة، لكن ما إن توقّفت السيّارتان حتّى أحاط بنا حشد أكثره من النساء والأولاد. نظرت إلى البائعات المسنّات فقلت في نفسي إنّ العري الكامل في أفريقيا يشبه إلى حدّ ما القدم الصغيرة في الصين: أي إنّ النساء المسنّات فقط، ممّن ينتمين إلى جيل ما قبل الاستعمار، هنّ اللائي يظهرن نهودهنّ، أمّا الشابّات فيسترن النهود. أمّا بازوليني الذي لم يتّعظ من التحذير الأخير حول ضرورة عدم تصوير مظاهر البلاد غير الحديثة، فقد تنكّب آلة التصوير السينمائيّة وأخذ يصوّر كلّ ما حوله: السوق المهلهلة المغبرّة، المسنّات المقرفصات ذوات النهود الطويلة الشبيهة بالجيوب الفارغة، الكلاب بعظامها الناتئة كأنّها تحلم وهي مستلقية تحت أشعّة الشمس، السلع البائسة، المتسوّلون بأسمالهم البالية، والأطفال العراة. أحاط به الناس، وبدوا مبتسمين، لطفاء، سذّج، بسطاء. لكن ها هي عاصفة جليديّة تهبّ فجأة وتقتلع كلّ هذا اللطف وهذا المرح من الجذور. إذ ظهر رجل يرتدي قميصاً أبيض، شديد سواد البشرة لكنّ على وجهه قسمات تكاد تكون قوقازيّة، له شارب كثيف الشعر عسكريّ المظهر، تحت أنفه وعينيه الشرستين. غمرنا الرجل في الحال بصوته المرعد، وهو يصيح بالسواحليّة، بكلمات غير مفهومة، وإن كان من الواضح أنّها مسيئة. تدلّ نظرات الرجل، وقسوته، وتجبّره أنّه رجل عسكريّ سابق، وجنديّ تربّى على أنظمة الجيش الإنكليزيّ. لقد سبق وأن رأيت مثل هذا الشارب، لكن بلون أحمر، فوق شفتي كولونيل بريطانيّ. كان إلى جانبه شابّ بدا أنّه طالب أو مثقّف، قصير القامة، بدين الهيئة، مداهن، مبتسم، غدّار ومليء بالحقد، وقد أخذ هذا يكرّر علينا بإنكليزيّة سليمة ما كان الرجل ذو الشارب يصرخ به بالسواحليّة. فما هو الموضوع باختصار؟ الموضوع هو أنّهم يتّهموننا بأنّنا جواسيس، وأنّنا قمنا بهذه الرحلة الطويلة من روما إلى كاسولو من أجل الجاسوسيّة ضدّ تنزانيا.

هنا انقطع الناس عن الابتسام، وشعرنا بأنّهم ينتقلون من اللطف غير المعقول، إلى كراهية غير معقولة أيضاً. أرعد الرجل ذو الشارب، وأخذ المثقّف يخيفنا بإنكليزيّته، وهنا طرح أحدهم فكرة معقولة وطلب أن نذهب جميعاً إلى المخفر، فنبتعد على الأقلّ عن هذا الحشد الذي بدأ يصبح مهدّداً. انتقلنا من القول إلى الفعل، فخرجنا من الساحة وركبنا في السيّارة ومعنا الذين وجّهوا لنا أصابع الاتّهام. في المخفر استمع ضابط شابّ بدهشة لما حصل، وأخذ يقلّب بين يديه جوازات سفرنا، استمع لشتائم ذي الشارب ولتلميحات المثقّف، وقد بذل خصمانا الاثنان هذان، كلّ ما بوسعهما للتحريض على اعتقالنا، وسجننا، لساعات على أقلّ تقدير، داخل القفص الحديديّ الذي يحتلّ زاوية من زوايا الغرفة، لكنّ وصول المفتّش حوّل الموقف لصالحنا. كان هذا مبتسم الوجه، بيروقراطيّاً وكفؤاً، كان في منتصف العمر، وله وجه لطيف، ما إن ألقى نظرة على جوازات سفرنا، حتى تركنا ننصرف في سبيلنا. وزّعنا السجائر، وصافحنا الجميع بما فيهم خصمانا، ثمّ انطلقنا.

كان لا بُدَّ لي من تأمّل ما حدث، بينما كانت السيّارتان تسيران على الطريق. إنّ تهمة الجاسوسيّة، تكشف في حدّ ذاتها تخلّف هذه النواحي من تنزانيا. بل إنّ هوس التجسّس هو من الهدايا الكثيرة التي خلّفتها الحركة القوميّة. وكان هذا الهوس قد استعر في أوروبّا خلال حرب 1914، وإن كانت الفاشيّة قد حاولت بعد عشرين سنة، ودونما جدوى تذكر، كي تبعثه من جديد بواسطة تلك الإعلانات التي كان يصوّر فيها أحياناً جنديّاً إنكليزيّاً، وهو يوجّه بيده أذنه القرمزيّة الضخمة، ليميل ويتنصّت بها. وهكذا كان، فإنّ ذلك الرجل ذو الشارب وذلك المثقّف، كانا متخلّفين خمسين سنة، وهو تأخرّ مبرّر نظراً للانعزال التامّ الذي تعيش فيه هذه النواحي من أفريقيا.

مسرح أفريقيّ صغير

مكتبة
t.me/t_pdf

دودوما، آذار 1969

كانت تمطر، فذهبت لأجلس في المقهى. كنّا في سبيلنا لترك كيغوما، والحقائب أصبحت جاهزة، كما أنّ القطار الذي ينطلق كلّ ثلاثة أسابيع إلى دودوما سيسافر بعد ساعة. جلست على كرسيّ عالٍ وأخذت أنظر من خلال الزجاج الوسخ إلى الخارج، إلى الرواق حيث كان الخدم منهمكون، بكلّ غرابة، في نشر الثياب لتجفّ تحت المطر. كان المقهى مغموراً بالظلمة، وكان الجوّ حارقاً، طلبت كأس جعة من الجرسون، وهو مدير الفندق أيضاً، رجل هنديّ ذو رأس مخروطيّ على شكل طلقة رصاص، لكن طلقة رصاص لها عينان جميلتان، بل رائعتان بلون أسود برّاق، ومائلتان نحو الأسفل، في تعبير مؤثّر دائم عن الحزن. كان هذا المدير بديناً، لكن في بطنه فقط، بل في ناحية معدته، كما يحدث لأولئك الذين يشربون كثيراً. فهو يشرب في الواقع طيلة النهار، كما اعترف هو بذلك وهو يصبّ كأس جعة لنفسه، أي الكأس العاشرة منذ الصباح – على ما قال. شرب وهو يكرّر: «هكذا إذن فإنّكم تتركون بلدتنا كيغوما الجميلة». وهو يغمرني بنظرات مفعمة بالمولاس الحلو، كأنّه يشعر فعلاً بالحزن من جرّاء مغادرتنا.

هنا جلس إلى جانبي رجل أفريقيّ، كنت قد تعرّفت إليه في المساء المنصرم. إنّه مدير الوكالة المحلّيّة لخطّ الملاحة الكونغوليّة، والتي

تذهب سفنها مرّتين في الأسبوع نحو ألبرت فيل، على الشاطئ المقابل لبحيرة تنجانيقا. وقد جرى بيننا الحوار التالي:

«لقد دعوتني مساء البارحة، بأخي العزيز، وأكّدت لي أنّك ستعمل على حصولنا على تأشيرة دخول إلى الكونغو، بشكل نتمكّن فيه من السفر اليوم إلى ألبرت فيل. ولقد حدّدت لي موعداً في التاسعة من صباح اليوم. ذهبت إلى المكتب في الساعة المحدّدة لكنّك لم تكن هناك. فكيف تفسّر الأمر؟».

«إنّ ألبرت فيل مدينة رائعة. ومن المؤسف، من المؤسف حقّاً أنّك لن تذهب إلى ألبرت فيل. كما أنّ السفر بالسفينة ممتع أيضاً».

«أنا متأكّد من هذا. لكنّك لم تكن هناك. وقد قال لي موظّفك الألمانيّ إنّه من المستحيل على الإطلاق الحصول على تأشيرة قبل مرور أسبوع على الأقلّ».

«إنّه ليس ألمانيّاً، إنّه هولّنديّ. ألبرت فيل هي مدينة كبيرة جدّاً، جميلة، وجميلة جدّاً. يجب عليك أن تزورها».

«اعذرني على إصراري، لكن هل كانت وعودك باستصدار تأشيرة الدخول إلى الكونغو، مجرّد وهمٍ كريم أثاره شرب الويسكي والجعة؟».

«ألبرت فيل مدينة رائعة حقّاً».

«لقد كنت ثملاً البارحة مساء. لكنّك استيقظت هذا الصباح بذهن صافٍ، فتذكّرت وعودك، ولهذا فقد لذت بالفرار. أليس كذلك؟».

«ألبرت فيل هي مدينة أجمل بكثير من كيغوما».

مثلما فعل مساء البارحة كان يمسك يدي بيده بحنان. بينما كان مدير الفندق يتأمّلنا نحن الاثنين بعينيه المكلومتين الحلوتين، من غير أن ينبس ببنت شفة. لم يعد بوسعي تحمّل كلّ هذه الحلاوة، فنهضت بفظاظة وخرجت لأتمشّى تحت المطر.

درت حول الفندق، وأخذت في الصعود على الطريق ذات المناظر الخلابة المحاطة بفلل التجّار الهنود الفاخرة. كانت الأمطار خفيفة، تثير

شيئاً من حفيف الأوراق المتعرّشة على أشجار المانغو. عند المنعطف تظهر البحيرة. إنّها بلون الرصاص الرماديّ الباهت، لكن كأنّه رصاص، شَقَّت فيه رأسُ سكين حادّة، كثيراً من الشرائط المتألّقة. تعلّقت على الأفق غيمة سوداء، بينما بقي الأفق واضحاً ومنيراً. اقترب منّي رجلان أفريقيّان وأخذا يسيران إلى جانبي. كان أحدهما أصغر من الآخر، وجهه طيّب مستدير، أمّا الآخر فأكبر، ووجهه نحيل يستطيل بسبب لحيته الصغيرة، وتعابيره كئيبة صفراويّة. بدأ هذا الأخير حديثاً بالإنكليزيّة، أشار إلى الساعة الموضوعة على معصمي، وسألني إذا كنت أريد أن أبيعها: «إذن هيّا لنعقد هذه الصفقة؟ سأدفع مبلغاً مرتفعاً. سأدفع عشرين شلناً».

«شكراً، لا أريد أن أبيعها، إنّي أحتاجها».

«بوسعك عندما تعود إلى إنكلترا أن تشتري ساعة غيرها بهذه العشرين شلناً التي أدفعها لك، وتكون أجمل من هذه».

«لن أبيعها، إنّها هديّة، من ذكرياتي العائليّة».

«عشرون شلناً هو مبلغ كبير بالتأكيد. لكنّك رجل لطيف وأريد أن تكون سعيداً راضياً».

«لا مجال للنقاش في هذا الأمر».

«إنّها لا تساوي أكثر من خمسة شلنات، أمّا أنا فقد دفعت عشرين، فمن يتردّد في مكانك؟».

اتّسم بنوع من الحقد، وقال شيئاً بالسواحليّة لصديقه، ثمّ أمسك، بدون مقدّمات كثيرة، بمعصمي، محاولاً أن ينزع الساعة. سحبت معصمي بعنف. لكنّه لم يستسلم، بل أمسك بمعصمي مرّة أخرى وقال للشابّ: «ما رأيك بهذه الساعة؟ ألا يبدو لك أنّ عشرين شلناً كثيرة عليها؟».

ضحك الشابّ. لكنّي في هذه المرّة لم أكتفِ بسحب معصمي، بل قمت بدفع هذا الشاري ذي اليد الطويلة عنّي. عندما التقينا، كان يحمل في يده سكّيناً يشذّب بها غصن شجرة ليحوّله إلى عصا. عندما كاد أن يفقد توازنه، نظر إليّ نظرة شذر، وقال شيئاً ما بالسواحليّة مهدّداً. هنا

جاءت على الطريق نحونا، طفلة هنديّة كانت تحمل مظلّة كبيرة خضراء. التفت الأفريقيّ نحوها، وطلب منها أن تقول لي بالإنكليزيّة، إنّه عليّ أن أبيعه الساعة. لكنّ الطفلة خافت ولم تفهم، أو أنّها تظاهرت بأنّها لا تفهم، فانتهزتُ الفرصة وأعطيت ساقيّ للريح. لكنّي سمعت عن بعد أنّ الأفريقيّ أقام الدنيا وأقعدها، وهو يستشهد على ذلك الطفلة وصديقه: «ألا تريان، لقد عرضت عليه عشرين شلناً ثمناً لتلك الساعة البائسة، لا يمكن لأحد في كلّ كيغوما أن يقدّم عرضاً أفضل من عرضي. ما نوع هذا الشخص؟ وأين يمكن له أن يجد مثلي؟ إنّه شخص غبيّ، شخص لا يعرف مصلحته، رجل أحمق مثل الجاموس... إلخ... إلخ».

عدت إلى الفندق بمزاج سيّئ. لقد حان وقت السفر. لكنّ جلبة ضجيج انفجرت في رواق الفندق. سمعت أصوات رفاق سفري. أسرعت فأعلموني في الحال: «لقد سرقوا من الغرفة ظرفاً فيه ألف دولار ومئتي ألف ليرة عدّاً ونقداً».

«وكيف تركت في غرفة الفندق ظرفاً فيه هذه الكميّة من النقود؟ يجب حمل النقود معك».

«قبل ساعة كان الظرف موجوداً».

فجأة خرج من باب تعلوه لافتة كتب عليها «الإدارة» رجل هنديّ له رأس على شكلِ طلقةٍ بندقيّة. قال بصوت غنائيّ فخم: «ماذا أسمع! ماذا تقول وماذا تدّعي! هل حدثت سرقة في غرفة من غرف فندقي! هذا لا يمكن! فالخدم هنا هم فوق كلّ شكّ».

أثارتني في الحال لهجته، والإيقاع المسرحيّ الذي لفظ به عباراته. وهكذا فقد انقلبت، على حين غرّة، من ضحيّة لهذه الواقعة المؤسفة، لأصبح مجرّد متفرّج عليها. فصوته الزائف كلّ الزيف وغير الصادق على الإطلاق يجعل أسوأ الافتراضات معقولة وشرعيّة، لكن ليس كما يحدث في الحياة، عندما يتوّقع الإنسان أسوأ التوقّعات، بل كما يحدث في صالة المسرح عندما ينتظر المرء بفضول تطوّرات المسرحيّة.

واصل المدير في هذه الأثناء تمثيليّته، وقال: «لا أستطيع أن أصدّق! هذه هي المرّة الأولى خلال عشرين سنة من عملي في هذا المكان! أنا لست أفريقيّاً كغيري. بل أنا باكستانيّ، من أقرباء آغا خان. وفي هذا الأمر تعرّض لشرفي».

«لكنّنا نحن فقدنا النقود».

«إنّ هذا التأكيد يثير أحزاني. إنها وصمة عار على سمعة الفندق! ولا يمكن لأحد أقرباء الآغا خان أن يتحمّل مثل وصمة العار هذه! لا بُدَّ أن نجد النقود في الغرفة نفسها».

وهكذا فقد انتقلنا إلى الغرفة، وقلبنا كلّ شيء فيها رأساً على عقب: لكن من غير جدوى. وهنا التفت المدير، بتعالٍ ورأفة، نحو نادل صغير وضعيف وأسود مثل الفحم، له وجه ناعم جميل، فيه عينان حلوتان، يبدو فيهما الفزع الذي يبدو في عيون الغزلان، ثمّ قال لنا: «دعوني وحيداً مع هذا الرجل، وسترون أنّ النقود ستظهر في الحال».

خرجنا والأمل يملأ قلوبنا. مرّت خمس دقائق، ثمّ عشر، ثمّ خمس عشرة. وهنا طرح أحدنا فرضيّة أنّ الرجل يريد أن يضيّع الوقت. لكنّ الرجلان خرجا بعدها، وقال المدير: «لا علاقة لهذا الرجل بالأمر. لم يبقَ أمامكم سوى التوجّه إلى الشرطة». «وماذا ستفعل الشرطة؟».

«الشرطة لدينا رائعة، ولا بُدَّ أن يعرفوا السارق ويجدوا النقود المسروقة».

«في كم من الوقت؟».

«أسبوع على الأقلّ».

«لكنّه علينا أن نسافر بعد نصف ساعة، والقطار لا يعود إلّا بعد ثلاثة أسابيع».

«لو كنت مكانكم لغيّرت برنامج السفر ولبقيت في كيغوما لمدّة عشرة أو خمسة عشر يوماً أخرى حتّى تنتهي التحقيقات».

«كيف، قبل دقيقة قلت إنّه أسبوع. فهل أصبح الأسبوع خمسة عشر يوماً؟».

«خمسة عشر وربّما عشرون يوماً».

«المهمّ هل تريد أن نبقى أو أن نسافر؟ قد يقال إنّك تريد منّا أن نسافر بأسرع ما يمكن».

«أنا أريد أن تبقوا. وسترون أنّ الشهر يمرّ بسرعة. خاصّة وأنّكم فقدتم ألف دولار».

«ومئتي ألف ليرة».

«ومئتي ألف ليرة».

وهكذا استمرّت المسرحيّة بلا انقطاع. لكنّنا قرّرنا أن نسافر، وذلك بعد شيء من المشاورات فيما بيننا. فالشخص الذي سرق كان على علم بما صنعه. لقد سرق قبل ساعة من سفرنا، وتوقّع أنّنا سنفضّل التنازل عن المال على البقاء في كيغوما. وتوقّع أيضاً أنّ بقاءنا في كيغوما سيكون دون جدوى. لكن ما إن التفتنا لنبحث عن المدير، حتّى علمنا أنّه اختفى. مثله مثل ممثّل أدّى دوره وانصرف. لقد دخل إلى غرفة الإدارة وأغلق الباب على نفسه. وهكذا فقد أخذنا باتّباع الخدم الأفارقة الذين يحملون متاعنا إلى خارج الفندق، ونحن مكتئبون منهارون، تعلكنا الشكوك وأضراس الريبة.

سارت السيّارات حوالي مئة متر وذهبت لتقف أمام المحطّة. كان الجوّ ماطراً نوعاً ما. بدأت صفوف متاعنا تجذب عشرات الأذرع المهتاجة. هذا هو الصراع نفسه الذي كان يحدث، ليس أكثر من نصف قرن مضى، في محطّات أوروبّا المتوسطيّة. وكما هي العادة فإن الأقوياء هم الذين ينتصرون في هذا الصراع من أجل البقاء على طريقة كيغوما، وهم الذين استولوا على متاعنا.

بعد قليل كنّا على نوافذ القطار نطلّ منها، وما زال القطار واقفاً. بين الجمهور، وفي الظلّ الممطر، انفجر فجأة صراخ غير بشريّ. كان هناك رجل ينازع بين حارسين يمسكانه من ذراعيه. يبدو أنّه مسافر متلصّص تخبّأ في حمّام القطار. كان يصرخ ويعارك ليتملّص منهما، ثمّ ما لبث

أن تعرّى. كان شابّاً رياضيّاً ولهذا فقد تمكّن من الإفلات منهما وترك قميصه في يد الحارسين وحاول أن يهرب بظهره العاري. وعندما أمسكا به من جديد عاد ليصرخ ويزعق، وانزلق سرواله عن خصره نحو قدميه، فأصبح عارياً كلّيّة، يلمع جسمه بماء المطر، كلّه أسود عدا ما في عينيه وأسنانه من بياض. وما لبث أن قفز خارج حلقة الناس، الذين يتفرّجون على هذا التعرّي الهمجيّ، ليهرب مرّة أخرى. كان آخر ما رأيته منه عضلات وركيه القويّة، وهما تختفيان بين الأدغال خلف مظلّة المحطّة. كان على كلّ عارياً طيلة الوقت، لذلك فإنّه أراد أن يذهب إلى دار السلام ليرتدي لباس ثقافتنا، لكنّه لم يفلح في ذلك، فهرب وهو عارٍ من جديد إلى داخل الأدغال، أدغال آبائه. وبدأ القطار يتحرّك ببطء.

عرس في تابورا

عنتيبة، آذار 1969

في تابورا حالفنا الحظّ. كنّا نتلكّأ بين عربات السوق، باللّامبالاة الأفريقيّة المعهودة، ونتجوّل لنساوم بالمساومة الأفريقيّة المعهودة أيضاً، ونقلّب علب الطعام المحفوظ الأميركيّة والأسترالية، البطاطا الحلوة، وثمار الموز والبابايا والمانغو. في هذه الأثناء اندلعت بعيداً، في إحدى زوايا الساحة، أعمال شغب. فجرى الجميع في ذلك الاتّجاه، وجرينا وراءهم. قالوا لنا إنّ هناك عقد قران، وإنّ حفل الزواج قد تمّ وإنّ العريسين والمدعوّين يتوجّهون الآن نحو مكان الوليمة التي ستدوم حتّى آخر الليل بين رقص وموسيقى وغناء. منعتنا الحشود من رؤية المشهد، لكننا وقفنا على رؤوس الأصابع، فلمحنا في الصفّ الأوّل فرقة العازفين التي تصنع ضوضاء تصمّ الآذان، من صفير وقرع طبول ونفخ نايات. جاءت بعدها مجموعة أخرى مشكّلة من النساء فقط، وكنّ في حال قد يقال إنّها مرحلة سموّ تقارب النشوة. كنّ تارة يصرخن بغير انتظام، وبمرح برّيّ هائج، وتارة أخرى يرتجلن ترانيم حزينة، تتخلّلها لازمة موحّدة تعبّر عن التعجّب. في النهاية سار صفّ من السيّارات لونها أسود حزين، لكنّها متألّقة بطلاء برّاق، وكان فيها العروسان والمدعوّون. مرّ الموكب ببطء تحت الأشجار، وبين المستودعات وأشباه البيوت، وأرباع المباني، والأكواخ المصطفّة على طول الطريق المشوّهة. ضاع الموكب وسط الضجيج، ولهب الشمس، وخليط الحشود، وغاب وراء

ضواحٍ بعيدة أخفاها الغبار الكثيف. هنا خطرت في ذهني أبيات شرقيّة، بل أفريقيّة لرامبو: «ذات صباح جميل، بين أناس حلوين، هتف في الساحة رجل وامرأة جميلان: أريد لها يا أصدقائي أن تصبح ملكة. أريد أن أصبح ملكاً. كانت المرأة تتضاحك منتشية. بينما كان الرجل يكلّم أصدقاءه عن رؤاه وعن نجاح التجربة. وتعانق المرأة والرجل. فأصبحا في الواقع ملكاً وملكة، وبقيا كذلك طيلة الصباح، عندما رفعت الستائر الأرجوانيّة فوق البيوت. بل وطيلة الظهيرة، عندما تقدّما نحو حدائق النخيل...». يا لروعة رامبو! وفي الواقع، ها هي ستائر حمر ترتفع من وراء النوافذ المطلّة على الطريق، ليتمكنوا من مشاهدة الموكب، وها هي تظهر وراء الغبار، من بعيد، أشجار النخيل الرقيقة، التي تلمع تحت الشمس وتتأرجح بسبب الريح، بينما سيصبح العروسان ملكاً وملكة طيلة نهار كامل، ذلك كما في قصيدة رامبو. أمّا في الغد فإنّهم سيغرقون في كآبة المدينة الأفريقيّة القديمة وخدرها.

وقفنا في ظلّ شجرة مانغو ضخمة، أمام ما بدا لنا أنّه مطعم أو فندق. كان الناس محتشدين أمام الباب. لم نستطع أن نرى العروسين، لكنّنا أفلحنا في مشاهدة العرض التقليديّ لأثاث غرفة النوم. فمن الشاحنة كانت أذرع كثيرة ترتفع لتحمل مقعدين يتأرجحان فوق رؤوس الناس في الطريق إلى باب المطعم، كانا مغلّفيْن بقماش بنفسجي، غلّف بدوره بالسلوفان الشفّاف. ارتفعت صيحات الإعجاب والبهجة والتأييد، لترافق نقل هاتين القطعتين من الأثاث. ولم يكن المقعدان قد دخلا إلى الباب، عندما نقلوا مرّة أخرى، فوق رؤوس الناس المحتشدين، ووسط صخبهم المحموم، فراشاً مزدوجاً ملبّساً بقماش ملوّن بورود زرق، ومغلّف أيضاً بالسلوفان. بعد الفراش جاء دور رأسي السرير المصنوعيْن من معدن مدهون بلون الخشب، وهذا غير مناسب طبعاً في هذا البلد المليء بالغابات. ثمّ جاء دور شبكة السرير، والمبولتين المصنوعتين من بورسلان أبيض، والمصباح على شكل كرة بطراز

القرن التاسع عشر. أخرجوا كلّ هذه الأشياء من الشاحنة، ومرّروها فوق رؤوس الناس، وهي تتأرجح بين صيحات فرح مرتفعة، قبل أن تختفي وراء الباب. جاءت في النهاية سيّارة، ترجّلت منها سيّدتان ضخمتان، ترتديان ثياباً من قماش ملوّن بألوان زاهية وورود كبيرة، كانت أذرعهن عارية وضخمة كأنّها أفخاذ. كانتا تحملان، على كعكة فوق رأسيهما، صينيّتين بسعة لا مثيل لها، يرتفع منهما كَوْمَان موضوعان ضمن مناديل معقودة. إنّهما كومان من الرزّ واللحم سيشكّلان على الأرجح أساس وليمة العرس. تمرّ الصينيّتان أيضاً فوق رؤوس الناس المحتشدين، وسط التصفيق، قبل أن يبتلعهما الباب. يمكن للحفل الآن أن يبدأ.

هناك جدار أبيض، يحيط برواق صغير، تبرز منه أشجار بأغصانها المورقة. هناك على الجدار وعلى الأغصان فضوليّون ينظرون إلى الأسفل نحو الحشد الراقص، حيث يسحق الناس بعضهم بعضاً، ويرقصون وهم واقفون تقريباً بسبب ضيق المكان، لكنّهم مقابل ذلك يثبون إلى الأعلى، ثمّ يهبطون إلى الأسفل، كأنّهم دمى تحرّكها نوابض قويّة مخفيّة. أمّا الأوركسترا فهي مكوّنة بطريقةٍ وسطٍ بين التقليد والحداثة، إذ جلس رجالها القرفصاء، وبين أيديهم كثير من الطبول بالإضافة إلى ساكسفون أيضاً. كما أنّ الموسيقى هي موسيقى الجاز الأميركيّ. ومع ذلك فمن الغرابة بمكان أن نرى كيف أنّ هذه الإيقاعات، التي اخترعها زنوج أمريكيّون لمراقص الولايات المتّحدة، ظهرت هنا في تابورا أي في أعماق أفريقيا، وكأنّها تعود إلى أصولها، بل هي بالأحرى تتكشّف، ولا أدري كيف، عن أصولها الأفريقيّة. ربّما لأنّ العازفين أضافوا هيجاناً غريباً، وقديماً، لكنّه لم يكن موجوداً من ذي قبل، أو ربّما لأنّ الراقصين يرقصون عليها بروح دينيّة إذا صحّ التعبير، أي ليس على أنّها موسيقى استهلاكيّة، كما هي في الحقيقة، بل كموسيقى طقوس احتفاليّة. وفي الواقع ما إن بدأ اثنان من رفاقي بالرقص أيضاً، حتّى تحلّق الناس حولهما بكلّ احترام وبنوع من الفضول، وكأنّهم أمام

شيء غريب لم يروه من قبل، مع أنّ الرقصة هي نفسها، وإن كانت قد فسّرت ونفّذت بروح مختلفة.

وممّا يبرهن على أنّ الروح هي دينيّة، وليست احتفاليّة فقط، هو أنّ الجميع هنا يرقصون، وأنّ عدوى الرقص أصابت حتّى من لا يشارك في الاحتفال ومن أُبعد عنه. فهم يرقصون في أروقة البيوت المجاورة، يرقصون في خارج المطعم، ويرقصون في الطريق. وحيثما يجلس عازفٌ القرفصاء ويبدأ بضرب راحتي يديه على طرفي طبل، حتّى يحيط به الناس ويضع الراقصون أيديهم على أكتاف بعضهم بعضاً، فتتشكّل في الحال، وبطريقة متناغمة وحشيّة، حلقة على شكل ثعبان يعضّ ذنبه، تحت أشعّة الشمس، ووسط الغبار والعرق. إنّ كلّ هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء يرقصون من قلوبهم، وللتنفيس عن نفوسهم، بل كأنّهم مدفوعون بدافع بيولوجيّ عضويّ. لكنّ هناك أيضاً نساء يحترفن الرقص، ولا بُدَّ أنّه تمّ استئجارهنّ لهذا الغرض، لأنّه هنا، كما في أوروبّا، يتمّ تجنيد الجراسين والعاملين في التشريفات. تجمهرت تلك المحترفات ضمن رواق صغير، وقد افترشن الآن الأرض، ثابتات منهكات، لكنّ الطبل أثارهنّ فنهضن لينهمكن في رقصات ناجحة. كنّ يرتدين ملابس صفر اللون، وأعمارهن تثير الدهشة خاصّة وأنّ التجاعيد على البشرة السوداء تظهر جهنّميّة. لكنّ شيئاً من التفكير، يفسّر بل يبرّر الأمر، لأنّ الحفلة الدينيّة لا تقتضي وجود راقصات جميلات، بل راقصات ماهرات يتقنّ الرقص. لذلك فإنّنا نجد أنّ فتيات الجيشا[1] في اليابان لسن جميلات أبداً، لكنّهن يتقنّ فنون الترفيه عن الضيوف بشكل احترافيّ.

إنّ إمكانيّة التنقّل خلال ساعات قليلة من واقع إلى واقع آخر، هي من الصفات الأساسيّة للحياة الحديثة. فقبل ساعات قليلة كنّا في تابورا، أي في عالم ليس بمختلف كثيراً عن العالم كما كان قبل قرنين أو ثلاثة قرون

1- Geisha الجيشا في اليابان هي فنّانة تقليدية تعمل على الترفيه عن الضيوف باستعمال مختلف أنواع الفنون مثل الموسيقى والغناء والرقص والكلام المعسول. (م)

من الزمان، بينما نجلس الآن في مقصورة طائرة سفر صغيرة ونحن نطير فوق تابورا باتّجاه موانزا. يمكن للمرء أن يفهم، وهو في الطائرة، سبب وجود نواحٍ تقليديّة جدّاً في حياة تابورا، إلى جانب نواحٍ أخرى مضطربة وشديدة التّأخّر. فالأدغال البرّيّة الخضر المجعّدة، تحيط بالمدينة بكثافة من جميع أرجائها. وليس هناك فيها ضاحية ولا بيت ولا مزرعة. لكنّ بعض المنحنيات النهريّة تلتوي هنا وهناك، بلون أزرق رائع، بين الكتل الخضر، قبل أن تتلاشى كلّيّة وسطها. كانت تابورا من المراكز المهمّة في تاريخ العبوديّة قبل أن تلغى النخاسة، وفي الواقع فما زال من الممكن زيارة خرائب بعض الخانات غير البعيدة عن تابورا، والتي كان الغزاة العرب يريحون فيها قطعانهم البشريّة، قبل أن يقودوها نحو سوق زنجبار. ولا بُدَّ أنّ تابورا قد تراجعت أشواطاً كثيرة عن أمجاد العبوديّة تلك، ولم يبقَ لها إلّا بضعة موارد محلّيّة، أكثرها زراعيّة. أمّا مساعدات الدولة فتقتصر على البيروقراطيّة الإداريّة، وهكذا فإنّ الثقافة التقليديّة أصبحت مجرّد عادات بانتظار أن تتحوّل إلى نوع من الجذب السياحيّ. وداعاً تابورا.

ظهرت أمامنا بغتة في السماء غيمة سوداء صغيرة، لكنّها سرعان ما انتشرت هنا وهناك، لتغزو زرقة السماء قبل أن تنفتح مثل وعاء مثقوب، وتفسح المجال لسقوط شلّال مياه رماديّة كالحة، فوق أرض ما زالت مغمورة بأشعّة الشمس. دخلنا فجأة في الظلام، قبل أن نجد أنفسنا وقد أصبحنا بسرعة مذهلة فوق مدرّج الهبوط، الذي ظهر تحتنا وكأنّه يغلي بالمياه العكرة. حاولت الطائرة أن تنخفض، لكنّ سرعتها كانت عالية، ومن الواضح أنّ الآلة لا تتمكّن أن تتوقّف ضمن الحدود، لذلك فما إن وصلت إلى مسافة معيّنة من الأرض، حتّى عادت وارتفعت بطريقة حادّة سريعة، وهي تهتزّ على طول جناحيها، ثم توجّهت نحو إحدى التلال وهي تترنّح ترنّح بطّة برّيّة جريحة. ظننت عندها أنّنا سننسحق على هذه التلّة، وعندما تأكّدت أنّنا سنموت جميعاً، شعرت في داخلي بنوع من الهدوء العميم، ذي النوع الفنّيّ إن صحّ التعبير، وبدأت أناقش

نفسي، حول إمكانيّة الآلات في استئناف سريع لعملها، وخلال فترة قصيرة من الوقت، وعلى بعد محدود عن الحاجز المرتقب. كانت التلّة تقترب، ورأيت الأشجار كبيرة مثل نباتات الفطر، ورأيت الحقول والأبقار المبقّعة، وهي ترعى على المنحدر. بعدها، ولا أعرف كيف، مررنا. لكن ها هي تلّة أخرى، ثمّ أخرى ثالثة. عادت الطائرة لتحلّق وهي تميل على أحد جناحيها. يرتفع المنظر أمامنا في وضع عموديّ ويبدو أنّنا نتسلّق. ثمّ عادت الطائرة إلى وضعها الأفقيّ، ها هو مدرّج الهبوط. تنخفض الطائرة بعدها، لقد لامست الأرض بعجلاتها، وبدأت تتدحرج فوق المياه التي ترعد، وتعتّم زجاج النوافذ. ثمّ توقّفت الطائرة، وانطفأت المحرّكات، وفتح الباب، فنزلنا تحت المطر ونحن لا نكاد نصدّق، لكننا كنّا على الأرجح سعداء.

بعد حوالي ساعة كنّا نطير في الجوّ مرّة أخرى فوق بحيرة فيكتوريا، ثاني بحيرة في العالم، كبيرة بحجم إيرلندا. طرنا أكثر من ساعتين من غير أن نرى نهايتها. مرآة من المياه الرماديّة، مسطّحة، كامدة، مقفرة بصور تامّة، معزولة بوحدة ممّا قبل التاريخ، من زمن طوفان نوح. الأفق خطّ متحوّل يتحرّك مع حركتنا، إنّ البحيرة تمتدّ إلى ما وراء ذلك الخطّ، بمسافات لا نعرف مداها. ذلك إلى أن رأينا فجأة بروز بضع جزر بشعة، بلون أخضر ميّت. نطير على ارتفاع منخفض. رأيت على شاطئ مقفر، زورقاً طويلاً مصنوعاً من جذع شجرة محفورة. كان إلى جانبه زورقان آخران أصغر منه. ثمّ رأيت صخرة ناصعة، ما لبث أن تلاشى كلّ بياضها، باقتراب الطائرة، لينتشر في السماء، قبل أن تنقلب الصخرة سوداء مثل الفحم، وسط المياه الرماديّة المسطّحة. كانت مجرّد طيور متجمّعة فوق الصخرة، وهي الآن تحوم فوق البحيرة، قبل أن تعود إلى الصخرة. بينما واصلنا نحن الطيران.

خزف وسياحة

أبيجان، نيسان 1970

في البداية كان هناك حصون برتغاليّة متناثرة على طول الساحل، فيها حاميات مؤلّفة من جنود، أغلقوا خوذ الحديد على رؤوسهم، فظهروا غريبين ومضحكين، ذلك كما يمكن لنا أن نرى اليوم مثلهم في بعض التماثيل في بنين. كانت تقام تلك الحصون من أجل الدفاع عن طلائع التسلّط الأوروبّـيّ: حين كان الأوروبّيّون يقدّمون بضائع رخيصة، وسلاسل من خرز، مقابل ما يأخذونه من ذهب وأحجار كريمة وبهارات نادرة. علماً أنّ الأفارقة لم يكونوا يعلمون أنّه ليس للخرز أيّة قيمة، بينما هناك للذهب والأحجار الكريمة قيمة كبيرة جدّاً. كانت قيم الأفارقة قائمة على الخيال، بينما تقوم القيم الأوروبّيّة على الربح. بعدها، وخلال القرنين التاليين، جاء تجّار العبيد يرتدون ملابس من مخمل ومن حرير ومن بروكار، وسراويل قصيرة فوق الجوارب، سيوفهم على جنوبهم. مرّة أخرى قدّم الأفارقة مقابل بضائع رخيصة وخرز شيئاً أثمن بكثير، أي إخوتهم الذين استعبدوا بموافقة، بل وبمشاركة ملوكهم، ثمّ سيقوا مكبّلين بالأصفاد، إلى سفن حملتهم كالقطعان حيث بيعوا في أميركا. لكنّ الأفارقة كانوا يجهلون، حتّى في هذه المرّة، قيمة البضاعة البشريّة التي لا تقدّر بثمن. علماً أنّ الأوروبّيّين يعرفون حقّ المعرفة قيمة هذه البضاعة، بل إنّ المسيحيّة، وهي دينهم، كانت تعلّمهم هذا الأمر على مدى قرون طويلة. لكنّهم، مثلهم مثل الأفارقة، تصنّعوا وتجاهلوا أنّ

الإنسان ليس شيئاً من الأشياء. وكان هذا التجاهل أكبر جريمة ارتكبها الأوروبّيّون خلال ذين القرنين. ثمّ، وبعد أن باعوا حوالي عشرين مليون شخص في أسواق النخاسة، وبعد أن انتهى عصر العبوديّة، جاءت مرحلة الاستعمار. ومرّة أخرى أدّى التباين بين الأوروبّيّ الذي «يعرف» قيمة ما يشتري، كما يعرف أنّه لا قيمة لما يعطيه مقابل ذلك، وبين الجهل الطفوليّ لدى الأفريقيّ، أدّى ذلك التباين من جديد إلى مزيد من العنف الذي واصل الأوّل ممارسته ضدّ الثاني. فالاستعمار أعطى مقابل الحرّيّة ذلك الشيء الذي سمّي وقتها «حضارة»، أي البيروقراطيّة الإداريّة والبوليسيّة والأشغال الشاقّة والتجنيد لصالح الحروب الأوروبّيّة وهكذا إلخ. حتّى وصلنا إلى أيّامنا الحاضرة. لقد ذهب الاستعمار، لكن جاءت بعده الرأسماليّة الجديدة. إنّه زمن «المواد الأوّليّة» التي تمّت مقايضتها باستقلال وطنّي واهم، لكنّ العلاقة بين الأوروبّيّين والأفارقة لم تتغيّر. فلقد بقي العنف، وإن أصبح أقلّ ظهوراً. وكيف نسمّيه؟ فلنقل إنّه عنف اقتصاديّ، سياحيّ وثقافيّ.

وهنا قد يتساءل البعض: كيف يجب أن تكون إذن العلاقة بين أفريقيا وأوروبّا؟ ونجيب: إنّ الأفريقيّ ليس «مختلفاً» عن الأوروبّيّ، وليس هو شخصاً «آخر»، بل إنّه وبكلّ بساطة الوجه الآخر للأوروبّيّ، إنّه تكملة له، البديل عنه. وإذا استغلّه أو استعبده أو طغى على الأفريقيّ، فإن الأوروبّيّ يقوم في الحقيقة باستغلال نفسه واستعباد نفسه والطغيان على نفسه «الأخرى». أي إنّ عنفه كان بكلمة أخرى عنفاً انتحاريّاً نفّذه «التاريخ» ضدّ ما يلزم من «تاريخ مضادّ» لا غنى للتاريخ عنه. إنّ رمز هذه العلاقة قد يكون من جهة معيّنة في خوذ ودروع وحرير وبروكار البرتغاليّين، ومن جهة أخرى في عري الأفارقة البريء. إنّ «التاريخ» يكتسي، ويغيّر ملابسه باستمرار، خلال الزمان، بينما يبقى التاريخ المضادّ عارياً وعارياً على الدوام. إنّ التاريخ يكتسي ويغيّر ملابسه باستمرار لأنّه يحتاج كي يبقى ويتطوّر إلى رفض الطبيعة أي العري، أمّا التاريخ المضادّ فهو طبيعةٌ

في حدّ ذاته، أي عري، إنّه ثابت جامد وخارج الزمن. إنّ تكامل وضعَي البشر هذين لا يحتاج إلى أيّ تعليق. والأوروبّـيّ عندما لا يرى في الأفريقيّ بديلاً عنه أو تكميلاً له، بل مجرّد شيء بلا روح، ولا قيمة، ولا بُدَّ من استغلاله، ومن بيعه، ومن استعماله، فإنّه بهذا يذلّ القسم الطبيعيّ والبدائيّ في نفسه، قبل أن يذلّ الأفريقيّ.

لقد تحدّثت عن عنف اقتصاديّ وسياحيّ وثقافيّ، اليوم. ها هو فندق أبيجان عاصمة جمهوريّة ساحل العاج، الذي نقيم فيه الآن، إنّه متحف يظهر بطريقة غير مباشرة هذا العنف الجديد. لقد بُني على هضبة صغيرة مقابل الميناء، وهو بكلّ بساطة ناطحة سحاب من نيويورك نقلت بحذافيرها إلى هذه الناحية من أفريقيا. العنف الأوّل نراه في النسبة. فضخامة هذا الفندق ذي البناء العملاق لا تتوافق لا مع المدينة ولا مع البلد، بل مع ضخامة مصالح صناعة السياحة الغربية، والتي يعتبر ساحل العاج أحد أسواقها الكثيرة التي تبيع أشعّة الشمس والأجواء الساحرة الغريبة، وحيث يمكن إرسال سكّان مدن «الميتروبوليس» الضخمة -والتي كانت تسمّى أيّام الاستعمار الكلاسيكيّ: الوطن الأمّ- كي يقضوا عطلهم. وهكذا فما زلنا هنا في «المصنع» الاستعماريّ، لكنّه الآن، ليس على ما كان عليه قبل حوالي أربعة قرون، أي مجرّد قلعة مسلّحة بمدافع برونزيّة، بل فندق يحتوي على مئات الغرف المزوّدة بالتهوية المركزيّة.

أمّا العنف الثاني فهو تحويل الثقافة الأفريقيّة إلى «بوتيك». عبر الصالات الواسعة، والممرّات الملتوية، والأروقة الفسيحة، أي كلّ ما كان يشكّل قبل نصف قرن من الزمان واحدة من ثورات الثقافة الغربيّة، أي اكتشاف الفنّ الزنجيّ، وكلّ ما كان يجري البحث عنه خلال سنوات طويلة وما كانت جماعات معيّنة - من فنّانين ونقّاد - تدرسه وتفهمه وتتمثّله، كلّ هذا بدا أنّه قد تحوّل إلى تزيين منمّق، زائف، وفخور في الوقت نفسه بهذا الزيف. إنّه عنف جماليّ لا يعدو كونه مجرّد بلادة. فعوضاً عن فهم أسرار الأقنعة الطقسانيّة فضّلوا تصنيع أقنعة مكبّرة جدّاً

ليعلّقوها على الجدران لـ «تلوين» المكان. وعوضاً عن عيش سحر الطوطم[1] الرمزيّ، فضّلوا استخدامها كأعمدة لتدعيم عمارات البارات والمطاعم المبنيّة بطراز غريب، وعوضاً عن سبر أغوار الأسرار الصاعقة، والمعاني الكامنة في التماثيل، ذات الطابع الدينيّ أو الجنسيّ، فضّلوا تصنيع تماثيل ضخمة لها، ووضعوها في الأروقة وفي مراكز تجميع الحقائب في صالات المسافرين القادمين. وهنا لا بُدَّ من الاعتراف أنّ هذا التزيين الأفريقيّ الجديد هو مسلّ وأنيق. وهذا أسوأ، بل أسوأ بكثير. فهذا يعني أنّ هذا التجبّر الاستهلاكيّ لم يساهم فيه موظّفو الدعاية المعتادون فحسب، بل ساهم فيه أيضاً فنّانون واختصاصيّون وعلماء جمال أيضاً.

أمّا المظهر الثالث من مظاهر العنف السياحيّ فيتمثّل في عزل المناطق الداخلية الأفريقيّة مقابل أُنْس الفندق الفخم. ويظهر العزل جليّاً في انعدام الطرق ووسائل التواصل الاجتماعيّ. كما أنّه ليس للفندق أيّة صلة بأفريقيا، لأنّ كل صلاته هي مع الغرب، وهو ليس إلّا تعبيراً مباشراً عنه، بل ومحطّة متقدّمة من محطّاته. لذلك فقد تكفي خمس ساعات طيران للوصول من باريس إلى الفندق، بينما يكون من المستحيل أحياناً بلوغ قرى لا تبعد عن أبيجان أكثر من مئة كيلومتر. وإذا ما أمعنّا النظر فإنّنا سنجد أنّ شبكة العلاقات الوثيقة، بين الفندق الفخم وكلّ من روما وباريس ولندن ونيويورك، هي سبب انعدام أيّة علاقة بين الفندق والقرية.

وهنا أذكر رحلة إلى إحدى هذه القرى التي لا يمكن بلوغها رغم قربها. فلقد ذهبنا مرّة بالسيّارة، على طريق حمراء قاسية تعبر الغابة الاستوائيّة، باتّجاه الحدود مع غانا. انتقلنا بعدها من حافلة السيّارة إلى زورق. ففي ساحل العاج، تمتدّ لمئات الكيلومترات، بين الكثبان والغابات وبمحاذاة البحر، عدّة بحيرات تشبه الأقنية الكبيرة نظراً لاستقامتها واستطالتها واستقرار مياهها. يمكن عبورها بالزورق، لساعات طويلة ومشاهدة

---

1 – Totem الطوطم هو شيء طبيعيّ أو حيوان تعتقد بعض القبائل أو الشعوب أنّ له معنى روحانيّاً وتتّخذه لذلك رمزاً لها وشعاراً. (م)

المناظر نفسها، التي لا تتغيّر، ولو شيئاً قليلاً. هذه صفة أفريقيّة بحتة، أي الرتابة أو، إذا فضّلنا، تكرار منظر واحد، أو وجود تفصيل واحد إلى ما لانهاية. حتّى شاهدنا في النهاية وفي آخر القناة، وبعد ممرّ ضيّق، وبين كثيبين مرتفعين، الرغوة الفوّارة الطليقة التي تعلو أمواج البحر. لقد وصلنا إلى الشاطئ. هنا على هذا الطرف من الساحل، كان ينتظرنا كوخ فخم شيّد على ركائز اصطناعيّة، ومن المقرّر أن نتناول بعد قليل، وعلى أنغام الراديو، طعاماً طبخ وفق أفضل الوصفات الباريسيّة. بينما هناك على الطرف الآخر قرية يبدو أنّها من أكثر القرى أصالة وسلامة. ذهبنا لزيارة القرية. تحت ظلال غابة من أشجار النخيل العالية الممشوقة، شاهدنا أكواخاً مصنوعة من الخشب الغامق المعتّق، التي تذكّر بأكواخ جبال الألب. كان لكلّ منها حاجز ترتع وراءه الدجاجات، وتتدحرج الخنازير، ويسير أطفال عراة يترنّحون بسرّاتهم البارزة، كما يحتوي كلّ منها على كومة من جوز الهند موضوعة أمام أبوابها. كانت القرية خالية من الناس، لأنّ زوارق الصيّادين كانت في سبيلها للوصول من المحيط، وكان هذا حدثاً اجتماعيّاً كبيراً وسط الانعزال الكامل لتلك المجموعة السكّانية الصغيرة. ها هو الشاطئ. نساء وكبار في السنّ وأطفال مصفوفون على طول أمواج البحر. وفي الحال انتشرت مسحة مرحة من الإثارة على جميع الوجوه، عندما ظهرت مقدّمة الزوارق الطويلة من بين الأمواج، قبل أن تنزلق على الشاطئ، ليتمّ سحبها نحو الأرض.

بينما كان جمع قليل من الناس يصيحون متضاحكين، وهم يندفعون نحو الصيّادين، لاحظت أمراً فريداً. فنحن ثلاثة أوروبّيّين، والقرية محصورة كما أسلفت بين كثيبيها من غير أن تكون هناك إمكانية تواصل مع بقيّة أنحاء العالم، ومع ذلك فقد كان أولئك النساء والرجال يجتهدون في إشراكنا في احتفالهم، مع أنّ لهم كلّ الحقّ في اعتبارنا أجانب بصورة كاملة. كانوا يبتسمون وهم يشيرون نحو الزوارق، ثمّ يتناولون الأسماك ويستعرضونها أمامنا، أي إنّهم يريدون باختصار أن يجعلونا فرحين

بأفراحهم. وهنا لم يكن أمامي إلّا أن أقارن هذا الاستقبال، مع استقبال آخر جرى لنا في مثل هذه المناسبة، لكنّه كان على عكس هذا تماماً، وذلك من قبل هنود بوليفيا عندما كنت بينهم قبل حوالي عشرين يوماً. وقد فهمت سبب هذا الاختلاف. ذلك أنّه كان لأولئك الهنود نوع من التاريخ، وقد جاء الإسبان فأوقفوا مجراه وحطّموه، فلم ينسَ الهنود ذلك لهم، بل إنّهم ما زالوا حتّى يومنا هذا يعتبرون الإسبان مغتصبين، ويكنّون لهم نوعاً من الرفض الاجتماعيّ. أمّا الأفارقة فلم يعرفوا إلّا التاريخ المعاكس، أي الطبيعة، وبما أن الطبيعة أقوى من أن يمكن التغلّب عليها، فقد تسلّطت هي عليهم خارج كلّ تاريخ. وإذا كان الأفارقة قد تحمّلوا آلاماً أشدّ من آلام الهنود، بل إنّه تمّ استغلالهم واسترقاقهم واضطهادهم، فإنّهم وعلى العكس من الهنود، قد نسوا هذا كلّه، وإذا تذكّروا هذا الماضي فإنّهم يتذكّرونه كما يتذكّر المرء مصائب الطبيعة، أي من غير أن يكنّوا شيئاً من الحقد التاريخيّ، بل بنوع من الصفاء، الذي هو في نهاية الأمر نسيان.

فكّرت بهذه الأمور وأنا أنظر إلى الجمع المحتشد، بمرح وابتهاج، حول زوارق الصيد. لقد أصبح السمك على الأرض، بل إنّ بعض النساء بدأن بالفعل في كشط الحراشف بالسكاكين. هنا شعرت بيد صغيرة تتسلّل بقوّة إلى داخل يدي. كانت يد طفل ربّما في الرابعة من العمر، كان عارياً في كلّ جسمه، سوى من خيط من الخرز الأزرق يحيط بخصره، ويمرّ بين ساقيه كأنّه سروال داخليّ صغير. ها هو إذن شخص آخر قد نسي، ولا يكنّ أيّة ضغينة، ويقف في صفّ التاريخ المعاكس. إنّه يبتسم لي ويقول لي بالفرنسيّة: «أنا وأنت، أصدقاء».

صحراء، سافانا، وغابة

باماكو، نيسان 1970

شاهدنا خلال أمسية من هذه الأمسيات، استعراضاً للرقص الوطنيّ نظّمته السلطات في ناد ليليّ محلّيّ. كان بين الحضور قسم كبير من السلك الدبلوماسيّ وكثير من الشخصيّات الرسميّة. تتابعت على الحلبة الإسمنتيّة وتحت أضواء المصابيح العاكسة هيئات الرقص بالأزياء الأفريقيّة، وثنائيّو عزف الناي، وثلاثيّو القرع على الطبول. لو كانت هذه الموسيقى وهذا الرقص، يجريان في مرقص أوروبّيّ، لقيل إنّهما موسيقى ورقص أصليّان. وليس فقط بسبب عنف الحركات والكلمات والألحان وغرابة تناغمها، بل أيضاً بسبب الحماسة غير المهنيّة التي يعزف بها العازفون، ويرقص بها الراقصون. لكن في أفريقيا، وتحت بريق شديد تثيره المصابيح القويّة، وفي ظلّ الرطوبة الخفيفة التي تثيرها النسائم المحمّلة بالروائح البرّيّة، التي يبدو أنّها تصدر عن السافانا، نشعر بأنّ هناك في أصالة الرقص والموسيقى شيء ما من التصحيح والتخفيف بالمعنى الفلكلوري. فهما موسيقى ورقص كانا يقامان في الأصل داخل القرى، وخلال مناسبات دينيّة وطقوس تشفّعيّة. أمّا الآن فإنّ المناسبة هي اجتماعيّة وسياحيّة. لو كان هذا يجري في القرى، لكانت الأصوات أشدّ حدّة، وأقلّ تناغماً، واختلاجات الرقص أعنف وأشدّ انسجاماً، ولكانت الموسيقى أكثر رتابة وهلوسة.

حدث بعدها أمر، نذكر أنّنا قد لاحظناه خلال رقصات مماثلة، شاهدناها قبل سنوات في قرية من قرى غانا: إنّه الشعور بالمشاركة في تظاهرة «تتجاهلنا» و«تستبعدنا»، وليس بها حاجة لوجودنا أصلاً، لأنّها تمتح أسباب وجودها من عوامل ليس لها علاقة بنا. أمّا هنا في باماكو فإنّ هذا المشهد ينشأ من وجودنا، وبدلاً من أن «يستبعدنا» فإنّه يسعى لأن يقحمنا، بإثارة فضولنا واستجداء إعجابنا.

الغريب أنّ هذا الهبوط في الأصالة الأفريقيّة، إنّما حدث أساساً بفعل تلك المطالبات بالأصالة، التي جرت على الصعيدين السياسيّ والثقافيّ، أي بفعل الحركة القوميّة. لقد كنت في بوليفيا قبل مجيئي إلى أفريقيا، وقرأت هناك رسالة كتبها ريجيس ديبرِه[1]، وهو ثوريّ فرنسي كان سجيناً في مدينة كاميري البوليفيّة، وتحدّث فيها عن الاعتبارات التالية: «القوميّة هي جوهر هذا الزمان ويجب ألّا نصدّق كلمة واحدة عن اشتراكيّةٍ لا تتضمّن القوميّة أيضاً... ولن تقوم قائمة البتّة على هذه القارّة لأيّة أمّة أصليّة من غير الاشتراكيّة الثوريّة، كما لن تقوم قائمة البتّة لاشتراكيّة من غير قوميّة ثوريّة».

إنّ الظاهرة التي يشير إليها ديبرِه كانت معروفة منذ قرنين من الزمان، أي منذ زمان الثورة الفرنسيّة، التي بدأت تلك الظاهرة. إنّه مزيج متفجّر يجمع الشعور القوميّ مع الأيديولوجيّة الكونيّة، التي كانت قائمة في ذلك الحين. كان ذلك المزيج خلال القرن التاسع عشر عبارة عن مشاعر قوميّة وأيديولوجيّة ليبراليّة، أمّا اليوم فهو، أو من الممكن أن يتراوح بين المشاعر القوميّة والأيديولوجيّة الاشتراكيّة. وإذا كان ديبرِه يتحدّث عن أميركا اللاتينيّة، فإنّ أفكاره يمكن أن تصلح أيضاً بالنسبة لأفريقيا. خاصّة وأنّ تاريخ أفريقيا ليس مختلفاً جدّاً عن تاريخ أميركا اللاتينيّة. فكلا القارّتين هما من مناطق الاضطهاد والتخلّف. وكلاهما عاشا تجربة الاستعمار والتحرّر (حقيقيّاً أو زائفاً) من الاستعمار. قلت إنّ أفكار ديبرِه

1- Regis Debray . (م)

يمكن أن تصلح أيضاً بالنسبة لأفريقيا، لكنّ الواقع هو أنّ هناك إمكانيّة فعليّة بألّا تصلح لها.

لماذا؟ لأنّ القوميّة، حيثما نمت، في تناغم تامّ كما أسلفنا، مع الأيديولوجيّة الكونيّة القائمة، فإنّها تضرب جذورها في أرض التاريخ. فنحن نجد مثلاً أنّ أصول القوميّة الاشتراكيّة في البلدان العربيّة أو في بلدان شرق آسيا، تستند إلى تاريخ الشعب العربيّ، أو الشعب الصينيّ، أو الشعب الفيتناميّ. وفي أميركا اللاتينيّة نجد أيضاً أنّ أصول القوميّة التي تمنّاها ديبرِه تضرب جذورها في عدّة قرون من التاريخ ما قبل الكولومبيّ، فضلاً عن أربعة قرون من الثقافة الإسبانيّة التي زرعت في العالم الجديد. لكنّه ليس هناك أيّة دلالات تاريخية، حقّاً، للثقافة القبليّة التي سبقت الاستعمار في أفريقيا. فنحن لسنا في التاريخ بل ما زلنا فيما قبل التاريخ. من ناحية أخرى لا يمكن للقوميّة الأفريقيّة أن تعتمد على زرع ثقافة أوروبّيّة في أفريقيا على نحو ما جرى في أميركا اللاتينيّة. كما أنّ الاستعمار دام في أفريقيا أقل بثلاثة قرون ممّا دام عليه في أميركا اللاتينيّة، كما أنّه لم يكن استعماراً بشريّاً، بل استعمار استغلال بحت. لقد كانوا يذهبون إلى أميركا اللاتينيّة كيما يبقوا، بينما كانوا يذهبون إلى أفريقيا كي يغتنوا، ويعودوا بعدها إلى الوطن. أي إنّه ليس للاستعمار تاريخ في أفريقيا، فهو مجرّد فصل من فصول التاريخ الأوروبّيّ. إذن، وفي غياب أيّ نوع من التاريخ، من أين يمكن للقوميّة الأفريقيّة أن تتّخذ أسسها؟

تكمن المفارقة في أنّه رغم عدم وجود أرضيّة ملائمة للقوميّة، فإنّ أفريقيا السمراء مجبرة، إذا صحّ القول، على اختراع مثل هذه الأرضيّة، بما أنّ فيها العديد من الأمم. ولنأخذ مثالاً على هذا، أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة. فالأمر غير «التاريخيّ» على وجه التحديد في هذه المنطقة الشاسعة هو أمر بسيط جدّاً. فقبل التدخّل الفرنسيّ لم يكن هناك فقط إلّا القسم الأخفض والأكثر تسطّحاً والأشدّ جفافاً في جميع القارّة الأفريقيّة. أي إنّه وضع طبيعيّ ولا علاقة له بالتاريخ على الإطلاق،

وقد حتّم شكله هذا تعاقب المناطق المناخية الثلاث الكبيرة التي تحجز أفريقيا من الشرق إلى الغرب، من الأطلسيّ إلى البحر الأحمر: وهي الصحراء والسافانا والغابة. إنّ آلاف القبائل، بآلاف لهجاتها وديناتها وعاداتها وتقاليدها، والتي كانت تسكن هذه المناطق الشاسعة بمقدار ما هي رتيبة المظهر، كانت تشكّل، إذا أمعنّا النظر في أعدادها وباختلافاتها، الوجه الآخر الذي يتناقض مع البساطة ومع الرتابة الطبيعيّة. بمعنى آخر كانت الفوضى القبليّة موجودة بسبب وجود الوحدة الجغرافيّة.

ثمّ جاءت فرنسا فتوقّف هذا الوضع ما قبل التاريخيّ، إذا صحّ التعبير. لكنّ هذا لم يكن السبب الذي أدّى عمليّاً إلى بدء التاريخ. فلقد سُجِّي جسم أفريقيا العظيم على طاولة المشرحة، في مؤتمرات الإمبرياليّة الأوروبّيّة ثمّ جرى «تقسيمه» بينهم. فأخذت جزءاً من أفريقيا كلُّ أمّة من الأمم الأوروبّيّة، وتمّ ذلك بحسب معايير أوروبّيّة بحتة. ثمّ قامت فرنسا بتقسيم قسمها، أي أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة، إلى عدّة أقسام، وسمّت كلّ قسم باسم مستعمرة. مستعمرة السنغال، غينيا الفرنسيّة، ساحل العاج، داهومي، السودان الفرنسيّ، فولتا العليا، موريتانيا، النيجر. ثماني قطع في ثماني مستعمرات.

كان عام 1895. ولم تدم فترة المستعمرات إلّا سبعين سنة، هي فترة أقسام أفريقيا الثمانية التي لم تكن تعني أيّ شيء بالنسبة للأفارقة، الذين ما زالوا مرتبطين بالثقافة القبليّة وباقتصاد الصحراء، وبالسافانا وبالغابة، بينما كانوا يشعرون بشعور محدّد نحو المستعمرين. وحوالي عام 1960 أو قبل ذلك، تمّ «تحرير» أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة وتحوّلت «المستعمرات» فجأة إلى «أمم». فهناك أمّة مالي وأمّة السنغال وأمّة موريتانيا وأمّة ساحل العاج وأمّة فولتا العليا وأمّة النيجر وأمّة غينيا. لكن كان هناك في أساس الأمم، وما زال هناك في أساسها، حقيقة لا يمكن إنكارها ولا يمكن كبتها، أي الأراضي الشاسعة، وهي حقيقة بسيطة (صحراء وسافانا وغابة) مع أنّها معقّدة أيضاً -آلاف من القبائل-

وكانت موجودة قبل الغزو الاستعماريّ. وهكذا وبمفارقة أفريقيّة بحتة، أدّى الاستقلال وتحوّل المستعمرات إلى أمم، مع عدم وجود جذور تاريخية لذلك، إلى خلق القوميّة، لكن بالاسم وليس بالفعل. إنّ قوميّة الموظّفين الإداريّين الأفارقة، الذين حلّوا في كلّ مكان محلّ الموظّفين الإداريّين الأوروبّيّين، لكن من غير الإساءة إلى المصالح الأوروبّيّة (عدا غينيا سيكوتوري)، بل إنّهم أصبحوا ممثّليها الشرعيّين. نجمت عن هذا نتائج مختلفة كثيرة، منها تحوّل الثقافة الأفريقيّة إلى مجرّد فولكلور سياحيّ. ففي اليوم التالي من ذلك الاستعراض الموسيقيّ الراقص في النادي الليليّ، قمنا بجولة سياحيّة في مدينة باماكو. فرأينا الأحياء التي تنتشر فيها الفيلّات والبيوت التي كان يسكن فيها ذات يوم موظّفو الإدارة الفرنسيّة والتي تقطنها اليوم البرجوازيّة الأفريقيّة الناشئة. وهي برجوازيّة تنطق بفرنسيّة طلقة، وتسكن في بيوت مؤثّثة بأثاث على الطراز السويديّ، ومزوّدة بجميع الأدوات الكهربائيّة المنزليّة الضروريّة، كما يوجد على جدرانها نسخ من لوحات مدرسة باريس[1]. لكنّ جذور هذه البرجوازيّة لم تكن في باماكو المتصرّفيّة الفرنسيّة سابقاً، والعاصمة الإداريّة حاليّاً، بل في القرى التي ما زالت تعيش على الطريقة التقليديّة، وفي جوّ لا يمتّ بصلة إلى الحركة القوميّة، بل يتّصف بالمزاج الأفريقيّ إذا صحّ التعبير وبحسب شرائع الصحراء والسافانا والغابة.

بعد جولة في المدينة صعدت بنا السيّارة على تلّة، هي الوحيدة في ذلك السهل الشاسع، الذي يدور حول باماكو من جميع جهاتها. وقفت السيّارة في فسحة من الأرض حمراء مثل الصدأ، وأخذنا نمتّع أنظارنا بمشهد باماكو. ظهرت لنا المدينة حينها شبيهة برسم صغير مُبْيَضّ، وسط سجّادة يعمّها اللون الأخضر. فهنا، على طرفي نهر

1- مدرسة باريس École de Paris تشير إلى الفنّانين الفرنسيّين والمهاجرين الذين عملوا في باريس خلال النصف الأوّل من القرن العشرين، وهي ترمز إلى أهميّة المدينة كمركز فنّي في الغرب كلّه. ومن أهمّ فنّانيها الأوائل برزت أسماء بيكاسو وشاغال وموديلياني ومودريان وماتيس. (م)

النيجر الكسول والعريض والشفّاف، طرّز الأوروبّيّون على قماش السافانا الأخضر المترامي الأطراف صورة هندسيّةً للمدينة، ورسموها بشوارعها المستقيمة، المتصالبة بزوايا قائمة. لكنّ السافانا بقيت ممتدّة بشكلها الرتيب في جميع الاتّجاهات وإلى أبعد، بل أبعد بكثير، من حدود مالي السياسيّة والـ «قوميّة». إنّها تمتدّ بشكل غير واقعيّ بسبب رتابتها واتّساعها الشاسع، لكنّها، ولأنّها غير واقعيّة، فهي الشيء الواقعيّ الوحيد في هذا القسم من العالم. ونحن نرى فوق السافانا اللامتناهية سماء أفريقيا، ذات الزرقة الباهتة، سماء رحبة بصورة غير واقعيّة أيضاً، بآفاقها الضبابيّة من شدّة الحرارة، وغيومها البيض الشاردة.

وهكذا فيبدو أنّ ضخامة السماء، وضخامة السافانا تتكاتفان لتجعلا مساكن باماكو مجرّد بقعة بيضاء صغيرة، منتظمة، لكنّها تافهة بلا معنى ولا تكاد تبين. لذلك فإنّ مستقبل أفريقيا يكمن على الأرجح في التناقض بين ضخامة طبيعتها ورتابتها، وبين الزيف الاعتباطيّ الذي يميّز تلك الأمم التي زرعت فيها. لكنّ تاريخ أفريقيا قد يبدأ في الغد القريب انطلاقاً من هذا التناقض.

تيمبوكتو[1]

تيمبوكتو، أيّار 1970

تنبئك الطائرة في إفريقيا بأكثر مما تنبئك به السيّارة، لأنّ إفريقيا متكرّرة رتيبة ويمكن للمرء وهو داخل الطائرة أن يتأمّل الرتابة والتكرار بينما عليه أن يعاني منهما وهو داخل السيارة. لأنّك قادر في الطائرة وليس في السيّارة على أن تحيط مثلاً بوحشية السافانا المطلقة حيث تتكرّر بتوالٍ رتيب ملايينُ شجيرات الآكاسيا فوق ملايين الكثبان الرملية. جاء الآن دور واحد من الأهوار اللامتناهية التي تتجمع وتركد فيها مياه إفريقيا الداخلية. هذه حالُ مستنقعٍ إن صح التعبير تشكّل في أقصى شمال المنعطف الكبير حيث يستدير نهر النيجر ليفقد هناك شكل النهر. لقد طرنا فوق هور النيجر هذا لأكثر من ساعة دون أن نرى له نهاية. كان لونه أزرق باهتاً شافّاً تتوزّع داخله ألسنة وبرازخ أرضيّة خضر باهتة لتشكّل فيه الكثير من الأحواض الصغيرة والبرك والأقنية والمجاري والبحيرات والسبخات. إنّه عالم برمائيّ نشاهد من الجوّ أن لا حدود دقيقة تفصل فيه بين الأرض والماء. نلمح من حين لآخر بقعةً بنيّة تعلو أقصى رأسٍ أرضيّ مخضرّ: إنها بلدة. هكذا وصلنا بعد ساعة من الطيران فوق قلب إفريقيا المائي إلى تيمبوكتو.

1- نشر هذا المقطع في كتاب «مختارات من الأدب الإيطاليّ الحديث» الصادر عن الهيئة العامّة للكتاب في سوريّة. (م)

إنّه ولا شكّ اسم كبير أو بالأحرى معتبر وعريق (والواقع أنّه لم يحدث هنا أيّ شيء تاريخيّ، ما لم نرغب بتسمية النزاعات بين قبيلتي فولبيه والطوارق بأنّها تاريخيّة) لكنّه ليس أكثر من اسم. تيمبوكتو ليست إلّا مدينة قوافل من النوع الذي صوّره روستوزيف في دراسته عن تدمر، كانت ذات مرّة ترسل وتستقبل القوافل من وإلى تونس والجزائر والمغرب وساحل العاج ونيجيريا. أمّا اليوم فالبضائع تشحن بالبحر وأصبحت قوافل تيمبوكتو مجرّد مجموعات من الإبل التي تنقل شرائح مثل الرخام الزهريّ لكنّها من صخور ملحيّة يستخرجها محكومون بالأشغال الشاقّة من منجم في مالي يقع في قلب الصحراء على مسافة ألف كيلومتر من المدينة. تيمبوكتو باختصار ليست إلّا بلدة لا يتعدّى عدد سكّانها الخمسة عشر ألف نسمة. لربّما كان لها مستقبل سياحيّ، لكن ليس أكثر من ذلك.

جبنا المدينة بالسيارة وزرناها كلّها في نصف ساعة أو أكثر بقليل ذلك رغم جهود دليلنا المتعصب لمدينته الذي كان يريد أن يمدّد النصف ساعة إلى ساعتين أو ثلاث ساعات. ماذا هناك في تيمبوكتو؟ نصبٌ حديث أقيم في ذكرى الاستقلال، بيتٌ عليه لافتة رخاميّة تحيط بالمكتشف الفرنسي كايليه الذي كان أوّل من أقام هنا سنة 1828 بعد الرحّالة الأسطوريّ ابن بطّوطة، سوقٌ صغيرة على ساحل النيجر، ثمّ الأبنية الإداريّة المعتادة. وفي النهاية المسجد.

مع أنّه أصغر من مسجديْ دجونيه وموبتي، فإنّ هذا المسجد يُبرز أمارةَ نُبلِ وعراقةِ هذه البلدة الإفريقيّة النائمة التي لا يوجد في أزقّتها المقفرة التي تجتاحها رمال الصحراء القريبة حتّى تلك الدكاكين التقليديّة التي تدلّ في أمكنة أخرى على قِدَم الصناعات اليدويّة. فالمسجد يشهد في الواقع أنّ البلدة تشكّل عملياً جانباً من جوانب الثقافة السودانيّة الأخّاذة القديمة الشبيهة بالسافانا بل هي تعبير مباشر عنها. لأنّ السافانا هي مزيجُ الأحراج مع الصحراء، والسودان كان وما يزال مزيجاً من العالم

العربي الرعوي والمسلم[1] مع العالم الزنجيّ الفلاّحيّ الوثنيّ. إنّه من الأسهل «الإحساس» بروعة السودان التاريخيّ من تحليله. وإذا بسّطنا الأمور كثيراً نقول إنّه يكمن في تبنّي الأفارقة، وهم مزارعون مسالمون مستقرّون لكنّهم بدائيّون، لدينِ رُحّلٍ عسكريٍّ كالإسلام الذي عوضاً عن أن يحارب بدائيّتهم (كما فعلت وما تزال تفعل المسيحيّة) بدا أنّه رمى ولأغراضه الخاصّة، إلى تحريرها وإطلاقها من عقالها. نقل الإسلام زنوج السودان من مجتمع تجمعيّ خاصّ إلى مجتمع من نوع آخر إقطاعيّ وأكثر حداثة نسبيّاً. كما أنّه استبدل المخاوفَ الغامضة التي تمليها الوثنيّة ليضع محلّها اندفاع التطرّف التوحيديّ.

مسجد تيمبوكتو السودانيّ هو تعبير معماريّ عن تحوّل «الزنجيّة» إلى المعاني الإسلاميّة[2]. كلمة السودان مستمدّة من التعبير العربي «بلاد السودان» الذي يعني بلاد الزنوج السود، لكنّ المسجد يجعلنا ندرك أن بلاد السود هذه قد تأسلمت بصورة جذريّة. لا يوجد في هذا البناء شيء طبيعيّ، سحريّ، شيطانيّ مثلما هو موجود في أكواخ سحرة الغابات الاستوائيّة، كما ليس فيه حتّى أيّ شيء صوفيّ، ثقافيّ، ومصقول كما هو الأمر في مساجد المغرب ومصر. فمسجد تيمبوكتو يبدو مثل قلعةٍ بربرية. قلعة غير مصنوعة من حجارة أو طوب بل من طين طهته الشمس، طين يسميه الفرنسيّون pise' والإسبانيّون adobe. إنّه أفقر مادّة على الإطلاق، تستخدمه الشعوب النامية عادة في مناطق الأرض الجافّة: إيران، تركيا، المكسيك، السودان، جزيرة العرب، لكنّه مادّة تعبيريّة جدّاً.

عمَّ تعبّر مادّة adobe؟ عن الفقر، البؤس: فضلاً عن شيء من عدم

1- في الأصل الإيطالي: «المحمديّ» نعتٌ دخل في الإيطاليّة ليدلّ عن خطأ أو عن قصد على الإسلام. (م)

2- في الأصل الإيطالي: «المحمديّ» نعتٌ دخل في الإيطاليّة ليدلّ عن خطأ أو عن قصد على الإسلام. (م)

التكيّف ونوعٍ من الفخر والكبرياء، وهناك في الأبنية الأكبر كما هو الأمر في المساجدً السودانيّة مثلاً، عدوانيّة بربريّة وحربيّة متطرّفة. أي تلك البدائيّة الزنجيّة التي تحرّرت من الوثنيّة وتوطّدت بالتطرّف الإسلاميّ.

قلنا إنّ المسجد يشبه القلعة بأسواره المقرنصة كما تنتصب على زواياه الأربع أربعة بروج مخروطية مكبوسة تحلّ محلّ المآذن الرشيقة الرقيقة. لكنّ ما يعطي البناء طابعه البربري هو عنصره التزيينيّ المتمثّل بتلك البروزات السود الكثيرة التي تخرج كأشواك القنفذ من السور ومن الأبراج. إنّها وبكل بساطة أطراف العوارض التي تشكل بنية العمارة، وهي تعطي البناء سمة عسكريّة مُهدِّدَة لا علاقة لها بالمعاني الدينيّة التأمليّة، خاصّة عندما نراها ممتدّة في الفضاء حادّة الشكل سوداء اللون فوق الطين ذي اللون الفاتح. ما يؤكد هذا الانطباع هو العري الكهفيّ المغبرّ الظاهر في الغرف والممرّات والسلالم. والحقيقة أنّ كلّ هذا المسجد السودانيّ هو في هذا، أي في هذه الأسوار المقرنصة وفي هذه الأبراج التي تعجّ بأشواك القنفذ، لكن لا بُدَّ من الاندهاش أمام قوّة الفنّ الإيحائيّة حتّى لو كان هذا الفن بدائيّاً خشناً قليل التفاصيل كما هو حال هذا المسجد. لقد عاودتني بمجرّد رؤية هذه الأبراج ذكريات عن ملوك ومحاربين مسلمين سود قابلهم الأوروبّيّون في الماضي في ساحات الحرب والسلام. بل إنّ ذكر بعض أولئك الأشدّاء جاء حتّى في القوائم الهزليّة الموجودة في كتابي «دون كيشوت» و«أورلاندو الشرس». كما أنّهم ما زالوا يعيشون في البنى الإقطاعيّة لمجتمعات السافانا.

عدنا بعد زيارة تيمبوكتو إلى الفندق وجلسنا على الشرفة. كان هناك أمامنا زاوية من أفريقيا السودانية، صغيرة لكن كاملة. يشكّل نهر النيجر فيها بحيرة ممتعة، تتمايل على ضفافها أشجار النخيل الباسقة المتفرعة الأغصان. وكانت كثبان الصحراء تختال وراء أشجار النخيل، وكان عليها قطيع كامل رابض من الإبل. فجأة نرى حركة معيّنة ضمن هذه اللوحة الجامدة الثابتة. تنهض الإبل جملاً بعد الآخر، وتهبط نحو البحيرة لتنهل

من مياهها. تطيل أعناقها نحو الماء أو ترفع خطومها لتصدر صرخات طويلة مبحوحة. يحدث في الوقت نفسه أمر مماثل على الشرفة. هناك فرقة مؤلفة من ثلاث عارضات أزياء باريسيّات وبعض المصوّرين يتحرّكون ليصوّروا أمام منظر البحيرة والنخيل والكثبان والإبل آخر موديلات الأزياء الصيفية. تتصنّع الفتيات حركات التحدّي المضحكة التي أصبحت اليوم إجباريّة في هذا النوع من العروض. بينما يقوم المصوّرون بالتقاط الصور بسرعة وضراوة قبل أن تذهب الإبل.

ستُنشر هذه الصور في أوروبّـا في مجلات الموضة على أوراق لمّاعة، ولا بُدَّ أن يفكّر بعض من يراها قائلاً في نفسه: « إلى أين سيصل هذا التصنّع؟ لقد صمّموا خلفيّة عليها زاوية من أفريقيا ليعلنوا عن بعض الخروق والمزق». لكنّ هذا ليس صحيحاً لأنّه لم يجرِ تصميم أيّة خلفيّة. بل إنّ خمس ساعات طيران كانت كافية لتنقل عارضات الأزياء من باريس إلى تيمبوكتو، فاستخدمن المدينة فيها كخلفيّة مرسومة جاهزة. أي إنّ تيمبوكتو قد تمّ «استهلاكها». ونعرف أنّ كلمة الاستهلاك أصبحت الآن كليشّيه شائع الاستهلاك. غير أنّ عارضات الأزياء لم يأتين إلى تيمبوكتو إلّا بحثاً عن المظاهر الشائعة.

طوارق للسيّاح

تيمبوكتو، أيّار 1970

توجّهنا نحو مخيّم للطوارق على مسافة حوالي مئة كيلو متر من تيمبوكتو. ومن الطبيعيّ أنّه لا توجد طريق معبّدة بل مجرد مسار. وهكذا فقد كنّا نسير بسرعة ثلاثين كيلومتراً في الساعة، نقتفي الآثار العميقة التي خطّتها في الرمال سيّارات سبقتنا. كنّا نسير، لكنّنا نتوهّم أنّنا واقفون لأنّ المناظر لا تتغيّر مهما سرنا. هناك منظر واحد يطلّ علينا من جميع الجهات: كثبان رمليّة، شجيرات منخفضة ومنتصبة، وقليل من شجيرات الأكاسيا الشوكيّة على شكل مظلّة. لا توجد حيوانات برّيّة، ولا توجد جمال، ولا أغنام ولا ماعز. ومهما امتدّ النظر بعيداً فإنّ الغابات تبدو فارغة، ومع ذلك فقد كنا نرى في كثير من الأماكن بقايا سود لنيران خبت في مخيّمات زالت، فضلاً عن فضلات روث جمال وماعز... فأين ذهبت تلك الحيوانات وأين ذهب الناس الذين كانوا يرافقونها؟ من يدري، لأنّ السافانا لا تقدّم جواباً عن أسئلة مماثلة. تقدّمنا قليلاً على طريق المسار، قبل أن ينحرف عنه السائق، وهو شابّ زنجيّ ذو مظهر تأمّليّ زائف، وينطلق عموديّاً عبر الغابة. ثمّ ها نحن نصعد على الكثبان ونهبط منها لنتجنّب شجيرات الأكاسيا ونقتحم باندفاع كارثيّ وسط الأجمات. ومع أنّ سرعتنا كانت أقلّ من السابق، فإنّ عنفها كان يعطي انطباعاً بالسرعة الفائقة.

بعد حوالي ساعتين من هذا الجري بين العقبات والصعاب، بدأ نظرنا الذي بهرته الأضواء الحادّة وأعماه الغبار، بدأ يميّز أولى التغييرات: فالكثبان أصبحت عارية، وقلّ عدد الأشجار والشجيرات، كما بدأت الصحراء تطغى على الغابة. ثمّ، رأينا عند المنعطف بيتاً مربّع الشكل على طرف المسار، كان على عتبة البيت رجل يرتدي بزّة ويضع مسدّساً في حزامه. إنّها نقطة شرطة. ثمّ الكثبان مرّة أخرى، وتكاد تكون خالية من الأشجار. في النهاية شاهدنا، من أعلى تلّة رمليّة، مخيّم الطوارق.

كان ينتصب في أعماق وادٍ من الرمل الأبيض، على شكل دائريّ نوعاً ما. كانت الخيام متمركزة حول أطراف الوادي، وتشكّل مكاناً مركزيّاً يشبه الساحة في القرية. وكانت بنيّة اللون، مليئة بالأوبار لأنّها مصنوعة أصلاً من جلود الإبل والماعز والغنم وقد خيطت ببعضها كيفما اتّفق. كان لكلّ خيمة سور قائم على أوتاد، ويكشف وراءه النسوة وهنّ منهمكات في صنع الطعام، أو حيوانات الطوارق الأهليّة مثل الدجاج والأغنام والماعز والحمير. أمّا المكان المركزيّ فكان مخصّصاً على ما يبدو للاجتماعات والألعاب ومختلف الأنشطة، تماماً مثل ساحات القرى. كان هناك أيضاً أشخاص تبدو عليهم ملامح الوقار والكبرياء، ملثّمين بقماش أزرق غامق اللون يغطّي كلّ الوجه عدا فتحة تبدي العينين، وكانوا يتمشّون برزانة في جماعات من ثلاثة أو أربعة أشخاص، وكذلك كانت مجموعات من النساء، بعباءاتهنّ الزرق، يتبادلن بهمّة أطراف الحديث، بينما كان يجري الأطفال وراء بعضهم بعضاً أو يتصارعون فوق الرمال. لكنّ ظهورنا المفاجئ أدخل في حياة المخيّم الهادئة تغييراً واضحاً.

توقّف الأطفال عن الجري وجاؤوا ليعرضوا علينا بعض الدمى أو العلب الجلديّة الصغيرة. كما جرت النسوة أيضاً وأخرجن من جيوب التنانير سلاسل وأساور وأقراط وخناجر من الصناعات المحلّيّة. أمّا الرجال فلم يغيّروا سلوكهم، لكنّ رزانتهم وكبريائهم توشّحتا بقسمات

جديدة. علينا على الأرجح أن نسمّيها قسمات استهلاكيّة، لأنّهم همّوا هم أيضاً بالتوجّه لبيع شيء ما للسيّاح. لم يكن هذا الشيء حلى ولا دمى، بل هو مظهرهم الخلّاب كرجال من محاربي الصحراء الغامضين.

«أطلانطيس»! تفاجئ الخيال ذكرى من الثلاثينيّات عن فيلم بابست[1]، والذي مثّلت فيه بريجيت هيلم دور أنتينيا ملكة الصحراء. انحدرت وقتها أسطورة الصحراء الغامضة المرتبطة بأسطورة حضارة الطوارق الأشدّ غموضاً، لتصبح أمراً مألوفاً وتعبيراً شائعاً، ممّا أدّى إلى صنع فيلم ناجح عنها. كان بابست في فيلم «أطلانطيس» ينقل المشاهد من كهوف أطلانطيس الفاخرة إلى سيقان راقصات الـ «كان كان الفرنسيّ»[2] على مسارح المنوّعات في باريس. كما كان يثب به من الحضارة الأوروبّيّة إلى الحضارة التي كان يتخيّل أنّ الصحارى تخفيها بين حنايا غموضها. وكان يُظّن أنّ الطوارق من قدماء المحاربين هم حرّاس تلك الحضارة. ولم تكن أسطورة أطلانطيس وقتها إلّا خرافة تتسلّى بها جماهير السينما، لكنّها تشير مثلها مثل جميع الأساطير، إلى شيء ما رأيناه يتحقّق اليوم بكلّ واقعيّته. فعلى ما يبدو، تمّ في تلك الأنحاء من الصحارى التي تتبع جمهوريّة النيجر، اكتشاف مناجم اليورانيوم. حتّى إنّ فرنسا شيّدت هناك قرى نموذجيّة لسكنى الفنيّين والعمّال، فضلاً عن تسيير خطّ جويّ يربط بين باريس وهذه القرى. هذا يعني أنّ أطلانطيس قد بعثت اليوم على شكل معدن ثمين ضروريّ للسلاح النوويّ. لكن ماذا عن الطوارق؟ كانوا في الأسطورة مجرّد قشرة بالية تغطّي ثمرة لذيذة، يضمنون بتخلّفهم المتعنّت انعزال أطلانطيس. وإذا كانت الصحراء أضحت الآن ذات واقع يفوق الخيال بسبب ما فيها من الطاقة النوويّة الحراريّة، فقد بدا كأنّ الطوارق قد دُفع بهم بالتدريج نحو هامش التاريخ، في عملية تشبه ما جرى للقبائل الهنديّة في المحميّات الأميركيّة الكبيرة. إنّ الضربة

1- G. W. Pabst مخرج أسترالي (1885-1967). (م)

2- «french cancan». (م)

القاصمة التي ضربت أسطورة الصحراء هي، وكما في العادة، ضربة اقتصاديّة. ففي البداية انتهى عهد الجمل كوسيلة نقل، ليبقى مجرّد واحد من أنعام الحليب واللحم والجلود. ثمّ وبعد ظهور مناجم اليورانيوم حدث في الصحارى ما كان قد حدث في صحارى الولايات المتّحدة: عندما انتشرت المحطّات الذريّة على بعد خطوات من خيام الهنود. هذا بينما واصل الطوارق استغراقهم في أحلام ثقافة صحراويّة بدائيّة كما لو أنّ العالم ما زال على عهد ابن بطّوطة. نظرت إليهم وهم يتجمّعون حولنا ويعرضون علينا منتجات صناعاتهم اليدويّة الخاملة. كان فيهم جميعاً جمال خارق وصفاء في المعالم. كانوا سمراً بملامح قوزاقيّة، عيونهم سود مآقيها برّاقة كأنّها من حجر زجاج السجّ البركانيّ. أنوفهم نبيلة المظهر خياشيمها مجعّدة رؤوسها بعض الشيء منحنية. أفواههم متعجرفة. وبما أنّهم لا يعرضون بضاعتهم بإلحاف مزعج فقد يظنّ أنّهم يعرضونها لمجرّد تمضية الوقت. بل إنّ بعضهم يلتفتون عنّا ليتحدّثوا فيما بينهم، أو يلحقون بنا متكاسلين، من غير أن يطلبوا شيئاً. من الواضح أنّهم أناس كسالى، خاملون وغير مهتمّين.

لكن من يعمل في المخيّم؟ تظهر هنا أيضاً بدائيّة الطوارق الذين ما زالوا حتّى اليوم يعهدون بجميع الأعمال المنزليّة إلى عبيد سابقين أو إلى عبيد من نسلهم. وينتمي هؤلاء العبيد بدورهم إلى قبائل زنجيّة تعيش منذ زمن سحيق في تناغم تامّ مع الطوارق. وقد تكلّمت عن تناغم وليس عن عبوديّة لأنّ التعبير البيولوجي يبدو لي أصلح من التعبير الاجتماعيّ في وصف العلاقة بين الطوارق وبين عبيدهم الزنوج. ها هم العبيد يعملون داخل سور إحدى الخيام، إنّهم ثلاث نساء شعورهنّ مُصوّفَة، وجوههنّ بسواد الفحم، أنوفهنّ عريضة وشفاههنّ عظيمة. كنّ عاريات حتّى الخصر الذي يلفّه قماش مربوط على الوركين، ويظهرن بمظهر يختلف كلّيّة عن أشكال سيّداتهنّ من الطوارق الملفوفات حتّى العيون. كانت النساء الثلاث يمسكن بأذرعهنّ الممدودة بمدقّات طويلة

ضخمة ويهوين بها بقوّة، ليطحنّ داخل حوض خشبيّ كبير، ولا أدري أيّ نوع من عصيدة الحبوب، وذلك لتقديمها على مائدة الطوارق.

قبِلنَ التصوير بكلّ سرور وهنّ يواصلن الدقّ والطحن لكن بعد أن التفتن نحونا بوجوههنّ الضاحكة وهنّ ينظرن إلينا من غير أيّ خجل. ربّما كنّ سعيدات بوضعهنّ العبوديّ هذا (أو إنّهنّ حقّاً كذلك).

وماذا عن الجِمال؟ لا يوجد هنا جمال، فهي ترعى ومن يدري أين، بعيداً عن المخيّم. لكنّ هناك جملاً واحداً أبقوه للسيّاح الراغبين بالصعود على ما يسمّى «سفينة الصحراء». وهكذا فقد تسلّق رفاقي الواحد بعد الآخر وجلسوا على السرج الخشبيّ، وهنا نهض الجمل على مراحل، وهو يرغي ويزبد، ليحتج ربّما ضدّ السياحة، قبل أن يستسلم ويقوم بجولة في أنحاء المخيّم. لكنّ الطوارق يملكون حسّ دعابة متطوّر. فعندما صعد آخرُنا على الجمل، وكان رجلاً بديناً جدّاً، رأيت الجمّال وهو يفكّ بسرعة حزام السرج من تحت بطن الجمل، وعنما رفع الجمل قائمتيه الخلفيّتين انزلق السرج وسقط السائح من على ظهر الجمل ووقع شرّ وقعة فلامس أنفه رقبة الحيوان، وذلك وسط قهقهة الطوارق الذين كانوا على الأرجح ينتظرون ومنذ البداية هذا المزاح من طرف زميلهم الجمّال.

بدأ الظلام ينتشر عندما قرّرنا العودة، فعاد السائق ذو الهيئة التأمّليّة ليسير على طريق الكثبان. على حين غرّة وجدنا أنفسنا في منطقة مليئة بالأحراج، ولا يوجد فيها أيّ أثر لمسار الطريق. كانت السيارة تصعد وتهبط على الكثبان وتتسلّق بصعوبة بالغة فوق الأجمات والنباتات، وتقطع في طريقها أغصان الشجر. ثمّ رأينا على حين غرّة بحيرة مخيفة لونها أزرق داكن، بل أسود تقريباً، خمدت فيه حمرة الغروب. هنا اضطرت السيّارة للتراجع بعد أن اصطدمت بمجموعة شجيرات أكاسيا. لكنّه بمجرد أن التفّ السائق حول هذه الشجيرات، حتّى برزت أمامنا بحيرة أخرى. فعمل السائق عندها على اختراع مسارات غير موجودة بين الكثبان والأحراج والشجيرات المتشابهة. لكنّ عدد البحيرات

تضاعف، فشعرنا بأنّنا قد ضعنا، بينما كانت السيّارات تجري هنا وهناك على غير هدى كأنّها صرصار مجنون.

رأينا من بعيد شخصاً يسير ببطء وهو يتوكّأ على عصا طويلة. ما إن اقتربنا منه حتّى عرفنا أنّها امرأة عجوز. كانت عارية حتّى الحزام، وجهها كالرجال، عليه تكشيرة اكتئاب غريبة من ألم قديم. كان ثدياها متدلّيين حتّى الخصر، مسطّحين ومشدودين بشكل يدعو إلى التفكير بقفّازين فارغين طويلين حتّى الكوع. سألناها إذا كانت تريد أن تركب معنا، لكنّها رفضت وطلبت الماء. فقدم لها السائق زجاجة ماء بسعة ثلاثة ليترات. رفعت الزنجيّة الزجاجة إلى فمها وشربت لمدّة خمس دقائق متواصلة بدون انقطاع. لم أرَ في حياتي من يشرب هذه الكمّيّة. من الواضح أنّ العجوز كانت منهكة وهي تفعل ما تفعله الإبل قبل السفر، أي إنّها تملأ بطونها بالماء، وهو وقود الصحراء. بعد ذاك أعادت الزنجيّة الزجاجة فارغة، ودلّتنا على الطريق ثمّ انصرفت.

وهكذا وصلنا في الحال تقريباً إلى الطريق الرئيسة، حيث كانت تنتظرنا مفاجأة جديدة. أبطأت السيّارة ثمّ توقّفت، فلقد نفد الماء من جهاز التبريد. شعر السائق بالحرج بعد أن اكتشفنا أنّ كلّ ذخيرته من الماء كانت في تلك الزجاجة التي أفرغتها الزنجيّة العطشى. ها نحن واقفون من جديد في ضوء القمر الذي يثير الأشباح خاصّة وأنّه أضاء على الرمال أمامنا هيكلاً عظميّاً لحمار لا بُدَّ أنّه نفق من شدّة العطش في ذلك المكان المنعزل. انتظرنا ساعتين قبل أن يظهر من جديد الشبح الأبيض لسائقنا وهو يتهادى بين شجر الأحراج، ملوّحاً من بعيد كالمنتصرين بالزجاجة التي ذهب ليملأها من بئر الرحّل. وهكذا فقد انطلقنا من جديد. وما إن قطعنا حوالي كيلومتر حتّى ظهرت أمامنا تيمبوكتو بأضوائها القليلة الضعيفة. وكان منظور السافانا المخادع قد أوهمنا أنّنا بعيدون عنها بحوالي ثلاثين كيلومتراً عندما كنّا قريبين من المدينة بمئات الأمتار فقط.

أشجار الباوباب الشبيهة بالبشر

باندياغارا، حزيران 1970

لماذا تشكّل أشجار الباوباب في أفريقيا، مصدر دهشة نهمة ومتواصلة ومتأمّلة بالنسبة للأوروبّيين؟ ربّما لأنّ الحضارة الأوروبّيّة هي حضارة (أو أنّها على الأقلّ كانت) تتمركز حول الإنسان[1] وتحاول إضفاء صفات الإنسان على بقيّة المخلوقات والأشياء[2]، ولأنّ شجرة الباوباب هي، دون أدنى شكّ، أكثر الأشجار في العالم شبهاً بالإنسان. أنظر، الآن، إلى أشجار الباوباب بينما تجري السيّارة عبر السهوب التي تقطنها، كما يحضرني أن أقول. ها هي ثلاث منها في الصفّ الأوّل، جذورها ضخمة متفرّعة كالأغصان، وأغصانها دقيقة جرداء كالجذور. كما أنّها متعدّدة الجذوع بحيث تبدو مثل كتل مربوطة ببعضها. كان وراء هذه الثلاث ستّ شجرات أخرى في الصفّ الثاني واثنتا عشرة شجرة في الصفّ الثالث، ثمّ أشجار أخرى كثيرة وكثيرة جدّاً على مدّ النظر عبر السهل الشاسع المليء بالشجيرات المنخفضة. وهي مثل الإنسان، كثيرة العدد، لكنّها متنوّعة الهيئات، كلّ واحدة تختلف عن الأخرى، تبدو كأنّها تتلفّت وتومئ لكنّها ثابتة جامدة. وهي شبيهة بالإنسان أيضاً من حيث إنّ أطرافها السفلى أضخم من تلك العليا، كما تبدو قشرتها مثل جلد ناعم، دهنيّ مرن القوام. والأهمّ

1- anthropocentric. (م)

2- anthropomorphic . (م)

أنّ لها تعابير بشريّة، حتّى ليقال إنّها متحرّكة. إذ يبدو كأنّ هذه الوحوش النباتيّة تحرّك أذرعها وهي تجري نحونا بخطى متسارعة من الآفاق البعيدة.

لماذا أردت أن أؤكّد على بشريّة الباوباب؟ لأنّنا عندما انعطفنا عن الطريق الرئيسة، ودخلنا في درب فرعيّ، أصبحنا في بلاد الأوغوني، وهم شعب قليل له اعتقاداته التي تضفي صفات الإنسان على بقيّة المخلوقات والأشياء، وقد اشتهر هذا الشعب، بل أصبح في الآونة الأخيرة موضة العصر، بعد أن أجرى حوله علماء الأعراق الإثنيّون الكثير من الدراسات خلال الثلاثين سنة الأخيرة. وبهذا تكون بشريّة الباوباب نوعاً من المقدّمة لأنتروبومورفيكيّة[1] نشأة الكون عند هذا الشعب.

تظهر على الخريطة الجغرافيّة أسماء الدول التي أنشئت على النمط الغربيّ بعد الحقبة الاستعماريّة، كلّ منها بعلمها وعاصمتها وحدودها، ذلك مثل مالي والنيجر والسنغال وفولتا العليا وغانا إلخ إلخ... وقد كتبت هذه الأسماء بحروف مطبعيّة كبيرة، كما لو ليقال: «هذه هي الأسماء المهمّة». أمّا أسماء الشعوب الأفريقيّة مثل الموسّي، الطوارق، البامبارا، البوله، الماليكنيه، المينيانكا، وهكذا إلخ قد كتبت بالحروف المائلة الخفيفة، كما ليقال: «إنّنا نسوق هذه الأسماء حرصاً على سلامة المعلومات، رغم أنّها لا أهميّة لها». لكنّ الصحيح هو عكس ذلك. فالأمم الأفريقيّة التي تشكّلت بعد الحقبة الاستعماريّة هي، حتّى الآن على الأقلّ، أقلّ «واقعيّة» من الشعوب ومن القبائل ومن المجموعات العرقيّة التي تملك أموراً ملموسة وأشدّ واقعيّة من أيّة راية تمّ رسمها على الطاولة، لتميزها عن غيرها. والواقع أنّه يتمّ اليوم التنقّل في أفريقيا، بالطريقة نفسها التي كانت تجري في أيّام هيرودوتس[2]، أي عبر مفاهيم

1- كما تقدّم: أي محاولة إضفاء صفات الإنسان على بقيّة المخلوقات والأشياء. (م)

2- هيرودوت أو هيرودوتس مؤرّخ إغريقيّ عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، اشتهر بوصف الناس والأماكن التي زارها خلال رحلاته.
كما زار العديد من مسارح المعارك والحروب بين الإغريق والفُرس أو الميديين. (م. عن ويكيبيديا)

مختلفة عن نشأة الكون. فما يميّز الشعوب هناك هو تفسيرهم ومفاهيمهم عن العالم، فضلاً بالطبع عن الأنواع المختلفة لاقتصادهم ولغاتهم وأعراقهم إلخ إلخ. ومن هنا فإن شعب الأوغون الصغير (حوالي ثلاث مئة ألف) الذي يكاد مغموراً ضمن التيّارات المسلمة، لا يتميّز عن جيرانه إلّا برؤيته للكون القائمة على فكرةٍ، ويا للغرابة، أوروبّيّة ومتوسّطيّة ومسيحيّة، تقول إنّ لله وللعالم وللكون مظاهر وبنى وأشكالاً بشريّة.

لكن لنتفحّص الآن بلاد الأوغون، بما أنّنا بدأنا بعبورها منذ ساعة على الأقلّ. لنتحقّق فيما إذا كانت طبيعة البلاد تبرّر مثل تلك الاعتقادات المتميّزة الأصيلة. خاصّة وأنّ الصحراء، مكان الوحدة والعزلة والصمت، هي والحقّ مكان مسلم. بينما من العدل أن يكون المتوسّط، المشمس والمعتدل، وثنيّاً في البداية، ثمّ كاثوليكيّاً فيما بعد. وإذا كان الشامانيّون[1] يتنقّلون طبعاً بين ثلوج ورياح أقصى الشمال، فإنّ الهند غير الواقعيّة والحزينة كانت بالطبع أيضاً بلاد البوذيّة الأولى. كانت السيّارة تتقدّم صعوداً وهبوطاً على منحدرات الطريق المحجرة، ثمّ تبيّن لنا أنّ هذه البلدة تشبه إلى حدّ كبير كثيراً من الرسوم الدينيّة، وبشكل يقترب جدّاً من لوحات البدائيّين، ويثير الدهشة من دقّة هذا الشبه. فكما في الرسوم الدينيّة نجد أنّ الأرضيّة ليست من تراب بل من ألواح أو طبقات من الحجر الرملي الرماديّ الغامق، بحيث تبدو كأنّها أرضيّة مرصوفة رغم أنّها غير منتظمة ولامتساوية. وعندما يكون هناك تراب فهو داخل ثقوب أو آبار أو أحواض أو شقوق في تلك الأرضيّة. تنمو في الثقوب أشجار الباوباب، بينما يزرع الأوغونيّون، وهم من المزارعين المهرة، يزرعون خضارهم بحنكة في تلك الأحواض وبتقنيّات زراعيّة من التي

1- الشامانية: دين بدائي من أديان شمالي آسيا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف. وإن هذا العالم لا يستجيب إلّا للشامان وهو كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث. (عن قاموس المورد) هم أيضاً من زرعوا التبغ وأول من استخدموا السجائر في الاحتفالات الدينية. (م. عن ويكيبيديا)

تضفي، هي أيضاً، صفات الإنسان على بقيّة المخلوقات والأشياء. من حين لآخر تبدو هذه الأرضيّات الطبيعيّة، المصنوعة من ألواح من الحجر الرملي، محدّدة بطريقة غير منتظمة، وكأنّها أسوار كهفيّة. عندما ننظر إليها من بعيد، تبدو بصخورها الضخمة وكتلها المستديرة، كأنّها جدران صنعها البشر، ووضعوا عليها بروجاً ودعامات وحوامل تظهر بينها فتحات عديدة، يمكن تشبيهها بالأبواب والنوافذ. أي إنّنا أمام منظر للحتّ الطبيعيّ، ظهر على هذا الشكل البشريّ الواضح، أي بشكل عمرانيّ. وهكذا بدأت تتسرّب إلى نفوسنا، شيئاً فشيئاً، فكرة تقول إنّ الأوغونيّين يعيشون في طبيعة مصنوعة على شكل بيت أو قلعة أو أيّ نوع آخر من الأبنية، التي يمكن أن تكون مسكناً للإنسان.

تابعنا السير. تلوّت الدرب بين منحدرات شبيهة بالأصابع أو الأنوف، وهي تدور حول كتل ملساء ومستديرة، تحمل على التفكير بالثدي والأرداف، وتتجاوز صخوراً متمددة، ليس من الصعب أن نتخيّلها كأنّها أجسام مستلقية، ثمّ تمرّ تحت جلاميد صخر تبدو كأنّها وجوه قاتمة اللون عليها تعابير التهديد، عيونها غائرة وألواحها تزعق. إنّه بلد أنتروبومورفيكيّ هو الآخر. أو إنّ هذا ليس إلّا انطباعاً تولّد لدينا بسبب ما قرأناه مؤخّراً عن الشعب الذي يسكن فيه؟

اجتمعنا بعد أن انعطفت بنا الطريق بأوّل الناس من الأوغونيّين. كانوا خمسة أو ستّة فتية، أجسادهم مسلوكة في أكياس من القنّب الأصفر، ووجوههم مصبوغة بالأبيض، انتصبوا بين الشجيرات وهم يهزّون أشياء تشبه النقّارات. أخبرونا أنّ هؤلاء الفتية ارتدوا هذا الزيّ، وتلوّنوا بهذه الأصباغ، لأنّهم قد خضعوا مؤخّراً لطقوس الختان. وتتطلّب هذه الطقوس منهم أن يجوبوا هكذا، لردح من الزمان، عبر السهوب. بدوا مسرورين ومدهوشين من أنفسهم نوعاً ما، فكانت الرزانة تشعّ منهم، لكنّ الحرج يبدو على معالمهم، ذلك كما يجري للفتية عندنا، مباشرة بعد المناولة الأولى في الكنيسة.

ألقينا عليهم التحيّة، فأجابوا بابتسامات عريضة، وبمضاعفة نقر نقّاراتهم، فتابعنا طريقنا. ها هو نهر خياليّ (وبلاد الأوغونيّين هي خياليّة أصلاً، ذلك كما أنّ الأشياء والأزهار والأشجار والحيوانات «تتكلّم» في الأساطير الأنتروبومورفيكيّة) محفور في أعماق جرف طويل، مياهه سوداء راكدة، وتعوم فوقها أزهار بيض كبيرة، وأوراق خضر ضخمة. هناك أيضاً جسر بدون حوافّ على شكل حدبة حمار، بينما تبدو صور النساء الأوغونيّيات وهنّ يسرن عاريات حتّى الخصر، رؤوسهنّ منتصبة تحت ثقل السلال، والصدور تتأرجح في الفراغ، شبيهات بأعمدة منتصبة نحتت في أعلاها تماثيل لعذارى[1] يسرن في أعلى الجسر، وسط بهاء نور ما بعد الظهيرة، قبل أن ينزلن ببطء من الجهة الثانية ويغبن وراءها. كانت الشمس حادّة، ومن الغريب أنّها كانت لا تقضي على الألوان. فقد بقيت هذه الألوان واضحة وحادّة، كأنّ فيها لمعاناً اصطناعيّاً غريباً، كالذي نراه في الأفلام الملوّنة.

وصلنا في النهاية إلى سانغا، وهي هدف رحلتنا. إنّها قرية اشتهرت بفضل دراسات الإثنولوجيا واللغويّات، التي خصّها بها مارسيل جريال[2] وجينيفيف كالارن جريال[3]. لو لم نكن نعرف أنّ الأوغونيّين هم أنتروبومورفيكيّين، وأنّ كلّ ما يبتكرونه أو يفعلونه، إنّما ينطلق من الإنسان، ويقلّد النموذج الإنسانيّ، لكان بوسعنا أن نعتبر سانغا قرية عاديّة من القرى الأفريقيّة (هذا إذا كان من الممكن إقرار أنّ هناك قرى أفريقيّة عاديّة في أفريقيا أو غيرها). ها هي المساحة الترابية، المستطيلة الشكل، البيضوية، التي تستعمل كساحة. ها هي أشجار الباوباب

1- تماثيل العذارى تنسب إلى عذارى قرية في جنوب اليونان يرقصن في العيد السنوي للمعبودة أرتيميس. وقد اعتبرهنّ الإغريق سبايا بسبب انضمام أهل قريتهن إلى الفرس في الحروب التي جرت مع الإغريق. وجعلوا لهن تماثيل تفوق قدودهن الطبيعية وأسموها العذارى، وحملوها سقوف المعابد. (م)

2- Marce! Griaule. (م)

3- Geneviève Calarne Griaule. (م)

بحركاتها المرعبة المعتادة، وثمارها المتدلية، على شكل عناقيد خلايا النحل المعلّقة على الأغصان القزمة، والتي تقوم بالدور الذي تقوم به أشجار الدلب في ساحات بلادنا. هناك على طرفي الساحة مواقع الردم المغبرّة، وفي قمّتها تتربّع الأكواخ المائلة بكثافة بجدرانها المستديرة، وسقوفها المربّعة والمصنوعة من الطين المجفّف الأصفر المتغضّن، ليس لها نوافذ، وشبيهة بأعشاش الحمام.

قلنا إنّها قرية تبدو مثل غيرها من القرى، والواقع أنّها بنيت وفق المبادئ الرمزيّة نفسها الموجودة في أصل الكنائس المسيحيّة. فهذه شيّدت بموجب خريطة شبيهة بالصليب، بينما شيّدت القرية بموجب خريطة شبيهة بالإنسان، لكنّه إنسان خنثى انصهر فيه الجنسان. رأسه في أحد الطرفين، والقدمان في الطرف الآخر. وكما هو طبيعيّ فهناك في الوسط اليدان والجنس الذكريّ في جانب والجنس الأنثويّ في الجانب الثاني. هناك تحت الطرف العلوي (أي الرأس) هناك الصدر بالطبع. الرأس والقدمان والصدر واليدان والجنس ليست إلّا أبنية محدّدة بوظائف محدّدة. أي إنّ القرية الأوغونيّة لم تشيّد وفقاً لحسابات منطقيّة، كما هو حال القرى التي تبنى اليوم، بل هي نتيجة تفكير من النوع الرمزيّ. فالتفكير الرمزيّ ذو البحث الدائم عن المطلق، أذِنَ بتشييد قرية «مطلقة»، أي مرتبطة بنشأة الكون ارتباطاً مباشراً. وفكرة نشأة الكون الأوغونيّة هي «مطلقة» ومن الواضح أنّه قد تمّ «الكشف» عنها في حينه.

العالم: أواني فخّار

مكتبة
t.me/t_pdf

باندياغارا، تموز 1970

أطلّ برأسي على حافّة هاوية، تقوم بين كتلتين ضخمتين. ظهرت أمامي صخرة بعيدة، كانت مثل شاطئ مرتفع معلّق فوق البحر، تمتدّ فيه الرؤوس والخلجان، قبل أن تتلاشى، بكامل ضخامتها، عبر ضباب الحرّ المنتشر في الأفق. لكنّه ليس البحر هو المنتشر تحت الشاطئ، بل سهوب شاسعة من السافانا الخضراء المزرقّة. هذا الشاطئ هو دركة من الصخر غريبة، تطلّ من السافانا على السافانا، وهو الحدّ الذي توقّف فيه الأوغونيّون، عندما انتشروا قبل عدد من القرون على سلسلة جبال باندياغارا. لا بُدَّ أنّ الأوغونيين كانوا قلائل، ربّما بضعة آلاف، وكان توسّعهم الجغرافيّ والسكّانيّ بطيئاً جدّاً: لكنّه منتشرون اليوم في أنحاء تلك الدركة، بتعدادٍ قد يبلغ الثلاث مئة ألف نسمة. تحلّوا بالجرأة بسبب عزلة المنطقة، وهكذا فقد قرّروا حفر أدراج وممرّات في الصخور، ليتمكّنوا من النزول إلى السهل في الأسفل. لكنّهم لم يملكوا الشجاعة في الابتعاد عن حصنهم الطبيعيّ ذاك. والواقع أنّه إذا تقدّمتُ بجسمي لأطلّ، أستطيع أن أرى قرية أوغونيّة بعيدة في آخر المتراس الصخريّ، لكنّها معلّقة بالمنحدر تحت الشاطئ، بكلّ أبنيتها ذات الأسقف المستديرة الصفر، التي تجعلها شبيهة بنبات الفطر. كأنّها خائفة من السهل الشاسع المنتشر أمامها. لقد بنيت هذه القرية ومن غير أدنى شكّ بموجب مبادئ نشأة الكون الأوغونيّة. فالأسقف مربّعة لأنّها

ترمز إلى السماء، وقواعد الأكواخ مستديرة لأنّها ترمز إلى الشمس. لكن عندما نشاهد هذه القرية من مكاننا في الأعلى، فإنّها تبدو مجرّد قرية فقيرة بسيطة عاديّة، بلا رموز، يسكنها فلّاحون أفارقة. أطلُّ على الفراغ، وأنظر إلى القرية وأنا مفتونٌ، وأتساءل لماذا يقوم الأوغونيّون، بل جميع الشعوب بوجه عام، بمثل هذا التفسير الرمزيّ للعالم. ليس الجواب سهلاً، لا بل إنّه مستحيل.

والواقع أنّ تفسير العالم لا يهمّ، ولا يشمل في العادة إلّا الذين يقومون بإدارته، ويدافعون عنه بعد أن قاموا بكشفه بدايةً، ثمّ أضفوا عليه الطابع المؤسّسيّ: إنّهم الكهنة، السحرة، والحكماء وإلى ما هنالك. أمّا الأشخاص العاديّون، سواء كانوا من الأوغونيّين أم من غيرهم، فهم يقتنعون بوجود هذا التفسير، وبأنّه جاهز حين يحتاجون إليه. أمّا فيما تبقّى، فهم يعيشون بموجب أحاسيسهم ومشاغلهم اليوميّة البسيطة. وينطبق هذا الأمر على تفسير العالم الأنتروبومورفيّ الخاصّ بالأوغونيّين، كما على التوراة. إذن لماذا يجري تفسير العالم؟ لأسباب غامضة بالطبع، ونعني بالغامض كلّ ما هو غير عمليّ ولانفعيّ، بل له علاقة ما، وبشكل ما بالخيال. لكنّه من الواضح أنّ الاعتقادات تميّز الناس، وتصفهم أكثر ممّا يفعل أيّ شيء آخر، وممّا تفعله الصفات العرقيّة وطرق السلوك أو المهن.

التفتّ وأنا أتأمّل هذه الأفكار فرأيت أنّه، بينما كنت أطلّ على الهاوية، فقد ظهر، ولا أدري من أين، عدد من الفتية الذين بدؤوا يحيطون بي وهم ينظرون إليّ بصمت مفعم بالدهشة. نظرت إليهم بدوري، فعادني الشعور الغريب الذي أحسست به قبل قليل، وأنا أشاهد القرية القائمة في أسفل الشاطئ: إنّهم أوغون، أي ينتمون إلى جماعة بشريّة خاصّة جدّاً، ومع ذلك، فقد بدوا لي عندما رأيتهم متحلّقين حولي، أنّهم فتية أفارقة كغيرهم. لا بل إنّهم يظهرون مثل جميع الفتية في أنحاء العالم، ذلك أنّ لون البشرة والمعالم الجسديّة تزول كلّها بعد قليل من الترحال

في أفريقيا، لتصبح «غير مرئيّة». كلّ ما هنالك أنّ بطونهم المنتفخة، التي تتوسّطها سرّة بارزة مثل الورم، تجعل المرء يظنّ أنّهم فتية فقراء يعانون من سوء التغذية. لكنّي أعلم أنّ هذا ليس هو الحال. فهؤلاء الفتية، الشبيهون بكثيرين غيرهم، يعتقدون مثلاً أنّ إلهاً واحداً، الإله آمّا، قد خلق العالم بالطريقة نفسها التي يكوّن بها الخزّاف خزفه. والواقع أنّ الكون ليس إلّا أوان فخّاريّة بالنسبة للكونيّات الأوغونيّة، وذلك بدءاً من الشمس والقمر، وهما حوضان أحدهما من نحاس أحمر، والثاني من نحاس أبيض. كما أنّ هؤلاء الفتية، الذين يبدون شبيهين جدّاً بأندادهم في بقيّة أنحاء العالم، يعتقدون في الواقع بهذا الأمر الغريب، كما يمكننا أن نقرأ في الدراسة النهائيّة التي أعدّها جينيفيف كالارن جريال. وقد قلت إنّه غريب لأنّه من المعتقدات الأفريقيّة التي تقول إنّ الإله آمّا، خزّاف الكون، قد أخصب الأرض بواسطة الكلمة. وقد نجم عن هذا اللقاء الصعب الذي لم يكتمل، توأمان ثنائيّا الجنس، انقلب الأوّل ضدّ أبيه، حتّى إنّه تزوّج، بدوره، بأمّه الأرض، وذلك في سفاح محرّم. أمّا الثاني المناصر لأبيه الإلهيّ، فقد ضحّى بحياته ليعوّض عن آثام أخيه. لقد قتل التوأم، ولنسمّه الإيجابيّ، ثمّ بعث من جديد فنجم عنه البشر والحيوانات والنباتات. أمّا التوأم الآخر، السلبيّ إن صحّ التعبير، فقد عوقب بأن حوّل إلى ثعلب، حكم عليه بالتيه في حياة بائسة من الرحيل المتواصل.

باختصار فإنّ هؤلاء الفتية بطلعتهم الطبيعيّة البريئة يعتقدون (أو إنّهم طرف من مجتمع يعتقد) بأسطورة حول خلق العالم، فيها العديد من نقاط التشابه مع أساطير الإغريق والشرقِ المتوسطيّ. ويثير الفضول، في رأينا، أنّ فكرة خلق العالم قد فشلت للوهلة الأولى (الخطيئة الأولى؟) وأنّ توأمين (قابيل وهابيل) كانا في أساس الخير والشرّ، وأنّ أحد التوأمين قد قتل ثمّ بعث، وأنّه أنقذ البشر عندما مات من أجلهم (يسوع؟)، وأنّ التوأم الشرّير الذي تحوّل بعدها إلى ثعلب، قد تمرّد على أبيه وقام بسفاح أمّه (أوديب؟).

على كلّ لا بُدَّ هنا من التساؤل لماذا بقي الأوغون الذين تمكّنوا من صياغة أساطير «بشريّة» بهذا الشكل، ثابتين على الأساطير نفسها، في الوقت الذي تحقّق في أمكنة أخرى الانتقال من الأسطورة إلى العلوم، أي من الفكر الرمزيّ إلى فكر علميّ بالفعل. لا نريد بهذا القول الإيحاءَ بتفوّق الأوروبّيّين على الأوغون، أو العكس، كما يفعل الكثيرون أحياناً. نريد فقط أن نطرح سؤالاً، ليس عديم الجدوى.

يمكن لي، إذا أمعنّا النظر، أن أشير إلى سببٍ، هو الفرق الجوهريّ الذي يميّز مفهوم نشأة الكون لدى الأوغون، عن المفهوم المماثل في تاريخنا القديم. إذ إنّ مفهوم نشأة الكون لدى الأوغون هو أشدّ واقعيّة، بل أشدّ طبيعيّة من أيّ مفهوم عن نشأة الكون لدينا. ففكرة أنّ الإله آمّا هو خزّاف يصنع الفخّار، وأنّ الكون كلّه هو لهذا مجرّد أوانٍ فخّاريّة، لا يمكن لها، على ما يبدو، أن تقود إلى مبدأٍ يعتبر الكون نظاماً يمكن تفسيره تفسيراً علميّاً، وقابل للتحديد والقياس. هناك بين الإله آمّا وجوبيتر أو براهما أو إله سفر التكوين، هناك الفارق نفسه الموجود بين الصانع الذي يصنع الأشياء بيديه، وكيفما اتّفق، ووفقاً لضرورات عمليّة، وبين العبقريّ الذي يفلح في أن يبعث من اللاشيء، أو من الفوضى إذا شئتم، عالماً مستقلاً وبموجب إرادته الخلّاقة المعقّدة والمنعكسة على الأشياء.

إنّ الإله آمّا ملموسٌ للغاية وغريب جدّاً، بحيث إنّه لا يمكن أن يشير سوى إلى النموذج الإنساني المتواضع الذي ألهمه وأوجده، لأنّه جاء نتيجة مراقبة دقيقة للواقع البسيط، ولم يكن مجرّد تفكير ميتافيزيقيّ.

ولنشاهد الدليل على هذا في كيف أنّ الكلمة لدى الأوغون، هي مجرّدة بطريقة أقلّ بكثير، ومحسوسة أكثر بكثير من كلمة الفعل[1] الغربيّ. كما أنّه لا يوجد لدى الأوغون فكرٌ بالمعنى الكامل للكلمة. فالفكر يتكوّن من «كلمات موجودة في الكبد» أو من «أبخرة». وفي الواقع فإنّ «الكلمة الباطنيّة» (أي الفكر) مؤلّفة من ماء، وهواء، وتراب ونار.

1- Verbo. (م)

تنصهر بدورها هذه العناصر الأربعة ضمن عرض صوتيّ للشخصيّة، أي ضمن صوت. من جهة أخرى هناك في موازاة الإله آمّا الخزّاف، الإنسانُ الناطق، وهو نسّاج. فالنطق هو مرادف في الواقع للنسج، في لغة الأوغون الأنتروبومورفيّة. والفم هو نول، والأسنان واللسان والحلق والحنجرة هي أجزاء من النول. أمّا الحديث الذي يخرج بعد أن يقوم النول، أي الفم، بعمله فهو النسيج. لذلك فعندما نستعمل عبارة شائعة مثل قولنا «نسيج أكاذيب» فإنّنا لا نتكلم الإيطاليّة بل الأوغونيّة، ومن غير أن ندرك ذلك. وعلى أيّة حال فمن الواضح أنّ مفهوماً فيزيولوجيّاً وجسديّاً للكلمة كهذا المفهوم، لا يمكن أن يقود بسهولة إلى فكر عقلانيّ ومجرّد.

لكنّ هذا الاغتراب الناشئ عن الاختلاف في تطوّر الأسطورة، يتمّ التعويض عنه بشكل كامل، لكن غير قابل للتفسير، عن طريق ودّ عفويّ يظهره الأفارقة نحو الأوروبّيّين. حدث الاستعمار بالتأكيد بكلّ مآسيه، لكنّ جاذبيّة لا تقهر مسحته، على ما يبدو، ودفنته وغفرت مآسيه. خاصّة وأنّ إرادة الأفارقة في التواصل تبدو واضحة جليّة عندما تتمّ مقارنتها بتعنّت الهنود الحمر، وتمنّع الآسيويّين الشرقيّين المتستّر تحت تحيّات مبالغ فيها. ما إن عدنا على الأقدام نحو المكان الذي تركنا فيه السيّارات، حتّى وجدنا أنّ الفتية لا يقتنعون الآن باتّباعنا، بل بدؤوا يمدّون أيديهم نحونا، ويحدّثوننا على أنّهم أدلّاء من جانب، وأصدقاء من جانب آخر، أو «رفاق»[1] كما يقولون هم. وهكذا فقد حدّثونا، من غير أن نسألهم، عن عائلاتهم ومزارعهم وحيواناتهم الأهليّة وأعمالهم. كما استعلموا عنّا بفضول طلق ومشروع، كأنّما بين أنداد متساوين.

من الواضح أنّهم ينتظرون في نهاية الرحلة جائزة صغيرة، لكن وكما هو الأمر عادة في أفريقيا، فإنّ الحسابات لا تكفي لتفسير مثل هذه العلاقة من الثقة الطبيعيّة.

عندما نظرت إلى يد صديقي الصغير، وهي داخل يدي، ولاحظت

---

1 - «camarades». (م)

لون الراحة الورديّ، لم أجد بدّاً من التفكير مرّة أخرى، أنّ الأفريقيّ هو مثل الشخص الثنائيّ الجنس الذي تحدّث عنه أفلاطون، أي إنّه النصف البدائيّ اللاعقلانيّ، وغير المنطقيّ، من الإنسان الأوروبّيّ المتحضّر والمنطقيّ. لذلك فإنّ الانجذاب المتبادل بينهما (فالأوروبّيّون ينجذبون أيضاً للأفارقة وهذا ما يؤكّده ما يقال عن «هوى أفريقيا») ما هو إلّا نتيجة تكاملهما.

إدوارد، آلبرت، رودولف، فيكتوريا

مويا، كانون الثاني 1971

تنتشر منطقة البحيرات الكبرى على شكل شبه دائرة، تبدأ ببحيرة رودولف، وتستمرّ في بحيرة فيكتوريا، وبحيرة آلبرت، وبحيرة جورج، وبحيرة إدوارد.

ما زالت هذه المنطقة بريّة وخالية من السكان، أكثر من أيّة منطقة أخرى في أفريقيا. كما أنّ أسماء هذه البحيرات، وهي أسماء تافهة كئيبة، لأمراء وملوك أوروبّيّين من القرن التاسع عشر، مجهولي الهويّة، تؤكّد معاني الفراغ والقفار، ذلك كما حصل في مختلف «أراضي» القطبين الشمالي والجنوبيّ، التي عمّدت أيضاً بأسماء تعيسة لملوك ومتسلّطين من حقبة ما يسمّى بـ «الاكتشافات».

فهل هي جميلة هذه البحيرات؟ لا، ليست جميلة. خاصّة وأنّ سماء أفريقيا لا تصحو إلّا نادراً. وعندما تصحو، تكون مجلّلة بالضباب بسبب شدّة الحرارة، فتعطي للبحيرات لوناً معدنيّاً بين الرماديّ والداكن، حزيناً خانقاً. تمتدّ البحيرات لمسافات شاسعة، إنّها بحار فعليّة من المياه العذبة، ولا يرى لها نهاية، بحيث لا يمكن للعين أن تتمتّع برؤية شواطئها. على كلّ فليس في تلك الشواطئ أيّ متعة فنيّة. كما يصعب جلّ الأحيان بلوغها، لأنّ مستنقعاتها كثيرة، وأقصابها كثيفة. لكنّ المرء إذا وصل إليها، فإنّه لن يجد فيها أيّ شيء جميل، فهي ليست إلّا تلالاً

ساحليّة منخفضة، جرداء، ذات لون أصفر كجلد الأسود، تتوّجها أغصان الشجيرات المتشابكة. وكما نرى دائماً في أفريقيا، فإنّ المساحات الواسعة والأطراف المترامية، تميّز دائماً هذه المناطق الساحليّة. تحدّثْنا عن اتّساع البحيرات، لكنّ الشطآن هي كذلك، وكذلك هي أيضاً أشباه الجزر، والجزر، والرؤوس، والخلجان، فكلّها تمتدّ مقفرة، متشابهة، لامتناهية. وعندما يعظم اللاتناهي، تصبح العظمة عظيمة بالفعل.

ومع ذلك فإنّ لهذه البحيرات غير الجميلة سحراً لا يوجد في بحيرات أوروبّيّة أخرى، رغم أنّها أصغر من هذه وأشدّ جمالاً منها. إنّها تعطينا فكرة ليست تقريبيّة جدّاً عن الذي نسمّيه عادة ما قبل التاريخ. وإذا كان صحيحاً، وأعتقد أنّه كذلك، أنّ التاريخ هو الاسم الذي تطلقه الإنسانيّة على استقلالها وانتصارها على حالتها الطبيعيّة، أي على طبيعيّتها، فإنّ ما قبل التاريخ، في هذه الحال، هو اعتماد الإنسان أو تعلّقه بالطبيعة، بل حتّى غيابه فيها واضمحلاله ضمنها. لكنّ التاريخ هو أيضاً زمان بحسب قياسات الحياة البشريّة. وبهذا يكون ما قبل التاريخ هو الخلود بعينه. لكن علينا ألّا نعطي كلمة خلود هذه معنى مهيباً ورهيباً. فالخلود في أفريقيا يعني غياب الطرقات والزرع ومراكز السكن. إنّه شجرة عاشت منذ وقت لا أحد يعلمه، ثمّ سقطت على حين غرّة، ومن تلقاء نفسها، وبقيت على أرض الغابة جاثمة لتتعفّن بين الأعشاب الطويلة. إنّها مخاريط النمل الأبيض، الحمراء المزرية المنتشرة بكثافة في أماكن البساتين والحقول. إنّها مستنقعات البردي والقصب، التي لا تعيق وصولنا فحسب، بل تمنعنا أيضاً من رؤية البحيرات إلّا من فوق المرتفعات البعيدة. إنّها الغابات المتشابكة الخبيثة، إنّها سهوب الألب البيض، السافانا التي تنعشها حركات أشجار الباوباب المتوزّمة اليائسة. وهي، في النهاية، الأمراض وبلهارسيا ذباب التسي تسي والملاريا وإسهالات الديزنتريا. الخلاصة أنّ الخلود هو كئيب حزين. الاستثناء الوحيد من هذه الكآبة هو الحيوانات.

هأنذا في الزورق، نخرج ببطء بمحاذاة الشاطئ قرب قناة كازينغا وهي ذراع مائيّ، يجمع بحيرة إدوارد ببحيرة جورج الصغيرة. إنّه يوم ضبابيّ، تنتشر في السماء سحب قاتمة اللون ثابتة، بينما الشمس مجرّد هالة داكنة. مياه البحيرة رماديّة، عليها انعكاسات بنّيّة تصدر عن الطحالب المتفتّحة على السطح. تبدأ بحيرة إدوارد بالتوسّع بدءاً من فوهة القناة، فتأخذ الأنهار بالتباعد الواحد عن الآخر، حتّى تغمر مرآةُ الماء كلَّ الأفق. إنّها بحر من غير ملوحة واخزة، نفَس قاهر، روح البحر. وهكذا فقد أبحرنا من رصيف صغير، مصنوع من أعمدة متعفّنة، موضوعة فوق طين الميناء، الصغير أيضاً، وبدأنا نتقدّم الآن ببطء شديد على مسافة قليلة من شاطئ البحيرة. لاحظت عندها أنّ التلال تتكشّف من حين لآخر عن وادٍ من العشب، أو عن شاطئ مستنقع صغير. وتبدو هذه الوديان والشواطئ جدباء مقفرة. لكنّ قلبي يهوي فجأة، إذ رأيت بعيداً فيلاً قاتم اللون، يلوح هناك وراء خلفيّة المرتفعات المشرقة. أجل، إنّه فيل بالفعل ينتحي وحيداً، ويعيش حياته الطبيعيّة تحت بصرنا، فيل برّي متوحّش، حرّ طليق، لا يدرك وجودنا قربه.

لا بُدَّ أن أبدي هنا ملاحظة، وهي أنّ الفيل عن قرب هو أمر يختلف عن فيل بعيد. فالفيل هو حيوان غريب الأطوار كما يقال، مسالم في ظاهر الأمر، ولا يمكن للمرء إلّا أن ينظر إليه بالمودّة. لكنّنا عندما نرى الفيل في مكان ما بعيد، فإنّ مجرّد وجوده هناك يضفي على ذلك المكان صفةً من قبل التاريخ. فقبل أن أرى الفيل، كانت بحيرة إدوارد بالنسبة لي مجرّد بحر رماديّ حزين، كئيب وحارّ، لكنّي ما إن رأيت تلك الهيئة القاتمة البعيدة بقوائمها الخمس (أي القوائم الأربع والخرطوم) حتّى تحوّلت فجأة بحيرة إدوارد في نظري إلى مشهد من العصر الرباعيّ[1].

1- العصر الرباعي، بالإنجليزية: Quaternary وهو أحدث العصور الثلاثة لحقبة الحياة الحديثة في مقياس الزمن الجيولوجي. وهو يلي العصر الثلاثي العلوي ويمتد من 2.588 ± 0.005 مليون سنة مضت إلى الآن. ويضم فترتين جيولوجيتين هما: البليستوسين والهولوسين. (م. عن ويكيبيديا)

هذا بينما كان الزورق يقترب شيئاً فشيئاً من الفيل، الذي لم يغيّر مع هذا شيئاً من سلوكه، رغم أنّه سمعنا ورآنا. لقد بقي على ما هو عليه من الرعي، لكنّه وبسبب البطء الشديد في حركاته فقد كان يبدو كأنّه يتأمّل ويتملّى ويفكّر. ها هو يمدّ خرطومه ببطء، ثمّ يدوّره ليلفّ به شجيرة من الحشائش المرتفعة، والأوراق المستقيمة المدبّبة مثل السيف، ثمّ ينتزع الشجيرة بكاملها من غير أن يبذل في هذا أيّ جهد، ثمّ يلتقم الشجيرة وجذورها وترابها بفمه ذي الخرطوم الشبيه بفوهة القارورة. ثمّ يبدأ بالمضغ خلف خدّيه المسطّحين الهزيلين تقريباً. ثمّ ما يلبث أن يلفظ التراب الذي لا يهضم قبل أن يرفع قائمته، ويطوي ركبته ويسير خطوة، وهو يمدّ خرطومه من جديد نحو شجيرة ثانية. اقتربنا منه أكثر حتّى أصبح بوسعي أن أمدّ يدي وألمس خرطومه. عن قرب لا يمكن للفيل إلّا أن يثير الدهشة، ويدعو إلى التأمّل والتفكير. ما هو «مغزى» هذا الحيوان؟ ماذا يعني مثلاً هذا التناقض بين هزال أعضاء البصر، وضخامة أعضاء السمع؟ أي بين العينين المجهريّتين والأذنين الضخمتين المتوتّرتين، الغضروفيّتين الشبيهتين بالأوراق الضخمة على نبتة مائيّة؟ ولماذا استطال الأنف ليصبح يداً تمسك بالأشياء الجامدة ومضخّة للسوائل؟ وما هي العلاقة التي تربط بين الفوائد الغريبة لخرطومه وبين عدم الفائدة، الغريبة أيضاً، لأنيابه الضخمة؟ وماذا يعني نموّ هذا الحيوان الضخم (الذي يصل وزنه إلى ستّة أطنان) في الوقت الذي نرى أنّه ليس إلّا حيواناً عاشباً؟ ولماذا تكون الحيوانات اللاحمة صغيرة بينما الحيوانات العاشبة ضخمة؟ بل ولماذا «لا يظهر» الفيل على أنّه حيوان برّي متوحّش، حتّى لو كان كذلك، بينما يظهر الأسد والنمر والضبع حيوانات شرسة ضارية بالطبع؟ وباختصار لماذا يبدو الفيل كأنّه تمثال للخجل والحكمة والتأمّل والصبر، بينما من المعروف أنّ بوسعه أن يحمل سيّارة بأكملها وأن يحطّمها، أو أن يحطّم بقوائمه امرأة في طريقها إلى النهر، ذلك كما حدث قبل وقت قريب في أوغندا؟

هزّ الفيل أذنيه، بينما ظهر بين الأشجار التي في صدر الوادي، ليس بعيداً عنه، ظهرٌ ضخم رماديّ مزهّر، ثمّ ظهر، على مقربة منه أيضاً، رأس كبير باللون نفسه. حان إذن وقت الابتعاد، لأنّ قطعان الفيلة تصبح شديدة الخطورة عندما تكون على مناهل الشرب. لكنّ هذا الفيل أظهر لنا قبل الذهاب شيئاً جديداً، أي تعايشه وتكافله مع طائر أبيض دقيق القوائم، كانت أسراب منه تتواثب قربه، قبل أن تحلّق قليلاً ثمّ تحطّ على ظهره. يعيش ذلك الطائر على ما يجده في الوحل الذي يدوس عليه الفيل، بل بين ثنايا جلده وداخل فضلاته وروثه. كما أنّه يفعل ذلك مع حيوانات الجاموس وفرس النهر والتمساح ووحيد القرن. ومن الواضح أنّ هناك أسماء أخرى لكلمة تعايش أو تكافل يمكن استخدامها في هذا السياق: كأن نقول مؤاكلة، استئجار، تطفّل، وذلك حسبما يجري التعايش لصالح أحد الحيوانين أو لكليهما معاً، أو فيما إذا كان له فائدة غير مباشرة فقط. فماذا يكون ذلك الطائر الأبيض؟ مؤاكل؟ مستأجر؟ متطفّل؟ على أيّة حال نحن نراه حضوراً رائعاً وجميلاً، بكلّ هشاشته وضعفه وخفّته ونصاعته وبراءته أمام تلك المخلوقات القاتمة الموحلة الضخمة المهيمنة التي يتقاسم وجوده معها.

لا يظهر الفيل في أوغندا قرب شواطئ بحيرة إدوارد وبحيرة آلبرت فقط. فعندما اجتزت، بعد بضعة أيّام، في سيّارة جيب، غابة ماراماغامبو، حيث الأشجار ليست عالية ولا ضخمة كما هو الأمر في الغابات الاستوائيّة، بل لها الأبعاد نفسها التي نعرفها عن أشجار غاباتنا، تقدّمت سيّارة الجيب عبر ممرّ ضيّق وموحل، ظهرت فيه آثار أقدام ضخمة وكتل كبيرة من الروث، ممّا يدلّ على وجود شيء مثير للاضطراب، مرعب، وغير متناسب مع الطابع «المعتدل» الذي يميّز المكان. ثمّ هاكم سيّارة الجيب تصطدم فجأة بالجانب الخلفيّ لفيل كانت مقدمّته مختفية كلّها بين أوراق الشجر وأغصانها. كما ظهر على مقربة من هذا، رأس فيل آخر كأنّه معلّق في الهواء، وسط إطار من الأوراق، مرقّط بأشعّة الشمس

وظلالها. كما ظهر إلى جانب هذا طرف رماديّ متجعّد لفيل ثالث، ارتسمت عليه التفافات النباتات المتعرّشة. لقد وقعنا وسط القطيع من غير أن ننتبه لذلك، والغريب أنّ القطيع لم ينتبه إلينا أيضاً.

في نهاية الأمر، رأيت الفيلة مكشوفة في سافانا كيديبو، على حدود السودان. كان المنظر حولنا، وأكثر من أيّ وقت مضى، منظراً من ما قبل التاريخ، من العصر الرباعي: سافانا شاسعة، وفي الأفق هناك جبال غريبة لها شكل براكين سود خامدة، وقلاع مهدّمة، وصخور مكوّمة على بعضها بعضاً. ها قد أصبحنا في السافانا، لكنّنا بقينا في سيّارة الجيب. السافانا هنا عبارة عن أعشاب جبال الألب، تكاد تكون بيضاً كالشيب، تبرز بينها هنا وهناك مظلّات جرداء مسطّحة، هي شجيرات الأكاسيا الشائكة. ثمّ، ها هي الفيلة. عشرون أو ثلاثون فيلاً، قطيعاً كبيراً. هناك بينها فيلة صغار، جميلة، مثل كلّ صغار الحيوانات، مهما كان نوعها، رغم أنّها ضخمة في صغرها. هناك أيضاً الإناث، وهنّ أنثويّات بالطريقة الحيوانيّة. كما يتميّز الذكور بطول الأنياب، التي تتقوّس خارج طرفي الخرطوم المعوجّ نحو الداخل. ها هي ترعى، البعض من الأرض، وأخرى من أغصان الشجر. ها هو أحد الفيلة يصدر صوته بالنَّئيم: صوت شديد عميق، يصمّ الآذان، ضجيج صادر عن مرور الهواء ضمن أغشية الحلق والخرطوم المخاطيّة الضخمة. عندها توقّف ثلاثة أو أربعة فيلة عن الرعي ثمّ اصطفّت أمامنا وبدأت تهزّ آذانها وخراطيمها بطريقة تهديديّة، بل و«تنظر» إلينا. أجل، تنظر، رغم أنّ عيونها صغيرة بحيث تكاد لا تُرى. لكنّ تهديد العين الصغيرة يمكن أن يكون أقوى من تهديد تلك الكبيرة. هربنا...

نيلٌ تعليميّ

كامبالا، شباط 1971

يهزّ الأفارقة أكتافهم عندما يجري الحديث عمّا يسمّى «اكتشاف» أفريقيا. ثمّ يقولون: «ليس هناك شيء يجب أن يُكتشف». لأنّ أفريقيا موجودة، منذ الأزل، بكلّ حضارتها وثقافاتها، مثلها مثل آسيا. لذلك فإنّ كلمة اكتشاف هي في غير محلّها، بل إنّها تدلّ على تنطّع الأوروبّيّين ونرجسيّتهم. هذا كلّه صحيح. لكنّ هذه الكلمة استخدمت في الواقع بالنسبة لأفريقيا السمراء، بينما، وعلى العكس من هذا، لم يحلم أحد باستخدامها بالنسبة للهند أو الصين. لماذا؟ لأنّه لم يكن قد حان آنئذٍ وقت الثقافات الأفريقيّة، كما أنّ الدراسات الأنثروبولوجيّة كانت وقتها في بداياتها، والفنّ الزنجيّ لم يكن قد أثّر حينها في الفنّانين الأوروبّيّين. بودّنا على أيّة حال أن نعرض تفسيرين لكلمة «اكتشاف»: التفسير الأوّل له معنى عدوانيّ، وللثاني معنى إدراكيّ وذهنيّ. فمكتشفو القرن التاسع عشر من أمثال ستانلي وليفنغستون وباكر وسبيك وبرتون[1] «اكتشفوا» منابع النيل بالمعنى العدوانيّ. ولا يوجد في كتاباتهم شيء يدلّ على أنّ استطلاعهم لأفريقيا قد أغناهم بالمعنى الثقافيّ والجماليّ والأخلاقيّ إلخ إلخ. والواقع أنّهم لم يذهبوا إلى ذلك المكان كيما يتملّوا منه ويفهموا أحواله، وإنّما ليضمّوا ويحتلّوا. لكنّه علينا أن نضيف بأنّه

1- Stanley, Livingstone, Baker, Speke, Burton. (م)

يجب فهم الضمّ والاحتلال بالمعنى النفسانيّ، ثمّ السياسيّ والعسكريّ والإداريّ، إذا صحّ التعبير. بينما أنا الذي أجري الآن بالسيّارة نحو منابع النيل فإنّي سأكتشفها بالمعنى الإدراكيّ والذهنيّ. أي إنّي سوف أستمتع بمناظرها، وأستوعب مدلولاتها ومعانيها. أي إنّ الاكتشاف الإدراكيّ والذهنيّ هو التجربة التي توسّع في نهاية الأمر من آفاق الشخص.

ها هو النيل. عندما أطلّت السيّارة على قمّة الهضبة، ظهر النهر الشهير على حين غرّة، ولم يكن عريضاً جدّاً، بل ذا مظهر هادئ مهيب، وهما من صفاته البارزة. بدا بلونه الجليّ المعتاد، أي بلونه الأخضر المسمّى أخضر النيل، بمياهه العميقة التي تظهر على شكل عضلات مفتولة بسبب الدوّامات والتيّارات. إنّه يشكّل هنا خليجاً عريضاً متناسقاً بين شواطئ ذات ارتفاع متواضع، وإن كانت لطيفة ممتعة. على ألّا يذهب الخيال إلى لطف شواطئ نهري الأرنو والسين[1] الجميلة المهذّبة. على كلّ فإنّ اللطف الأفريقيّ مثير للقلق ومتوحّش. فالشواطئ الصغيرة الساحرة المزروعة على طول ساحل النيل، هي لطيفة ولا شكّ بسبب الترتيب الخلّاب الذي ينسّق الأشجار الكبيرة المورقة التي تظلّله، وبسبب التلال الخضر التي تحيط به بطريقة رومانسيّة. لكن لا يخطرنّ في بال مخلوق أن يذهب ليتمدّد في شمس هذه الشواطئ الصغيرة اللطيفة. لأنّ أقلّ ما يحدث له حينها، هو أن تلتقمه أنياب تمساح، أو أن ينطحه قرنا جاموس، أو أن تدوسه أقدام فيل، أو أن يشطره فرس النهر إلى نصفين بعضّة واحدة. أجل إنّه لطف، لكن من بعيد. لهذا فإنّ الزورق الذي يقودنا نحو شلّالات مورشيسون[2] يحافظ على مسافة معيّنة كلّما اقتربنا من تلك الشواطئ.

ها هو وادٍ مثلّث الشكل، نصفه رمليّ ونصفه معشوشب، ينتشر ورق البردي والأقصاب على أطرافه، بينما تعلو الأشجار في أسفل أعماقه حيث ينحصر بين التلال الصفر المتآكلة. ها هي الحيوانات،

1- نهران في روما وباريس. (م)

2- Murchison Falls . (م)

كأنّها مرسومة في صفحة ملوّنة من صفحات كتاب علم الحيوانات، يقف كلّ واحد وحده، لكن إلى جانب الآخر، متجاهلة بعضها بعضاً، ها هي جميعها بحركاتها المميّزة: الفيل بخرطومه المنتصب وهو ينتزع الأوراق عن الشجر، والجاموس مستلقٍ في الطين، وفرس النهر وهو يخرج من الماء إلى الشاطئ، والتمساح متمدّد على لسان رمليّ، ثابت جامد، وفمه فاغر تبرز منه أسنانه الشبيهة بالمنشار. كما تظهر بين أوراق البردي طيورٌ بقوائم دقيقة طويلة ومناقير كبيرة. إنّ شواطئ النيل هذه هي تعليميّة بالفعل. لا ينقصها إلّا كتابات لاتينيّة بأحرف مائلة: loxodonta أفريقيّة على الفيل، bubalus syncerus على الجاموس، hippopotamus amphibius على فرس البحر، crocodilus niloticus على التمساح. إنّ النيل نهر «تاريخيّ» جدّاً، و«مثقّف» جدّاً، بحيث يصعب على شخصٍ أن يكوّن عنه انطباعاً جديداً، إذا صحّ التعبير. خاصّة وأنّه لا شكّ أنّ هناك بيننا وبين النهر عدسات ثقافيّة. فرغم أنّ ذكرياتنا عن موازييك فلسطين، على سبيل المثال، تمثّل نيل مصر، فإنّها تبدو كأنّ فيها أيضاً وصفاً دقيقاً لهذا النيل الموجود في أوغندا، بجزره وأمواجه ووحوشه، وبأوراق البردي وبكلّ ما يمكن أن يظهر في منظور أحاديّ الأبعاد، شبيه بذلك الذي نراه في صور كتب علم الحيوان.

إنّ الحيوانين اللذين كثيراً ما نشاهدهما على سواحل النيل هما برمائيّان، وهما بالطبع التمساح وفرس النهر. لكنّ لهذا الأخير مظهر مضحك ولا شكّ. فحجمه الضخم مضحك (وزنه طنّان تقريباً أو ثلاثة أطنان) والغريب أنّه مكوّن من أسطوانة هائلة الحجم، منتفخة حتّى درجة الانفجار، ومغطّاة بقشرة عارية بنيّة اللون، لها أربع قوائم قصيرة مائلة، شبيهة بقوائم الكلب الدشهند الألمانيّ، ورأس غير متناسب، وفكّان بشكل الحذاء. كما أنّ عاداته مضحكة أيضاً. فهذا الحيوان لا يرعى إلّا في الليل، لذلك فقد يتسلّى المرء بمشاهدة قطيع من حيوانات فرس النهر، تسير برؤوس منحنية في الظلام، ووسط الأعشاب على حوافّ النيل،

وهي ترعى داخل مكان سبق لها أن حدّدته بدفقات من البول، والويل لغريبٍ يحاول أن يغامر ويتسلّل ضمن ذلك النوع من المحميّة الشميّة.

أمّا في النهار فإنّها تستبعد فكرة ذلك المجال المرتبطة بالمرعى، وما إن تنزل حيوانات فرس النهر إلى الماء، حتّى تنقع نفسها، وتختلط بين بعضها مثل الأبقار، ضمن قطعان مؤلّفة من عشرين أو ثلاثين رأس، وتبرز على شكل زرافات صغيرة مؤلّفة من عيون شبيهة بالمناظير، وآذان شبيهة بآذان الخيل، وبظهور عارية بنيّة اللون. هناك حكاية أفريقيّة توضّح بشكل كبير عقليّة فرس النهر. فالإلهُ لم يكن يريد أن يكون هذا الحيوان برمائيّاً لأنّه كان يخشى أن يلتهم الأسماك. لذلك فقد وعد فرسُ النهر الإلهَ بأن يكون حيواناً عاشباً فقط، وقال إنّه سيقدّم برهاناً على صدقه، بأن يعرض روثه على الإله كلّما تبرّز، كي يؤكّد له أنّه لم يلتهم سمكة. وهذا ما يفسّر أنّ فرس النهر يقوم، كلّما تبرّز، بنثر روثه بواسطة ذنبه القصير، فيصيب به بالطبع بقيّة رفاقه الموجودين معه داخل الماء. وهكذا فإنّ الإله يتحقّق أنّه لم يأكل إلّا عشباً، وأنّه ترك الأسماك بأمان.

كذلك فإنّ غراميّات فرس النهر مضحكة أيضاً. فمن الطبيعيّ والمنطقيّ أن نشاهد ثورين أو خروفين يتناطحان بقرونهما. لكنّه من المضحك أن نشاهد فرسي نهر يتنافسان في الهوى، فيفتحان الفاهين على مصراعيهما، ويلصقان الفكّين الضخمين ببعضهما بعضاً، ولفترة طويلة من الزمن. يبقيان على هذه الحال لساعات طويلة، فم كلّ منهما موجّه نحو فم الآخر، مدفوع بقوّة طنّين من كلّ طرف. في النهاية ينتصر أحدهما ويهرب المهزوم. لكنّه قد يلاحق أيضاً في بعض الأحيان ويُقتَل عضّاً. ولا يُترك فرسُ النهر الميّت سدى، لأنّه سرعان ما يأتي رجال من قرية مجاورة لينقّبوا في الجسم الضخم، ويأخذوا كلّ ما على الهيكل العظمي من لحم. وهكذا فإنّه لا يبقى في الطين سوى هيكل عظميّ يشبه بأضلاعه الكبيرة حطام زورق ضخم.

أمّا التماسيح فهي مرعبة بالفعل. ومن البدهيّ القول إنّ التماسيح

ليست إلّا تكبيراً للسحليّة المعروفة، الجميلة وغير الضارّة. غير أنّ الحجم لا يفسّر في واقع الأمر كلّ شيء. فمع أنّ فرس النهر هو تكبير للخنزير المعروف، فإنّه ليس حيواناً مرعباً. أمّا التمساح فإنه مخيف حقّاً. إنّه بطول قد يصل إلى ستّة أو سبعة أمتار، يتمدّد على أطراف النيل، ثابتاً كأنّه جذع شجرة. لذنبه مظهر تهديديّ مرعب لأنّه يذكّر بضربة الذنب. كذلك فإنّ خطمه تهديديّ، بأسنانه التي تبرز من اللثّة، والخطّ الغريب المكسّر والمتعرّج الذي يرسم فمه الطويل جدّاً.

اقتربنا من التمساح. بقي ثابتاً ولم يتحرّك. عيناه فقط هما اللتان تدلّان على أنّه حيّ يرزق. يرتفع الجفنان بمقدار النصف، بينما ينظر إلينا بعينيه البلّورتين القاسيتين. ثمّ ها هو فمه ينفتح ببطء، ويواصل انفتاحه لكنّه يبقى ثابتاً وهو فاغر. إنّه، على ما أعتقد، الحيوان الوحيد القادر على أن يبقى فاغر الفم لساعات طويلة. امتدّت أشعّة الشمس داخل فمه، كما وقفت الطيور على أسنانه، وبدأت بالتفتيش بمناقيرها بينها بحثاً عن بقايا متفسّخة من الطعام. بقي التمساح ثابتاً، فهي أنثى تربض فوق بيضها. كذلك فإن فكرة البيض هي مرعبة نوعاً ما، أيضاً. فبيضة الدجاج تفقس عن صوص جميل، لكن من بيضة التمساح يخرج حيوان زاحف، جاهز لأنّ يعضّ في الحال. نعلم أنّ هذه ليست وجهة نظر علميّة، لأنّ التمساح مثله مثل أيّ حيوان آخر، له جماله الخاصّ به، إذا نظرنا إليه بعين موضوعيّة إذا صحّ القول. على كلّ فالتمساح ليس حيواناً محبوباً، من قبل الإنسان على أقلّ تقدير.

كلّما تقدّم بنا الزورق على تيّار النيل، رأينا أنّ عدد الفقاعات الغريبة التي تعلو سطح المياه الخضراء، يزداد باستمرار، إنّها فقاعات من الرغوة البيضاء المصفرّة، وقد تأثّرتُ بمنظرها لسبب لا أعرفه وكأنّها أمر لا يمكن تفسيره بل ومثير للاضطراب. بينما يكفي بعض التفكير لنتمكّن من توضيح منشئها. ها هي تزداد كثافة، حتّى إنّ النيل كلّه يبدو مرقّشاً باللون الأبيض، ممّا ذكّرني بظهور «أشياء» بيض على البحر خلال

الرحلة نحو قطب غوردون بيم[1] بطل رواية بو[2]. وصلنا في النهاية إلى جزيرة سدّت النهر أمامنا، فتوقّفنا.

ظهر النيل فيما وراء الجزيرة وهو يفور بتيّارات عاصفة جارية من رغوة كثيفة. لكنّنا شاهدنا بعيداً، وراء كواليس رأسين أو ثلاثة رؤوس مشجّرة، سبب ظاهرة تلك الفقاعات المبيضّة الغريبة: شاهدنا، بين صخرتين سوداوين، كيف تتفجّر بالرغوة الناصعة شلّالات مورشيسون الضخمة، إنّها تتفجر بعيداً عنّا بصمت وجلال.

عدنا أدراجنا إلى الخلف، ترجّلنا من الزورق، صعدنا إلى سيّارة وذهبنا لنشاهد الشلّالات من الأعلى. سرنا بسرعة لمسافة مئة كيلومتر عبر غابة ميّتة: أشجارٌ، وأشجار كثيرة تحوّلت إلى قطع مسودّة، وإلى شوك أسنانها مكسورة محطّمة. لقد قضوا على الغابة من أجل إبادة حشرات ذبابة التسي تسي التي كانت تختبئ على أوراق الغابة. لكنّ خطر مرض النوم ما زال جاثماً حتّى الآن، كما تشهد على ذلك الحواجز، التي تسلّح عساكرها بشبكات صيد الفراش، وبدؤوا بتفتيش سيّارتنا بحثاً عن الذبابة القاتلة.

رأينا الشلّالات من الأعلى ومن الخلف، فتأكّد لدينا وهمُ الانفجار. والواقع أنّ النيل يهبط من علوّ شاهق وتدخل مياهه داخل شقٍّ لا يتجاوز عرضه العشرين متراً. لكنّ انطباعاً يتولّد بأنّه يُرمى نحو الأعلى بواسطة انفجار متواصل. فغيوم الرغوة الناصعة تصعد نحو السماء، وقوس قزح يتخلّلها بصورة أبديّة. والحقيقة، وبما أنّ النيل يصعد نحو السماء، فإنّ المرء يظنّ أنّه يعود إلى منابعه الأصليّة. فالنيل يأتي من السماء. وإذا كان حقّاً أنّه يخرج من بحيرة فيكتوريا، فإنّ مياهه تسقط من السماء خلال مواسم المطر.

1- Polo di Gordon Pym . (م)

2- Edgar Allan Poe كاتب وناقد وشاعر أميركي (1809-1849) اشتهر بقصائده وقصصه القصيرة ذات الطابع الغامض المخيف. (م)

جبال القمر

عنتيبة، شباط 1971

جبال القمر هي مثال جيّد عن الأساطير التي تنشأ لسبب واحد: هو نقص التواصل الإعلامي. وهذا ما كان يحدث في أفريقيا على الدوام: ولربّما ما زال يحدث في بعض مناطقها المنيعة النائية، على وجه الخصوص. فحيثما لا يصل الطريق، وحيثما يجب السير على الأقدام، كانت تلد الأسطورة. وقد يظهر غريباً للبعض هذا الربطُ بين السير على الأقدام وبين الأسطورة. لكنّي أجيب: هذا ليس غريباً جدّاً، لأنّ «السير على الأقدام» كان يعني «عدم الوصول». وجبال القمر كانت أسطوريّة لأنّ أحداً لم يصل إليها منذ قرون عديدة. ولم يصل إليها أحد لأنّ القادمين سواء جاؤوا من البحر الأحمر، أم من المحيط الهنديّ، أو سافروا من مصر، فإنّهم كانوا يضيعون خلال الطريق، إمّا لأنّ القبائل المعادية تقتلهم، أو لأنّ الملاريا تقضي عليهم، أو لأنّ المستنقعات أو الصحارى تصدّهم، وهكذا فهم يموتون بسبب الجوع أو العطش أو الأمطار. هذا ما حدث خلال قرون كثيرة. وبقيت جبال القمر بعيدة لا يمكن بلوغها، وبقيت لذلك خرافيّة أسطوريّة. قلنا إنّها مرتفعة جدّاً، وإنّ النيل ينبع منها، وإنّ فيها مناجم ذهب وأحجاراً ثمينة تلامس السماء، وإنّها هي منتهى العالم. وإذا كان لا يمكن للإنسان أن يصل إليها بجسده، فإنّه يبلغها بأحلامه. ويغرس على قممها راية الخيال الرائعة.

ها هي الآن تلك الجبال. جبال القمر. تحجز كامل السهول التي نعبرها بسيّارة تسير فوق أوتوستراد معبّد مريح. يسود الأفق ضباب أبخرة الحرارة، وترتفع فيه سلسلة جبليّة لطيفة، ذات ارتفاع متوسّط، تذكّرنا جدّاً بالآبنين قرب مدينة بولونيا الإيطاليّة. فأين هي الأسطورة؟ ما زالت الأسطورة في داخلنا. تظهر من خلال خيبة أملنا ومن خلال سؤالنا: «هل هذه هي إذن جبال القمر؟».

الأوتوستراد ليس طويلاً للأسف. وبعد أن كانت جبال القمر على جانبنا، بدأت تدور حول أكتافنا ثمّ تتلاشى. وهنا ننعطف على طريق محجر، ونبدأ بالسير عبر منطقة مختلفة كلّ الاختلاف. نحن الآن بين تلال مستديرة تجعلنا نفكّر بكلاب مجزوزة الوبر، كما تُجزّ الكلاب من فصيلة البُم، أي إنّ فيها فراغات كبيرة، مقصوصة جرداء أحياناً، ومغطّاة أحياناً أخرى بنباتات الشاي الكثيفة البرّاقة. أمّا الطريق المحجرة الحمراء، فهي تصعد وتهبط بحيث نظنّ أنّ الهضبة قد انتهت، لكنّنا كلّما صعدنا وهبطنا جابهتنا هضاب أخرى، نتسلّقها ثم نهبط منها. على كلّ فإنّ الرتابة هي قاعدة في أفريقيا، إنّها قارّة مناظرها رتيبة بطريقة تثير الهلوسة، وهي تتكرّر حتّى تهتزّ في الإنسان أحاسيس الواقع والفطرة، فيشعر بأحاسيس مختلفة، قائمة على الدهشة والانبهار والرؤى. وهذا ما أصابني الآن. لقد أصابني نعاس لا يقاوم، بل إنّي حسبت أنّنا لن نصل أبداً، خاصّة بعد أن نظرت إلى الطريق، التي تصعد أحياناً وتهبط أحياناً أخرى، وإلى نباتات الشاي، التي تكتظّ بها التلال المستديرة، الممتدّة حتّى منتهى الأفق. ما إن تشكّلت هذه الفرضيّة اليائسة في ذهني، حتّى تبنّاها الواقع وأكّدها لي بكلّ سخرية. فبينما كانت السيّارة تصعد على طريق شديدة الميلان، خرجت أسنان الغيار في السيّارة عن مكانها، ففقَدَ محرّكها سرعته بصورة مفاجئة، لكنّ السيّارة تمكّنت من الوصول إلى حافّة الخندق في الوقت المناسب، قبل أن تتوقّف نهائيّاً. كنت غارقاً في أحلام تنبئني بأنّنا لن نصل. وقد جاء هذا العطل لينبئني بأنّه يمكن للحلم أن يصبح حقيقة.

هذا لأنّ تعطّل السيّارة على طريق في أوروبّا، بين آلاف سيّارات أخرى، تسير في مناطق صناعيّة، يختلف بصورة كلّيّة عن تعطّلها في متاهات أفريقيا، حيث من الواجب أيضاً على من يرى سيّارة واقفة على الطريق أن يتوقّف هو الآخر ليسأل من فيها إذا كانت لديهم مشكلة. لأنّ عطلاً يصيب محرّك السيّارة في أفريقيا يعني أنّك لن تجد الميكانيكيّ إلّا على بعد مئات الأميال، ويعني صعوبة إن لم يكن استحالة الوصول إلى الميكانيكيّ، ويعني وقتاً طويلاً من الانتظار، لساعات وساعات على طرق نائية لا تمرّ عليها إلّا الحافلات، ولا تمرّ هذه إلّا نادراً.

وهذا ما حدث لنا الآن بالفعل. وإنّه وقت المغيب. السماء مخضرّة، تتأرجح أمامها صور غريبة للغابة السوداء، الكالحة مثل الحبر الصينيّ. نزل السائق، وفتح غطاء المحرّك، نظر إليه وفحصه ثمّ هزّ رأسه. ترجّلت أنا أيضاً وسألته فيما إذا كان العطل خطيراً، فأجاب بأنّه لا يستطيع أن يصلحه هو، ولا بُدَّ من استقدام ميكانيكيّ.

«وأين يمكن أن تجد ميكانيكيّاً؟».

«في H...a».

«وكم هي بعيدة H...a هذه؟».

«أكثر من سبعين كيلومتراً».

«مسافة معقولة. فلننتظر، عندما تمرّ أوّل سيّارة سأطلب منهم نقلي إلى H...a وأذهب لآتي بالميكانيكيّ».

لم يجبني، علت على وجهه علائم عدم الثقة، ثمّ ذهب ليجلس على حافّة الخندق. جلسنا ننتظر. انقضت نصف ساعة، وانقضت ساعة من غير أن تصل سيّارة النجدة. هذا بينما حلّ الليل وبدأت النجوم تلمع في السماء. حدث عندها كأنّ حاسّة سادسة اجتماعيّة، إذا صحّ التعبير، قد حرّكت مجموعة من الفلّاحين جاؤوا من حيث لا ندري وظهروا من وسط الأدغال، وهم بملابس العمل أي بأسمال بالية، فأحاطوا بالسيّارة وبدؤوا بفحص المحرّك، بعد أن استمعوا لرواية السائق التي بدأ يرويها

لكلّ من يراه. شاهدوا كلّ شيء واستمعوا لكلّ شيء، وقد شعرت بالدهشة عندما رأيت أنّهم لم يذهبوا. بل إنّهم لم يصطفّوا في مجموعة كما يفعلون في القرى، ليروا كيف سينتهي الأمر. لكنّهم تحلّقوا في دائرة وأشعلوا النار قرب السيّارة ثمّ جلسوا حول النار. جلس السائق معهم، ذلك بعد أن قدّمهم لي شخصاً شخصاً، مع تفسير، لم يكن ضروريّاً، وإن كان ذا مغزى، بأنّهم أشخاص طيّبون، بل أصدقاء، أشخاص مهذّبون يريدون مساعدته في هذه اللحظة الصعبة. شددت على أيديهم التي خشّنها العمل بالفأس وقسّاها، وتلقّيت منهم ابتسامات رائعة. والواقع أنّ هؤلاء الناس قد انتهزوا فرصة رفقة السائق المكتئب، لإيجاد مناسبة اجتماعيّة بدائيّة. فهذا حادث جديد بالنسبة إليهم، هم الذين عملوا طيلة النهار، وليس هناك بانتظارهم سوى الزوجة المعتادة، مع الأطفال المعتادين، النائمين في ظلمة الكهف المعتاد.

وبما أنّي قلت للسائق إنّه لا شكّ أنّ سيّارة ستصل، وإنّي سأذهب فيها للبحث عن ميكانيكيّ، فإنّ السائق أجابني يائساً: «لا يمكن للميكانيكيّ أن يأتي في مثل هذه الساعة. سيأتي غداً في الصباح. بينما سيتوجّب عليَّ أن أنام هنا في السيّارة مع خطر التعرّض للقتل من قبل قطّاع الطرق».

«عن أيّ قطّاع طرق تتكلّم؟».

«قطّاع الطرق الذين سيأتون لسرقة المحرّك والإطارات وغير ذلك من الملحقات».

«تعال معنا إذن إلى H...a عندما تأتي أوّل سيّارة». «لا أستطيع، لأنّ السيّارة في عهدتي. يجب أن أبقى هنا».

وهكذا فإنّ قلب هذا الرجل، الذي يوحي بالهدوء والطمأنينة، ممزّق بسبب صراع باطنيّ عميق. وهذا يعني أنّه إمّا أن يقوم بواجبه فيبقى ليحرس السيّارة مع المجازفة بحياته، أو أن يتخلّف عن القيام بواجبه ويذهب. علماً أنّ القيام بواجبه سيعني أنّه سيحتفظ بمهمّته كسائق، أمّا إن لم يقم بواجبه فإنّه سيفقد هذه المهمّة. أضاف بعدها

وهو ينضمّ إلى المتحلّقين حول النار: «لكنّنا الآن محظوظون بوجود هؤلاء الناس الطيّبين».

وقد أخبرني من يفهم الأمور، أنّ الإطار التقليديّ للمحادثة بين الفلّاحين الأفارقة هو كالتالي. حالما يجتمعون، يطرحون في الحال أسئلة حول أهمّ الأمور: أمور العائلة، الصحّة، المحاصيل إلخ إلخ. على هذه الأسئلة المتبادلة يتمّ تقديم إجابات متبادلة، وباختصار شديد، لأنّ الأمور الهامّة «تطرح جانباً» وتؤجّل إلى وقت قادم آخر. إلى متى؟ بعد أن «تطرح جانباً» الأمور المهمّة، يمكن الخوض في أحاديث مختلفة عن القليل والكثير أي في قول بضع كلمات كما يقال. لكنّ الأمر ينتهي بأن يفترق الطرفان من غير أن يتكلّما بـالأمور المهمّة. فمتى يتكلّمان بها؟ لقد «وضعت جانباً» من غير تحديد وقت للتحدّث بها. لذلك ربّما حدث هذا خلال اللقاء المقبل، أو، ربّما، لن يحدث البتّة.

هذا ما حدث على ما يبدو حول النار المشتعلة، وعلى طرف الخندق، أي بين «الناس الطيّبين» الذين يسلّون السائق. تشتعل النار وتطقطق، وتعبّر الوجوه المنحنية إلى الأمام، مقابل النار، عن حيويّة كبيرة. بينما لم تظهر السيّارة التي بوسعها أن تنقذنا. لكنّ حافلة مزدحمة بالناس مرّت بالفعل، لكن بالاتّجاه المعاكس لوجهتنا. مرّ أيضاً شابّ أخرق على درّاجة، كأنّه عفريت، كان صغير القامة، بوجه مثلّث وعينين كبيرتين، يرتدي قميصاً أزرق وسروالاً زهريّاً بلون سرطان البحر، وصندلاً أخضر، وكانت درّاجته مصبوغة بلون أصفر. طلبنا منه أن يذهب ليبحث عن ميكانيكيّ، فلم يرفض، لكنّه أبطأ وأخذ يتحدّث ويناقش ويتردّد، ثمّ أصبح عطل محرّك سيّارتنا مناسبة اجتماعيّة بالنسبة له أيضاً.

على حين غرّة لاح الفرج. فقد انزلقت إلى جانبي سيّارة ضخمة بلون الشمبان، وتوقّفت فجأة بفرملة حادّة، ثمّ فتح بابها وظهر صليب ذهبيّ وهو يبرق فوق ثوب أسود بياقة قرمزيّة. امتدّت يد على أصبعها حجر كريم. كان ذلك أسقفاً، وما إن عرف أنّنا إيطاليّون، حتّى أسرع وقال

لنا بالإيطاليّة، إنّه سينقلنا إلى ذلك المكان، وعلينا أن نركب وسنجد الميكانيكيّ هناك، بعد أن نأكل وننام خلال تلك الليلة في مقرّه.

وهكذا فقد انطلقنا بسرعة كبيرة، جديرة ببساط الريح، أو غيره من المراكب السحريّة، وليس بسيّارة عاديّة. كان الأسقف رجلاً نحيل الجسم، كأنّ وجهه مصنوع من قطع مختلفة من الآبنوس المشغول والمصقول، ذلك أنّ هذه القطع تتنقّل كلّما ابتسم أو ألقى نظرة أو كشّر بفمه. ها هو يحرّك يديه، يتحدّث، يسأل. يستعلم فيما إذا كنت سائحاً، فقلت إنّي صحافيّ. والغريب أنّه سأل فيما إذا كنت من الصحافة الرياضيّة. وهكذا فقد أصيب بالبكم عندما أجبت بالنفي.

في H ... a وجدنا الميكانيكيّ في الشارع الرئيس المعتاد الذي تحيط به أكواخ ومباني محلّات الهنود. كان الميكانيكيّ هنديّاً هو الآخر، فأخذني لأركب في سيّارته اليابانيّة المحطّمة، وعبرنا بها أكثر من سبعين كيلومتراً وصولاً إلى سيّارتنا. عندما وصلت نهض الجمع المتحلّقون حول النار وأحاطوا بنا. لكنّ شخصاً يبدو أنّه من الرعاة تقدّم على الجميع، كان نحيلاً جدّاً ومهيب المظهر، ومسلّحاً بصولجان، ويرتدي عباءة مصنوعة من قماش الأكياس. حدّثني من مسافة قريبة وفمه قرب فمي، وبما أنّي لم أعرف ماذا أفعل فقد شددت على يده، ثمّ فتّشت في جيبي بحثاً عن نقود بدا أنّه يطلبها. لكنّ جوقة من الاحتجاجات أوقفتني، وتمّ إبعاد هذا الشخص بالمناكب بين القهقهات وعبارات سخرية دمثة. وقد أخبروني، بينما كان هو يبتعد متذمّراً، أنّه «لا علاقة له بنا»، وأنّه ليس من مجموعة «الأشخاص الطيّبين» الذين ساعدوا السائق، وأنّه انتهازيّ معروف وشخص خامل كسول يتوارى عن الأنظار عندما تدعو إليه الحاجة، لكنّه يحضر وقت لا لزوم له.

على كلٍّ تم إصلاح العطل بشكل أو بآخر. ثمّ مدّ كلّ «الناس الطيّبين» أيديهم بمودّة كبيرة، وانطلقنا.

قطعت للمرّة الثالثة تلك السبعين كيلومتراً، فوصلت إلى مقرّ الأسقف

وأنا منهك جائع. المقرّ عبارة عن بناء مسبق الصنع في الضاحية. ها هو المطعم، ربّما كان شبيهاً بأيّة صالة طعام أخرى في أيّ فندق متواضع، لولا تلك المسحة غير المحددة، من العري الكهنوتيّ البائس الواضح والجليّ. هناك طاولة طويلة وضيّقة مغطّاة بمشمّع مزهّر. الجدران فارغة عدا بعض الصور المقدّسة التي وضعت بطريقة عشوائيّة غير متوازنة. هناك أيضاً أجهزة تلفزيون وراديو وبرّاد. هناك الصليب أيضاً. يبدو أنّه سبق للأسقف أن تناول طعامه مع رفاقي. بدأت ألتهم السباغيتّي التي أصبحت باردة، وكنت جالساً مقابل الأسقف الذي بدا مرحاً رغم توتّره، كان يضحك ويتحدّث ويمضي الوقت بنقر إصبعه على الطاولة، وسرعان ما اكتشفت سبب ذلك السؤال الغريب، الذي طرحه عليّ الأسقف قبل قليل عمّا إذا كنت صحافيّاً رياضيّاً. لقد زار الأسقف روما، وهو من مشجّعي كرة القدم، ويعرف أسماء جميع لاعبي كرة القدم المشهورين. لذلك فلقد طلب معلومات عن مختلف الفرق، وعرف ذلك من رفاقي، المثقّفين أكثر منّي في موضوع كرة القدم.

إيه، لا بُدَّ من الاعتراف بأنّ الدين والرياضة هما وسيلة رائعة لتواصل بشر من مختلف البلدان، ومن مختلف الثقافات.

إلى أيّ قبيلة تنتمي؟

مُبَالِه، آذار 1971

«الطفل الذي يحبّ الخرائط والمطبوعات» يعبّر هذا البيت الأوّل من قصيدة «الرحلة» لبودلير بالفعل عن السحر الذي تمارسه الخرائط الجغرافية، وكذلك بعض المطبوعات بسبب ما فيها من مصطلحات أو بسبب عدم وجود مصطلحات عليها. ومن يدري بماذا كان يحلم مثلاً فتية العهود المتوسّطة وهم أمام مطبوعات يوجد فيها كتابات على مساحاتها البيض الواسعة تقول: «هذه مناطق وحوش»[1]. لقد حدث مثلًا خلال رحلة لي في أوغندا أن تأثّرت بهذا السحر عند منطقة من الأرض على طول الحدود مع كينيا. كانت المنطقة تسمّى كاراموجا. كان الخطّ الأحمر الذي يمثّل الطريق أو المسار، يصعد في الخريطة أعلى فأعلى عبر مساحة بيضاء لا يوجد فيها اسم أيّ مركز مأهول، وصولاً إلى كيديبو حيث يمكن للمرء أن ينام لكن من غير طعام. بعد عدّة مناقشات، تغلّب سحر ذلك الفراغ علينا فقرّرنا السفر إلى كيديبو.

غير أنّي لاحظت في الحال أنّ حماستي للترحال في كاراموجا لم تكن كذلك لدى جونّي، أي سائقنا الأفريقيّ.

1- Hic sunt leones كانت هذه العبارة تكتب لتشير إلى مناطق مجهولة قد تعيش فيها الوحوش أو هي مجاهل في أقصى الأرض التي كان يظنّ أنّها منبسطة ويخشى لذلك أن يهوي الإنسان من أطرافها. (م)

جونّي شخص يقظ وخبير لكنّه يتميّز بحذره المفرط، وكان هو رفيقنا خلال مغامراتنا الأخرى. إنّه من كامبالا العاصمة، لذلك فهو في كلّ اعتبار من سكّان أفريقيا الحديثة، أفريقيا مدن الرأسماليّة الجديدة التي نشأت هنا وهناك خلال العشرين سنة الأخيرة. وقد تأكّدت لدينا شخصيّته المدنيّة عندما مررنا ببيته في لحظة سفرنا. إنّه يسكن في بيت مسبق الصنع في شارع مليء ببيوت مماثلة تقع تحت متراس الأوتوستراد. زوجته امرأة شابّة جميلة ترتدي ثياباً بألوان زاهية، مزيّنة بقطع منتفخة على شكل سلال، سادت موضتها هنا بين سيّدات العوامّ اللائي ازدهرت أحوالهنّ وأصبحن في عداد طبقة البرجوازيّة الصغيرة، وقد صعدت لتعطيه حقيبته الليفيّة التي يستعملها خلال رحلاته. قدّمها لنا جونّي بحركة مختزلة من يده، ثمّ حيّاها من غير ما عناق، قبل أن ننطلق. نظرت إلى جونّي وهو يقود السيّارة. إنّه شديد الأناقة. يرتدي سروالاً أخضر بلون العشب، وقميصاً رسمت عليه مربّعات شطرنج صفر وزرق. تهب هذه الألوان الفاقعة القاسية تأثيراً واضحاً على جلده الملوّن بلون البنّ المحمّص. لجونّي وجهٌ معبّرٌ جدّاً، لكن ليس بتلك التعبيريّة «المنحوتة» التي تميّز الأفارقة الذين يعيشون في الغابات، بل تعبيريّة المواطن «النفسيّة». علاقة الأفارقة الأوائل هي بالطبيعة قبل كلّ شيء، بينما علاقة الآخرين هي مع أشخاص من أمثالهم.

بدأنا مع جونّي كامبالا بالجري على الأوتوستراد الذي يقود إلى نيروبي، ثمّ انعطفنا على الدرب الذي ذكرناه والذي يصعد نحو الشمال بموازاة الحدود مع كينيا ليصل حتّى السودان. هنا تنحسر زراعة الشاي والقطن، وتبدأ الغابات المتعرّجة المتواضعة والخبيثة. بدا في الأفق جبل غريب على شكل قلعة برجيّة، أحمر وأزرق، ربّما كان هو جبل إيلغون الذي يطلّ على جميع أنحاء منطقة مباله. لذلك فقد قلت لجونّي: «لا يبدو أنّك متحمّس جدّاً للذهاب إلى كاراموجا».

أجابني بابتسامة خفيفة يصعب تفسيرها:

«يوجد في كاراموجا أناس ليسوا طيّبين جدّاً».

«لماذا ليسوا طيّبين جدّاً؟».

«إنّهم شديدو الحساسيّة ولا يحبّون الأجانب كثيراً. وهم يتجوّلون مسلّحين بالرماح. ولا يتوانون أبداً عن تصويب رماحهم».

«لكنّهم أوغنديّون مثلك، أليس كذلك؟».

لم يجب هذه المرّة. إنّي أعرف بماذا سيجيب لو كان على معرفة ببعض التحوّلات الاجتماعيّة التي حدثت في بلاده. قد يكون هذا جوابه: «أنا أنتمي لقبيلة معيّنة، بينما ينتمي أهالي كاراموجا إلى قبيلة أخرى. وإذا كان حقّاً أنّنا كلّنا أوغنديّون وأنّ أوغندا أمّة لها حدودها ولها عاصمتها وحكومتها ورايتها، لكنّ العلاقة بين قبيلتي وقبيلة كاراموجا ليست طيّبة». لكنّ جوني يفضّل أن يقول بدلاً من الإدلاء بهذه الحقيقة: «سترى في كيديبو. يوجد هناك لواء من جنودنا، وضع خصّيصاً من أجل أولئك الناس غير الطيّبين الموجودين في كاراموجا».

«يعني؟».

«ذلك لمنعهم من تجاوز الحدود مع كينيا للذهاب لسرقة أبقار الماسّاي وغيرهم من الرعاة في كينيا. إنّهم يذهبون إلى كينيا ويسرقون الأبقار ويقتلون الرعاة قبل أن يعودوا إلى كاراموجا. لذلك فإنّ أهالي كينيا يفعلون مثلهم بالمقابل. وقد رابط جنودنا هناك لمنع هذا النوع من الأمور».

هذا بينما كنّا نجري على المسار الذي ينطلق الآن مباشرة عبر سهوب شاسعة تغطّيها جميعها الغابات، وهي تلتفّ الآن حول قلاع مجوّفة غريبة متآكلة ومنهارة. لا يوجد هنا بيت ولا كوخ ولا غصن شجرة يدلّ على وجود الإنسان في هذه الأنحاء. لا بُدَّ أنّنا في واحدة من تلك المناطق التي يشار إليها في الخرائط الجغرافيّة بمساحة بيضاء بلا اسم، ولا برموز المراكز الآهلة. لكنّه رغم همجيّة المكان وشراسته الماكرة، فإنّه ليس فيه أيّ من الأسود، وهي المعنيّة في عبارة «منطقة وحوش». بل إنّ

الحيوان البريّ الوحيد الذي صادف وأن رأيناه كان النعامة، وكانت قرب فسحة على طرف المسار. كانت عالية جدّاً برأسها الصغير الذي ملأته عينان واسعتان ومستديرتان، وبعنقها الطويل المنتصب بوبره الحليق، وبجسمها الشبيه بكيس معلّق يهتزّ في قمّة ساقيها العاريتين القويّتين كسيقان العدّائين، لهذا الحيوان الغريب ريش على جسمه لكنّه لا يستطيع الطيران، وها هو يحدّق فينا للحظة قبل أن ينعطف بردفه ويهرب بسرعة كبيرة (كما هو الحال بالفعل) ويلتجئ إلى الغابة من جديد.

تقدّمنا إلى الأمام، دائماً بسرعة فائقة. تزداد المناظر حولنا غرابة وعزلة وإثارة للمخاوف. لو كان على القمر ماء ونبات لكان يشبه هذا المنظر: سهوب شاسعة لونها أخضر قاتم كئيب تمتدّ تحت سماء واسعة معلّقة فيها سحب متطاولة رقيقة متجمّعة على شكل لفائف السيجار، وآفاق أغلقتها سلاسل جبليّة مخروطيّة، شبيهة ببراكين خامدة. ثمّ ها هم أخيراً «الناس غير الطيّبين جدّاً» الذين حدّثنا جونّي عنهم.

ها هم في جماعات من شخصين أو ثلاثة، أو وحداناً، يظهرون على طرف المسار كأنّهم قادمون من حيث لا أحد يدري، الغابة وراءهم والغابة أمام عيونهم. إنّهم عراة، عراة بشكل كامل، خلا قطعة قماش من أقمشة الأكياس معلّقة على الصدر والكتفين ومفتوحة من جانبيها. عراة بلون الفحم الأسود، لا يوجد وبر على عاناتهم أو تحت آباطهم أو على صدورهم، لكنّ لهم لحى محدّبة، وهناك في أعلى رؤوسهم شيء يشبه العرف مصنوع من عدّة جدائل من الشعر تبدأ من الجبهة وتدور حول الجمجمة لتصل حتّى الجبهة. عراة، لكنّهم مسلّحون بالرماح. يظهرون مثل الرعاة، بل إنّهم كثيراً ما يسوقون بضع عنزات أمامهم. لكنّه علينا هنا أن نتفاهم حول مفهوم العري. فعريهم هو عري البدائيّين وليس تعرّي العراة السويديّين والأميركيّين. فهذا العري الأخير هو كامل لأنّه متمدّن، أمّا عريهم فهو بدائيّ لذلك فهو مزيّن بل أكاد أقول إنّه مكسوّ بالثياب. إنّه عري معدّل، محلّى، جعلوه معبّراً وناطقاً من خلال كثير من

الوشم والتخديش والسلاسل والأساور والأقراط والخواتم والريش المغروز في جدائل الجمجمة وألوان الأبيض الكلسيّ المنتشرة على نصف الوجه. أجل، إنّهم عراة، لكنّ في عريهم رسالة كبرياء مليئة بالريبة والاستقلاليّة، كبرياء واثقة وواضحة.

ثمّ ها هنّ النساء. كنّ ثلاثاً، يتقدّمهنّ بمسافة كبيرة رجلان، مسلّحان كالعادة بالرماح. توقّفنا. مرّ الرجلان أمامنا وغابا على درب عبر الغابة. أمّا النساء فقد أبطأن، بدا أنّهن ينتظرن أن يغيب الرجال كلّيّة. ثمّ توقّفن. كنّ يرتدين هنّ أيضاً تلك القطعة المعلّقة على الصدر والكتفين والتي تسمح بظهور الصدر والبطن عاريين. كنّ يرفعن ذراع عصا يحملن عليها ثمرات قرع كبيرة معبّأة بالماء. بدا أنّ رؤوسهنّ مقطوعة وموضوعة على صينيّة بسبب وضعيّة الخلْف التي تجبرهنّ على اتّخاذها الأطواق الحديديّة الكثيرة التي تحيط بالرقاب من الصدر صعوداً نحو الذقن. إنّهن صبايا، هناك صفاء أساسيّ عظيم على وجوههنّ، وهو فيهنّ «محفور» على عكس ذلك «النفسيّ» الموجود لدى جونّي. تنظر عيونهنّ إلينا، برّاقة وشبه مغلقة، وبشيء من الخبث الناتج على الأرجح عن وجود صديد غريب جامد يشبك الجفون. ثمّ ها هنّ يبتسمن على حين غرّة ابتسامة عريضة، بطريقة طفوليّة وبريئة، فتظهر أسنانهنّ البيض الناصعة، وبقين يمسكن بأيدي بعضهنّ بعضاً. رأين آلة التصوير مع أحد رفاقي، فطلبن دفع تعويض للصورة. لم يقتنع جونّي بذلك فبدأ يتمتم ويقول إنّه يجب ألّا نصوّر، لأنّ الرجال يرفضون التصوير، ويمكن أن يعودوا إلينا مع رماحهم. لكنّنا لم نصغِ إليه. وبعد أن أخذ المصوّر صورة أولى، تهيّأ لأخذ صورة ثانية. وهنا حدث تغيير جذري في المشهد. إذ مدّت النسوة أيديهنّ استجداء لشلن آخر، وما إن رفضنا، حتّى تحوّلن إلى شرّيرات ورفعن قبضاتهنّ في وجوهنا. ثمّ اختفين، وهنّ رافعات الأيدي من أجل سند ثمرات القرع، صدورهنّ مدلّاة ووجوههنّ إلى الوراء، عدائيّات، قاسيات وجاحدات. كشّر جونّي منتصراً بابتسامة شماتة وعلّق قائلاً وهو

يدير محرّك السيّارة: «ناس غير طيّبين. النساء بحاجة للنقود، لكن يجب ألّا نصوّرهنّ، هذا خطر».

نسير لمسافة حوالي ستّين كيلومتراً أخرى عبر الغابة، ثمّ، ها هي أوّل قرية من قرى كاراموجا، حيث سنتوقّف رغم عدم ارتياح جونّي للأمر. أبقينا زجاج السيّارة مغلقاً، لكنّ الأشخاص المعتادين يصلون عراة ومسلّحين بالرماح من الطريق المزدحم، ثمّ يطلّون لتفحّصنا. من العسير علينا تحديد معنى تعابير هذه النظرات. إنّها ليست فضولاً بالتحديد، بل ربّما كانت نوعاً من التفتيش العابس والدقيق. بعض هذه الوجوه مدهونة بالأبيض، والغريب أنّ لون الجلد الأوروبّيّ الأبيض هذا والموضوع فوق لون الجلد الأفريقيّ يكتسب صفة غريبة ويصبح نوعاً من المحاكاة الساخرة المؤذية. على وقع هذه النظرات المتشكّكة العبوسة المشوّهة، تكوّم جونّي على نفسه في مقعد السيّارة كأنّه مهرّب وقع تحت أنظار رجال الجمارك، وكانت يده موضوعة على مقبض الغيار ليكون على أتمّ الاستعداد للانطلاق بسرعة فائقة. ناداه أحد رجال الكاراموجا من وراء الزجاج. نظر إليه جونّي بوجه من خشب، ولم يجبه. سألته لماذا لا تجيب، فقال بحزن: «من يفهم لغتهم؟ أنا لا أفهمها». في النهاية انطلقنا بعد كثير من العناء.

وصلنا إلى كيديبو مع المغيب. ها هو المرتفع الذي أقيم عليه البناء السكنيّ الصغير. تشاهد من طرف هذا المرتفع سهوب مسطّحة عليها صفوف منتظمة من المخيّمات الشبيهة بالمخيّمات المسيحيّة التي نراها في صور القدس المحرّرة، إنّها خيم الجيش الأوغندي المتحلّقة حول سارية العلم. ويمكن من الطرف الآخر مشاهدة السهل الشاسع الذي تمتدّ عليه الحديقة الوطنيّة المظلمة والضبابيّة والتي تحيط بها جبال صخريّة غريبة الشكل.

يتصرّف جونّي الآن في كيديبو كأنّه سائح في أرض أجنبيّة. أتى معنا إلى مخزن المنشأة، وبينما كنّا نحن نشتري علب اللحم المحفوظ

المعتادة وقطع الخبز المعتادة من أجل العشاء، عمل هو على شراء سارية رمح من حديد وطلب تغليفه «ليأخذه هديّة إلى زوجته». ثمّ ذهبنا لنأكل في صالة البار. رأينا من خلال الزجاج هناك على أطراف الحديقة عدداً من الغزلان الكبيرة مثل الثيران، وهي تعدو في ضوء المساء الأحمر الدخانيّ. لا يوجد في الصالة إلّا طاولة واحدة مشغولة. هناك ثلاثة أفارقة يرتدون ثياباً أوروبّيّة متحلّقين حول صينيّة فيها خروف كامل مشويّ، كانوا ينتفون قطعاً منه بأيديهم. عندما رأى أحدهم أنّي أقطع اللحم المجفّف بسكّين الصيد التي في يدي، جاء وطلب منّي بإنكليزيّة جيّدة أن يستعيرها منّي... نهضت عندها وقدّمتها له. أخذها ونظر إليّ وهو يستعلم منّي بكلّ أدب ودقّة: «وأنت إلى أيّ قبيلة تنتمي؟».

خطوط حمار الوحش

كامبالا، آذار 1971

جرينا عبر السافانا، ثمّ وصلنا إلى دار البعثة خلال الليل. في الظلام قدّم لنا هناك تحيّة الوصول مبشّران إيطاليّان من البعثة. كنّا في فسحة واسعة تحيط بها أبنية منخفضة بطابق واحد. في تلك اللحظة بالذات لمعت وراء الباب الذي عبرناه لتوّنا أضواء سيّارة شاحنة. فتح الباب الخارجي على مصراعيه من جديد ودخلت السيّارة إلى الفسحة. «لحم طازج»، قال أحد المبشّرين. كان يقود السيّارة الشاحنة رجل أفريقيّ وإلى جانبه رجل أفريقيّ آخر، يضع بندقيّة بين ركبتيه. توقّفت الشاحنة وتمّ إنزال بابها الخلفيّ فرأيت على ضوء المصباح أنّ هناك بالفعل لحماً طازجاً، لكنّ الواقع أنّه لحم قد «تمّ تبريده» كما يقال: إذ إنّ هناك في الشاحنة حيوان كنغون وحمار وحش، قد وضعت فوق بعضها بعضاً بعد أن يبّسها الموت. صعد أحد المبشّرين إلى الشاحنة ووضع قدمه بين أعضاء الحيوانات المتصلّبة، بينما حرّك الآخر شاحنة صغيرة لوضعها في محاذاة شاحنة الصيّادين الجائرين. اقتربتُ. كانت شاحنة الصيّادين غير الشرعيّين كالحة بسبب الدمّ المتخثّر تحت رأس حمار الوحش. كانت واخزة رائحة الدم الفاسد الرطب، وتشبه رائحة غسيل المشافي المنقوع، أصابني الغثيان فتراجعت. صعد أحد الصيّادين إلى الشاحنة وساعد المبشّر على نقل حمار الوحش إلى شاحنة البعثة الصغيرة. كان حمار الوحش كبيراً كالحصان بل أكبر منه، وكان من الصعب تحريكه

إلّا ببطء شديد. وكاد رأس الحيوان يمرّ أمام عينيّ. لذلك فقد أثّر في نفسي أمر غريب. فالخطوط البيض والسود (والحقيقة أنّها بنيّة غامقة) التي تشكّل جمال حمار الوحش، الأنيقة عادة والمتوازية بطريقة كاملة وخاصّة على الخطم والأقدام، تعدّلت الآن بسبب الموت وأصبحت غير «متوازية». ليس هذا صحيحاً بالطبع، فالأمر لا يتعدّى كونه من أثر المجزرة التي حلّت برأس الحيوان والتي عملت على بعثرة أجزاء الجلد وتلاصقها، مع ترك بقعة دم متخثّر حول جميع منطقة العين الكبيرة البلّوريّة شبه المغلقة. ومع هذا يبقى الانطباع بأنّ تلك الشرائح خرجت عن مكانها، وأصبحت شبيهة بمربّعات سترة رياضيّة خيطت بطريقة خاطئة من قبل خيّاط فاشل. ساعدني هذا الأمر على إدراك مدى هشاشة جمال الطبيعة. فالخطوط البيض والسود التي تلوّن حمار الوحش هي مثل جناحي الفراشة التي يكفي ضغطٌ قويٌّ من إصبعين لتبديد ألوانها.

في هذه الأثناء وبعد كثير من الدفع، انتقل حمار الوحش من شاحنة الصيّادين إلى شاحنة البعثة. فسألت المبشّرَ المنهك الذي أخذ ينظر إلى يديه الملوّثتين بالدم: «هل هو لذيذ لحم حمار الوحش؟».

«إنّه مثل لحم الحصان، لكنّ لحم الكنغون ألذّ».

«ولماذا لم تأخذ الكنغون إذن؟».

«البعثة فقيرة، وثمن الكنغون مرتفع، لذلك علينا أن نقتنع بحمار الوحش».

بعد قليل جرى الحديث على المائدة في صالة طعام البعثة عن اللاجئين السودانيّين من أفراد قبيلة متمرّدة في المنطقة الاستوائيّة والذين يقومون منذ بضع سنوات بعبور الحدود واللجوء إلى أوغندا. إنّهم أفارقة وثنيّون ومسيحيّون يحاربون في السودان من أجل الاستقلال عن العرب المسلمين. ومن الطبيعيّ أنّ الجيش السودانيّ هو أقوى، لكنّ المتمرّدين يتلقّون مساعدات على ما يبدو من الإسرائيليّين (على مبدأ أعداء أعدائي هم أصدقائي) وهذا ما يمكنّهم من المضايقة في حرب

عصابات شرسة وصلت خلال السنوات السابقة إلى حدّ الإبادة العرقيّة. وقد غيّرت الحكومة السودانيّة مؤخّراً سياستها وقالت إنّه يمكن اعتبار الحرب المدنيّة منتهية. لكنّ المبشّرين ليسوا من هذا الرأي. «قبل أيّام فقط – قال أحدهم – انتقل إلى أوغندا حوالي سبعة آلاف شخص».

«إلى أين ذهبوا؟».

«إلى حيث يستطيعون. انتشروا في القرى، أو تستقبلهم مخيّمات اللاجئين».

«كم عددهم في أوغندا؟».

«يقال إنّهم مئتا ألف، بما فيهم لاجئو واتوسّي من بوروندي».

«أولئك حيث كانت الأغلبية القصيرة تقوم بقطع سيقان الأقليّة الطويلة؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

«فلنقل هكذا».

«وهل يمكننا رؤية هؤلاء اللاجئين؟».

«هذا ليس بالأمر السهل. لأنّ الحكومة الأوغنديّة تستقبلهم، لكنها لا تريد خلق المشاكل مع حكومة السودان...».

ذهبت إلى السرير، ولا أدري لماذا اختلطت في خيالي صورتا حمار الوحش الميّت والأفارقة المطرودين من قراهم. في اليوم التالي، في ضاحية موراتو، من بلدات الشمال الكبيرة، وجدنا أنفسنا، ويا للصدفة، في مخيّم صغير للّاجئين السودانيّين.

إنّهم من سكّان كاراموجا ذوي الأصول النيليّة. وقد أنشؤوا نوعاً من مدينة أكواخ فقيرة بين غبار واحدة من تلك المساحات المعرّاة الشاسعة التي تحيط بالمدن الأفريقيّة. ذلك أنّ فكرة القرية ما تزال حيّة في أذهانهم وإن بصورة مضطربة بعد أن تحطّمت وامّحت. لم تنشأ الأكواخ وفق نظام مميّز معروف، بل إنّها تتزاحم بطريقة غير منتظمة، لتكون قليلة هنا وكثيرة هناك. وهي من القشّ، وإن كان القشّ متلبّداً وقليلاً، بينما تمّ تثبيت الصفائح المعدنيّة المتموّجة بأحجار كبيرة على الأسقف.

كما لم تكن الأرض نظيفة بين الكهوف، بل تبعثرت فوقها الأنقاض، وكان الأطفال يتسامرون بينها عراة والغبار يملأ عيونهم ووجوههم. كما كانت النساء يقمن بأعمالهنّ المنزليّة المعتادة بنوع من الكسل، تقبع الكثيرات منهنّ في ظلّ أشجار المانغو ويثرثرن فيما بينهنّ ويبعن أعداداً قليلة من الفواكه الفاسدة أو بذور الفليفلة. أمّا الرجال فتراهم قرب أبواب الكهوف وهم جالسون القرفصاء على الأرداف وباطن القدمين، شبيهون بصقور منهكة. وهم يحدقّون بعيونهم في الفضاء كأنّما يتابعون أطياف قطعانهم الغائبة. اقتربت من النساء الجالسات في ظلّ أشجار المانغو. ليس لديهنّ إلّا القليل من الخواتم والأطواق والأكاليل وغيرها من أدوات الزينة التي يلبسونها عادة بكثير من الاعتزاز. يرتدين أسمالاً بالية. نجد هنا أيضاً فكرة عن الأنثويّة الأفريقيّة، وإن كانت هنا مرتبكة، ممزّقة، بعيدة عن الطريق. مددن أيديهنّ متضاحكات، جلسن متفرّقات، الأقدام والصدور متباعدة، خبيثات أكثر مما هنّ بريئات. وهنا عادتني بقوّة ذكرى حمار الوحش الميّت وخطوطه المتضرّرة المضطربة. لأنّ هذه المجموعة الأفريقيّة الصغيرة قد ضُربت هي أيضاً حتّى الموت، مثلها مثل حمار الوحش ذاك. وكلّ ما كان متطابقاً في السابق، وكان متّصلاً ومرتبطاً، مثل الكهوف والأشغال والأطفال والرجال والنساء، أصبح الآن منفصلاً مفصولاً مقطّعاً ومفكّكاً. وحلّ الموت محلّ النظام السحريّ الغامض والغريب.

تأكّد لديّ هذا الانطباع في ذلك اليوم بالذات، وبعد جري طويل عبر الغابة. خرجنا بغتة إلى فسحة دائريّة فيها أكثر من أربعة أكواخ. ربّما سمّيناها في إيطاليا «قطعة» أو «جزء». وقفنا لنتفرّج. الأكواخ مستديرة بسقوف مخروطيّة، القشّ كثيف ومجدول بطريقة جيّدة، وجديد، وذو لون واضح جميل. تمّ تشييدها بالتوازي على أربع زوايا لمربّع من الخيال موضوع في دائرة الفسحة. الأرضيّة من التربة الممهّدة، بلون الكاكاو، ملساء، متراصّة وشديدة النظافة. يوجد أمام كلّ كوخ سيبة بثلاث قوائم من حديد، وتوجد نار مشتعلة تحت كلّ سيبة، ويوجد فوق

كلّ سيبة قدر يغلي. وهناك مجارف وأدوات أخرى تستخدم في الأعمال الزراعيّة مركونة أمام أبواب الأكواخ. كما أنّ هناك قرعات تتدلّى من المسامير المثبّتة. وهناك في زاوية من زوايا الفسحة أوتاد مغروسة في الأرض، وشبكة من نحاس تُجفّف فوقها بضعة أوان وصحون وكؤوس وفناجين غُسِلت لتوّها. ويجب أن أقول هنا إنّ النظافة والنظام يتّضحان في أفريقيا أكثر ممّا يمكن لهما أن يتضحا في أوروبّا، لأنّ أفريقيا خالية من الظلال كما أنّ ملامح الأشياء وحدودها مرسومة في فراغ الضوء، إذا صحّ التعبير.

وهكذا فقد أثّر فيّ مرّة أخرى هذا الصفاء الأفريقيّ الصاعق. ها هي امرأة تخرج من أحد الأكواخ. إنّها صبيّة، طويلة، ضخمة، ترتدي قماشاً أزرق يضيق حول الصدر والردفين. وضعت كلّ خواتمها وعقودها وأساورها وقرطيها. تعلو رأسها جدائل تزيّنه من الجبهة وحتّى الرقبة. ابتسمت لنا، ألقت علينا التحيّة ثمّ توجّهت نحو زاوية من الفسحة حيث يجثم على الأرض جذع شجرة ضخم. تناولت فأساً وثبّتت الجذع بقدمها الحافية، وبدأت بتحطيمه وتقسيمه إلى أجزاء. رفعت ذراعها بالفأس وأخذت بالضرب بدقّة رغم قرب المسافة من قدمها. ثمّ توقّفت والتفتت بجذعها بحركة رشيقة ناعمة وجميلة. ابتسمت لسائقنا وأخذت بالحديث معه. بغتة أجبرني حفيف أوراق الشجرة أن أرفع عينيّ. كان هناك قردان أو ثلاثة تتواثب ويتعقّب بعضها بعضاً بين الأغصان العالية فوق شجرة كبيرة على طرف الفسحة. لا أدري لماذا تخيّلت أنّ ذلك الحفيف سيتبعه إطلاق رصاص وجنود يخرجون من الغابة ليهجموا ويقلبوا السيب الحديديّة على الأرض ثمّ يغتصبون النساء ويحرقون الأكواخ. وهنا عادت إلى ذهني مرّة أخرى صورة حمار الوحش الميّت وخطوطه التي لم تعد متناسقة.

بعد قليل خرجنا نهائيّاً من الغابة الكثيفة وظلامها إلى نور السافانا. ها هي الآن سهوب شاسعة تكاد تكون بيضاً. زرعت بين الأعشاب الطويلة

شجيرات مستديرة ضخمة توزّعت بشكل عشوائيّ غريب تحت ظلال الأوراق المبعثرة على شكل مظلّة. كانت الشجيرات خضراً قاتمة، وقد نمت حول جذوع أشجار الأكاسيا المائلة والشائكة. وكان هناك على بعد أمتار قليلة من المسار قطيع كامل من حمر الوحش، اضطجع بعضها على الأرض كأنّما ليستريح، وتجمّعت أخرى كما تفعل الخيل، وقوفاً، رؤوس بعضها مقابل أذناب رفاقها وأذناب الأخرى مقابل رؤوس البعض الآخر. وقفنا لنتفرّج ونتأمّل جمال تلك الخطوط البيض والسود وكيف تختلط ببعضها بعضاً بطريقة أنيقة ورائعة. لكنّ حمر الوحش هذه هربت فجأة جميعها عند سماع ضجيج محرّك السيّارة. هربت وبدأت بالعدو بين أعشاب السافانا حاملة معها خطوطها البيض والسود التي بقيت رغم العدْوِ لائقة ومتوازية ومتلائمة بين بعضها بعضاً. إنّ الرعب وغريزة البقاء هي من علامات الحياة.

لقاءات في مالينـدي

مالينـدي، نيسان 1971

في الصباح الباكر. ما زالت السماء ضبابيّة إلى حدّ ما، والبحر أخضر مثل المروج، تمتدّ أمواجه الطويلة مزيّنة بزبد أبيض، تنطلق من الشعاب المرجانيّة البعيدة وتتقلّب متكاسلةً بحفيفها، كأنّها سجّاد من ماء، ذلك حتّى تنتشر منهكة على الشاطئ. تبزغ الشمس خلف أعمدة النخيل الخضر، ويضيء الساحل الشاسع حتّى إنّ كلّ ذرّة رمل تشعّ بظلّ زهري ناعم تحتها. في تلك الساعة المبكّرة، يخرج من أبواب الفندق المصفوفة على الكثبان بشكل نصف دائريّ وبطراز على هيئة الطراز العربيّ، يخرج بعض الأطفال الشقر متفرّقين، وثلاثة أو أربعة أشخاص كبار نحيلين جدّاً، فضلاً عن اثنتين من السيّدات، كأنّهما مصابتان بداء النقرس. كان كلّ منهم يحمل كتاباً في يده. ذهبوا بسرعة نحو مجموعات كراسي الاستلقاء الموضوعة تحت المظلّات حول المسبح، رموا الكتب على الكراسي ودخلوا خلسة إلى الفندق. إنّه النزاع على أفريقيا، تنازع أفريقيا... أي إنّ الخصام مستمرّ وإن اختلفت الأدوات. ذات مرّة كان هناك تسابق على احتلال الأراضي، أمّا الآن فهو تسابق على كراسي الاستلقاء.

وهكذا فما إن وصلت بعد قليل وبنيّتي الاستلقاء تحت أشعّة الشمس، حتّى وجدت أنّ جميع الأماكن محجوزة رغم أنّها فارغة. انتهزت الفرصة لأرى ماذا تقرأ الطبقة المتوسّطة البريطانيّة خلال العطلة في مستعمرة

سابقة. هناك مصطلح في العاميّة الأميركيّة معبّر جدّاً يدلّ بشكل رائع على هذا النوع من المطالعة: crap... حماقات وترّهات. فالكتب التي يستخدمها ضيوف فندقي من أجل الاستيلاء على مقعد تحت الشمس تحتوي على روايات عاطفيّة ذائعة الصيت، روايات سيف وترس، كتب رعب بوليسيّة، سير ذاتيّة على شكل قصص. وممّا يثير هو الغياب الكامل لكتب عن أفريقيا. رغم أنّ من يسافر أو من يقيم في أفريقيا لا بُدَّ أن يشعر بالفضول وبحاجة قويّة (وهذا شأني أنا على أقلّ تقدير) لأن يعرف المزيد عمّا يسمّى القارّة الغامضة. علماً أنّ الباحثين الإنكليز هم من ألّف أفضل الكتب حول الموضوع، كما يمكن لنا أن نرى في مكتبات مومباسّا، كامبالا، ونيروبي. على كلّ فالطبقة المتوسّطة التي تملأ الفندق تريد أن تتجاهل أنّ ماليندي هي على بعد آلاف الكيلومترات من بريغتون. إنّ هذا لمزاح قام به الاستعمار، عن غير وعي منه، إذا صحّ التعبير.

بعد أن تأكّدت أنّه لا توجد أمكنة تحت المظلّات، قرّرت أن أقوم بجولة على شاطئ البحر. نزلت من الكثبان عبر الشاطئ. شاهدت قوس الساحل وهو يضيع من طرفيه في سحابة ضبابيّة مذهّبة قوامها الرمال والضياء. يمتدّ الشاطئ من أحد الطرفين على طول البحر بمحاذاة الكثبان، ويبقى مقفراً أبيض، حتّى يلتقي بالرأس الغارق في الضباب، وهو يبقى في الطرف الثاني كذلك مقفراً أبيض، لكنّه يمتدّ بموازاةِ شبهِ دائرةٍ من الأبنية الغريبة المشادة على الطراز العربيّ والإسباني والبولينيزيّ، وهي سلسلة فنادق تتواصل حتّى تلتقي بأطياف البيوت البعيدة وبالقبب وبمآذن البلدة القديمة. خلعت نعليّ وتبعت، متلهّياً لاعباً، موجةً وهي تنحسر بعدما امتدّت قبل قليل حتّى منتصف الشاطئ. هأنذا الآن في وسط فسحة شاسعة من رمل كالمرآة، بينما تقرقر المياه هناك وهي تواصل تراجعها. ولا أعلم إن كان هذا نتيجة الشمس أو بسبب الحبيبات المعدنيّة، لكنّه من المؤكّد أنّ للرمل المبلّل لوناً مثل الذهب الغامق كالنحاس، مربّعاته ناعمة، بتربيع مائل، مكوّن من ملايين

من المعيّنات الصغيرة جدّاً. تتواثب هنا وهناك فوق هذه المرآة الذهبيّة طيور بحريّة حذرة ومرهفة الحساسيّة وذات بياض ناصع، سيقانها دقيقة وطويلة ومنقارها طويل. كثيراً ما أجد في الرمال حفراً مستديرة وإلى جانبها كوم رمل فضفاض. ها هو صاحب الحفرة يبزغ منها بحذر. إنّه سلطعون ضخم لونه زهريّ باهت مظلّل بلون بنيّ. إنّه يسير القهقرى ويسعى لتعقّب الموجة التي تنحسر. أرجعته إلى الوراء بضربة من قدمي، فرفع كمّاشتيه الكبيرتين ليتصدّى لي بشجاعة. ذلك قبل أن تغمره موجة رحيمة، وتسوقه بعيداً في حضنها السائل بين الجزيئات السود والطحالب الخضر. استأنفت سيري.

بدأت مقابلاتي. ها هي فتاة عارية الصدر. ليست جميلة ولا قبيحة، وربّما ليست صغيرة السنّ، سمراء، جسمها دهنيّ شاحب أحرقته الشمس الاستوائيّة بشكل غير متساوٍ، تعرض صدرها العاري وهي تسير إلى جانب فتى ملتحٍ، يبدو أنّها منهمكة معه في حديث جادّ. ينسدل على أحد كتفيها قسم من شعرها بينما يغطّي القسم الآخر بعضاً من صدرها. وعندما تهزّ رأسها بين الفينة والأخرى فإنّ خصلات شعرها تأخذ كلّ منها مكان الأخرى، فيتغطّى القسم المكشوف من الصدر وينكشف القسم المغطّى من الظهر.

أتقدّم إلى الأمام فأجد الكلاب مع أصحابها. كلّ الكلاب من عروق أصيلة، صغيرة السنّ وجميلة، أمّا أصحابها فلا بُدَّ أنّهم من سكّان مالينديِ القدامى، كلّهم كبار في السنّ. بينهم سيّدات وآنسات مسنّات، عسكريّون كبار في السنّ متقاعدون، وكذلك موظّفون متقاعدون.

ها هما كلبان رائعان من سلالة basset hounds تمّ تجليلهما بقماش بنيّ وأبيض، يبدوان مضحكين بأقدامهما الضخمة الملتوية وبجسميهما الطويلين وبطنيهما اللذين يلمسان الرمال. ها هما اثنان آخران تزوّجا ربّما: عملاق من سلالة alano رماديّ ووورديّ مع كلبة من سلالة chihuahua سوداء، صغيرة جدّاً مثل العفريت. وها هو كلب من سلالة

أفغانيّة نحيل وكثيف الوبر. وها هي كلاب كثيرة من سلالة البوروبّون، بيض وسود وبنّيّة. هناك لحظة يتقابل فيها جميع الكلاب وتشكّل وسط الشاطئ نوعاً من البرلمان الكلبيّ الصغير. إنّها تشمّ بعضها بعضاً، تتفحّص بعضها وهي تهزّ أذنابها وتعبّر عن صداقتها لبعضها بعضاً وترابطها مع بعضها بعضاً. بينما يتجنّب أصحابها المتباغضين وأعداء البشريّة أن يحيّوا بعضهم بعضاً أو أن يكلّموا بعضهم بعضاً، بل يتابعون سيرهم الحزين، وجنازيرهم تحت آباطهم.

بعد الفتاة العارية الصدر، وبعد الكلاب، جاء الآن دور فتى أفريقي بهيّ الطلعة يقف في كمين بانتظار مغامرة يقوم بها. والحقيقة أنّ هناك دائماً اثنين أو ثلاثة مثله يترنّحون على طول الشاطئ ينتظرون كسالى، وينظرون حولهم. أمّا ذلك الذي رأيته هذا الصباح فيرتدي سروالاً أسود وقميصاً أبيض، يحمل قصبة في يده، ويرسم الزخارف على رمال الشاطئ. تظهر على حين غرّة امرأة في منتصف العمر ترتدي رداء أخضر وسروالاً أصفر ذي أطراف عريضة فضفاضة. يهتزّ طرف قبعة القشّ التي تعتمرها على وجهها المنحني، بينما تتقدّم هي بصعوبة فوق طرف جافّ من الشاطئ. أمّا الفتى الأفريقيّ الذي كان يرسم بالقصبة على الرمال فقد انحرف وتحرّك عندما رأى المرأة. لم يبدُ أنّ المرأة قد انتبهت إليه، لكنّها من الواضح أنّها أبطأت خطاها ثمّ سارت بزاوية حادّة مع مشية الأفريقيّ ممّا يسمح له بأن يلحق بها. وهذا ما حدث بالفعل. سار الأفريقيّ إلى جانب المرأة، بدأ بالتحدّث معها من غير أن تلتفت هي إليه، ولم ترفع رأسها من تحت جناح القبّعة، ولم تتوقّف، لكنّها كانت تجيبه: وقد عرفت هذا من خلال حركات شفتيها. وهكذا فقد ابتعدا وكلّ منهما يسير إلى جانب الآخر، ويتحادثان: هو مستدير نحوها وهي تسير برأس منحنٍ من غير أن تنظر إليه.

ابتعدا ببطء مقصود، لكنّه معبّر أكثر من أيّة سرعة متهوّرة. كنت أسير على طول الشاطئ وأنا مفتون بالنظر إليهما، حتّى رأيت أنّهما يبتعدان أكثر

فأكثر، وحتّى لم يعد بوسعي في نهاية الأمر أن أميّز غير أطراف سروال المرأة الأصفر وهي ترفرف وسط هباب الرمال والضوء وزبد البحر. ثمّ ها هما هناك بعيداً حيث تنتهي سلسلة الفنادق ويواصل الساحل امتداده مقفراً، ها هما يسيران الآن على طول الشاطئ بالبطء نفسه قبل أن يغيبا بين الكثبان.

لقاء آخر: فتاة تمتطي صهوة حصان برفقة أبيها. إنّها شقراء، صغيرة، مربوعة، ضخمة. تركب فرساً سوداء كبيرة، ترتدي قميصاً وسروالاً قصيراً وجزمة من جلد خام يكشف عن ركبتيها اللتين تشدّان على السرج. ينسدل شعرها على كتفيها، أشقر متراصّاً. يتبعها أبوها على حصان أبيض موشّى بلون رماديّ. إنّه نسخة ذكريّة مجسّمة عن ابنته، الجبهة الصلبة نفسها، الأنف الصغير الأفطس نفسه، والذقن المربّعة ذاتها. يعدوان في أعلى الشاطئ حيث الرمال أعمق. ويتّجهان هما أيضاً نحو الطرف المقفر الخالي من الساحل. جاءا هما أيضاً من ناحية ليس فيها إلّا البحر والسماء والرمال وامتزجا بعدها بالرياح والضوء قبل أن يختفيا بين الكثبان.

في النهاية ها هنّ هنديّات يتحمّمن مع أطفالهنّ. اجتزن الشاطئ وهنّ يرتدين لباس الساري الأبيض والليلكي والأخضر والأزرق. يظهرن مثل ديدان ضخمة وهنّ ملفوفات على هذا الشكل بينما تبرز في رؤوسهنّ عيون سود كبيرة. ولجن إلى الماء من غير أن يخلعن الثياب، وهكذا أصبحت أردية الساري البيض شفّافة في الحال، فتبدّت عن لفائف أخرى داخليّة بيض. ها هنّ ينتشرن في البحر مثنى وثلاث وهنّ يمسكن بالأطفال بأيديهنّ. وعندما تغمرهنّ موجة عارمة فإنّك ترى الهنديّات وهنّ يعاركنها بطريقة مضحكة قبل أن يسقطن تحت الماء، ثمّ ما يلبثن أن ينهضن وهنّ يتخبّطن ويصرخن، حتّى ليشبّههن المرء براهبات غير معتادات على البحر والشمس والطبيعة، يسبحن في البحر جماعات جماعات، بعيداً عن أعين المتطفلين.

بدّدت الشمس آخر الضباب، وأخذت تلتهب وتلسع. صعدتُ من الشاطئ عبر درب بين فندقين، ووصلت إلى الطريق التي توصل

إلى مومباسا. كانت غارقة في الظلّ، فتابعت سيري عبر أبنية مسبقة الصنع، جديدة ونظيفة، تابعة لماليندي الإنكليزيّة التي شيّدت على بعد كيلومترات قريباً من ماليندي العربيّة القديمة. كانت تلك ساعة تذهب فيها النساء الأوروبيّات بالسيّارات بصحبة أطفالهنّ لشراء بعض الحاجيّات الصباحيّة. ها هنّ يتوقّفن أمام الواجهات الواسعة لمحلّات نظيفة، تختلف كلّ الاختلاف عن المخازن المظلمة في المدينة العربيّة. ثمّ يتركن أولادهنّ في السيّارات، يشترين من السوبرماركت حاجيّاتهنّ من طعام محفوظ في العلب، وأغذية ملفوفة بالسيلوفان وزجاجات، ويرمين بالمشتريات على المقاعد الخلفيّة للسيّارات قبل أن ينطلقن بسرعة من جديد. يتوقّفن في البنوك لسحب النقود، وفي مكتب البريد لإرسال الرسائل، ولدى صالونات التجميل لحجز موعد. تستدير سيّاراتهنّ الكبيرة من نوع الصالون قبل أن تدخل عبر طرقات حقليّة إلى البيوت العائلية المخفيّة ضمن حدائق مليئة بالزهور الاستوائيّة.

أمّا النساء الأفريقيّات فيسرن على أقدامهنّ لشراء الحاجيّات الصبّاحيّة ويتوجّهن نحو المدينة العربيّة وسوقها الصغيرة الصاخبة وغير القانونيّة. يسرن في صفّ على الطريقة الهنديّة ويحملن سلالاً فارغة فوق رؤوسهنّ، يربطن خصورهنّ بقماش ملوّن بألوان حيويّة، بينما يبقى الجذع عارياً. من الواضح أنّ أحد الثديين أطول من الآخر بمقدار كفّ، لأنّهنّ يرضعن منه الأطفال. لون وجوههنّ مثل الفحم، ولهنّ مظهر ذكوريّ وتعابير مضطربة مثل تعابير وجوه رجال مرهقين ومتألّمين. هناك طفل حبيس ضمن شال ملفوف على ظهر إحدى النساء، يبرز برأسه ويدوّر عينيه فيما حوله يراقب بهدوء مناظر العالم.

توقّفتُ عند إحدى العربات واشتريت ثمرة مانجو وأخذت بتناولها وأنا أسير. قضمت اللبّ الأصفر الحامض ورميت البذرة الضخمة، الشبيهة بحصاة نهر بيضويّة. ذكّرتني هذه الحركة برحلة أخرى قمت بها إلى أفريقيا. كنّا قد تبعنا الطريق التي كانت قوافل العبيد تسير عليها قبل

مئة سنة. كانت الطريق تتظلّل بين الحين والآخر بأشجار المانجو الرائعة ذات الأوراق الثابتة الشحميّة الملمس والقاتمة اللون. قال لي أحدهم إنّ تلك الأشجار قد نمت من البذور التي كان العبيد يرمونها على طول الشاطئ، بعد أن يأكلوا الثمار، رغم أنّهم كانوا مقيّدين بالأصفاد.

أزِل الهمّ عن قلبك

دار السلام، نيسان 1971

الفنادق الكبيرة التي تؤمّها جماهير السيّاح والتي بنيت هنا وهناك في أنحاء أفريقيا خلال السنوات الأخيرة، تشبه الواجهات التي يقال إنّ الأمير بوتمكين قد بناها ليستقبل أو بالأحرى ليخدع كاترينا العظيمة خدعة كريمة. كان هناك خلف واجهات بوتمكين مستنقعات متجمّدة وأكواخ بطرسبرغ. كذلك فإنّ هناك خلف الفنادق الأفريقيّة الشعبيّة الكبيرة فراغ السافانا، وقرى بائسة وأوبئة متربّصة وخرافات مرعبة. فكّرت بهذه الأمور وأنا أتمشّى وسط البهو في الفندق الرئيس في دار السلام، وهو من أكبر فنادق أفريقيا. فلماذا كلّ هذه العظمة وهذه الفخامة؟ قلت في نفسي إنّه على عكس المبشّرين الذين يشاركون الأفارقة طريقة معيشتهم ويتعذّبون بعذابهم، وعلى عكس أثرياء السفاري الذين لا يريدون إلّا قتل الوحوش فحسب، فإنّ روّاد السياحة الجماهيريّة الواسعة يتميّزون بنفسٍ «هشّة»، ولا يملكون أن يدفعوا عن أنفسهم الشعور بالذنب، كما أنّهم لا يملكون شفقة الأوائل ولا تكالب الآخرين. لكن، من جهة أخرى، لماذا ذلك الشعور بالذنب؟

من الواضح مرّة أخرى أنّ الجماهير تتحسّس من السلطة سواء كانت في يدها أو كانت تطمع فيها. لهذا فهي لا تحبّ أن تتسلّى وسط العذاب والفاقة التي تشعر بأنّها مسؤولة عنها لأنّها ذات سلطة وقوّة.

في كلّ الأحوال فنحن أيضاً من روّاد السياحة الجماهيريّة، وإنّ كنّا لا نشعر بالذنب، وها نحن لهذا نتصرّف تصرّف الجماهير، أي إنّنا نقرّر قضاء يوم على شاطئ المحيط الهنديّ، ويمكن لنا أن نذهب إلى زنجبار حيث الهواء نظيف والشواطئ مرجانيّة ناصعة والبحر أخضر وفيها غابات نخيل. لكنّ مواعيد الطائرة لا تناسبنا. لذلك فقد حوّلنا وجهتنا إلى باغامويو التي تبعد حوالي مئة كيلومتر عن دار السلام.

تعني كلمة باغامويو على ما يبدو «أزل الهمّ عن قلبك»، وهذا ما يشبه للوهلة الأولى ما يقال لدينا: «شاهِدْ نابولي ومت بعد ذلك»[1]. لكنّ أفريقيا ليست قارّة لطيفة. ولهذا فإنّ اسم باغامويو يتّخذ في الحال معنى ساخراً جدّاً عندما يتذكّر المرء أنّ قوافل العبيد كانت تؤمّ البلدة قبل حوالي قرن من الزمن. وأنّ العبيد كانوا يشحنون في باغامويو بالسفن العربيّة الرشيقة ليذهبوا بهم إلى زنجبار حيث يباعون في الأسواق. لذلك فلا مكان لقول «شاهِدْ نابولي ومت بعد ذلك»، بل هناك ما هو أصلح منه وإن كان ليس أقلّ سخرية من الأوّل، وهو ما كان مكتوباً على مدخل معسكر الإبادة النازيّ المسمّى آوشفيتز: «العمل يجعل الإنسان حرّاً»[2]. لكن هل كان إذن مجرّد سخرية ذلك «الهمّ»، الذي زال عن قلوبنا عندما وصلنا إلى باغامويو؟ أجل، في كثير من نواحيه، لكن لا يمكننا أن نستبعد أنّه حتّى العبوديّة بالذات، قد تحوّلت إلى نوع من الراحة المرعبة، بعد أن أصبحت أكيدة، لا مفرّ منها، بالنسبة لكثيرين ممّن وصلوا إلى باغامويو بعد رحلة طويلة جدّاً وشاقّة ومميتة عبر القارّة.

سافرنا في الصباح. وعدتنا الخريطة الجغرافيّة بوجود طريق معبّدة بالإسفلت حتّى باغامايو، ولهذا كنّا على ثقة من الوصول في غضون ساعة أو أكثر بقليل. كان وهماً! فعلى بعد حوالي عشرين كيلومتراً من دار السلام ينتهي الإسفلت ويبدأ مسار ترابيّ. لكن علينا أن نوضّح هنا

1- بمعنى عليك أن تشاهد نابولي، ولا بأس أن تموت بعد ذلك. (م)

2- «Arbeit macht frei». (م)

معنى المسار. لأنّ أرضيّة مسارات المرتفع تكون عادة ناعمة وصلبة، بل هي أفضل من الأوتوستراد. لكنّ المسار المفضي إلى باغامويو رمليّ. من رمل جافّ وناعم جدّاً شبيه برمل الشواطئ البحريّة، وقد حفرت إطارات السيّارات الضخمة أخاديد عميقة فيها، ومن الضروريّ اتّباع هذه الأخاديد وإلّا فيا للمصيبة. كنّا لهذا نسير بسرعة عشرين كيلومتراً في الساعة حرصاً على ألّا تخرج إطارات سيّارتنا عن السكّة التي تتلوّى فوق الرمال. كان البحر قربنا عكراً مضطرباً، يمتدّ وراء شريط أخضر من النباتات، أبيض متموّجاً تحت الرياح البحريّة.

اجتزنا لحسن الحظّ منطقة مسكونة بكثافة. كنّا غالباً ما نرى بين الأشجار فسحة من أسقف القشّ المخروطيّة أو تلك المسطّحة المصنوعة من الصفيح تعلو بضعة أكواخ غارقة في الغابة الاستوائيّة. كانت هذه الفسحة التي تحيط بها الأكواخ، مليئة بالأطفال والحيوانات الأهليّة، وكانوا يتسكّعون فوق أرضيّة التراب المصقولة بين حفر نتنة مليئة بالماء. وكما يحدث دائماً في الأرياف، فإنّ الناس يجلسون على حوافّ الطريق ليروا ماذا يجري وماذا يحدث. هناك مجموعات من الرجال يجلسون القرفصاء تحت ظلال المانغو وراء أكوام فواكه للبيع. وهناك مجموعات من النساء واقفات يحملن الأطفال على أذرعهنّ. لكنّ الأمور التي تحدث وتجري على طرقات تنزانيا ليست للأسف كثيرة. إذ يمكن أن تأتي مثلاً حافلة، وهذا أمر لا يخلو عادة من بعض الأهميّة، خاصّة إذا كانت الحافلة المرجرجة والمتعدّدة الألوان طافحة مليئة بركّاب ينفجرون خارج النوافذ، إذا صحّ التعبير. يمكن أن تمرّ أيضاً سيّارة مأتميّة ضخمة استأجرتها في دار السلام بعض العائلات لتذهب بها إلى احتفال قبليّ يقام في بلدتها الأصليّة. وهذا أمر لا يمكن ازدراؤه أيضاً، خاصّة إذا كانت النساء ترتدين ثياباً على الطريقة الأوروبّيّة، قام طلبة العاصمة مؤخّراً بمظاهرات لشجبها. ويمكن أيضاً أن يحدث في النهاية أن تقلّ بعض السيّارات شخصيّة حكوميّة ملفوفة ضمن براقع السلطة، كما تلفّ

سيّارتها بالذات غمامة من الغبار. وهذه هي المناسبة الأصلح وإن كانت غير مرجّحة، لأنّها تفسح المجال أمام مظاهر من التعاطف الديمقراطيّ. لكنّ الأمور التي يمكن أن تحدث على الطريق تنتهي هنا. وهكذا فإنّ الأمر المهمّ بالفعل والجديد ليس مرور هذه أو تلك السيّارة، بل ما قد يحدث لهذه السيّارة وهي تمرّ. بكلمة واحدة: الانغراز.

إذا كانت تقودها يد غير خبيرة، فإنّها تخرج عن مسارها وتبقى بلا حراك. بينما تدور إطاراتها عبثاً في الرمال رغم دفع المحرّك الذي يدفعها بقوّة. وكما سبق وأن بيّنّا فإنّ الحدث موجود ويمكن له أن يثير نوعاً من الحركة، رغم أنّه ليس بالحدث الكبير أو المثير الصادم. وهكذا فقد سارع الرجال الذين كانوا يستظلّون بأشجار المانغو، فوضع بعضهم سعف النخيل تحت الإطارات، وحاول البعض الآخر دفع السيّارة. أمّا النساء فقد وقفن يراقبن عمل الرجال ويعلّقن عليه. هناك أخيراً من بقي يتحدّث عن شؤونه الخاصة مع الآخرين، لكن «بالقرب» من السيّارة المنغرزة. إنّهم مثل تلك الشخصيّات التي نراها في اللوحات البدائيّة وهي تتحدّث في الخلف، بينما نرى في الصفّ الأوّل القدّيسَ الراكع، يداه مقيّدتان وراء ظهره، وعنقه في يد الجلّاد.

لحسن الحظّ لم نكن نحن ضحايا مثل هذا الحادث، بل كنّا مسبّبيه. ذلك عندما كنّا على المنعطف ووجدنا أنفسنا وجهاً لوجه مع سيّارة صغيرة يقودها شخص أوروبّيّ في منتصف العمر، وكان وحده. توقّفنا نحن وتوقّف هو أيضاً. المسارات ملتوية في عمق الرمال. وهما مساران فقط، هذا يعني أنّه إذا لم يتنحّ أحدنا فلا محال عن الصدام. لكنّ تجنّب الصدام يعني بالطبع الخروج عن المسار والانغراز في الرمل. بعد دقيقة من الثبات، حاول سائقنا اللعب بدهاء، فتصنّع، كما يتصنّعون في مبارزات السلاح الأبيض، أنّه يرتمي قليلاً نحو اليمين. لكنّ الخصم التقم الحيلة وارتمى هو الآخر بكلّ سذاجة نحو اليسار. فخرجت سيّارته عن المسار واصطدمت بشجرة. وهنا خرج من جميع الجهات أشخاص خدومون

وجاهزون للمساعدة بعد أن تابعوا مبارزتنا برجاء مفعم بالقلق. لكنّنا تركناهم يشتغلون بالسيّارة المنغرزة وتابعنا سيرنا.

ها هي أشجار جوز الهند، عارية وهزيلة، بجذوعها النحيلة التي تحمل في أعلاها قليلاً من الأوراق الحادّة، وتحت الأوراق عناقيد الثمار الضخمة. ثمّ ها هي باغامويو بعد المنعطف. كنت قد سمعت الحديث عنها على أنّها بلدة كبيرة. لكنّها ليست إلّا قرية صغيرة، فيها شارعان متوازيان تحيط بهما الأجنحة والمحلّات التجارية المعتادة، والتي تبدأ من أسقف السوق لتضيع بعد قليل في الغابة. اشترينا من المخزن الهنديّ طعام الفطور وكان عبارة عن لحوم البقر المحفوظ وشرائح الخبز، ثمّ بدأنا ندور. عندها اكتشفنا أنّ باغامايو القديمة التي تعود إلى زمن الاستعمار الألمانيّ قد بدأت تنهار وتتلاشى بين الأعشاب المرتفعة ومجموعات النخيل، على مقربة من القرية. كانت عبارة عن فيلّات عربيّة قديمة مهجورة بالكامل، وقد غزت الأعشاب الضارّة حدائقها وصدئت أبوابها المكسورة، وتحطّم زجاج نوافذها. رغم أنّها كانت أبنية إداريّة، تهاوت الآن فأهملت ونسي أمرها، شيّدها الألمان قبل قرن من الزمان على الطراز الشرقيّ تقريباً، وطليت باللون الأبيض الكلسيّ، وزيّنت بالأسوار والقرانص والأقواس، كما وضع فوق النوافذ شبابيك خشبيّة تضمن التهوية والظلال في غياب التكييف المركزيّ.

هناك قصيدة نثريّة من «فصل في الجحيم»[1] للشاعر رامبو يتخيّل فيها أنّه يتأمّل «السماء الزرقاء وأزهار البساتين» من وجهة نظر شخص مشؤوم، أي بعيني رجل مدان وملاحق وخارج عن القانون. فمن السهل في باغامايو أن تثور حماسة الإنسان أمام جمال المكان، لكنّ هناك مقابل هذه الحماسة السهلة الرؤية التي يمكن للشخص أن ينظر فيها إلى الشاطئ والنخيل والسماء والمحيط من خلال وجهة نظر العبد، أي بعيني الإنسان الذي يعلم أنّه لن يكون بوسعه أبداً أن يرى الحريّة من جديد.

1- Une saison en enfer- A Season in Hell - Arthur Rimbaud . (م)

نزلنا عبر طريق واسع نحو البحر، فوجدنا هناك على بعد خطوتين من الشاطئ، شجرة ضخمة أوراقها عملاقة مستديرة وقاتمة، وجذعها غليظ بحيث تبدو أغصانها التي ترتفع نحو السماء كأنّها ملتحمة مباشرة بجذور ليست أقلّ غلاظة وتفرّعاً، مع أنّها غارقة تحت التراب. كان هناك حلقة حديديّة مثبّتة على الجذع، وقد ربط بتلك الحلقة الجنزير الذي كان يستعمل أصفاداً للعبوديّة. جلسنا القرفصاء بانتظار ركوب الزورق فوق الرمل على مسافة قصيرة من شجرة المانغو، وأخذنا ننظر. ما أجمل شاطئ باغامويا! تلك القطعة الناصعة من الأرض التي ترافق قوس الخليج، بين البحر العاصف وأشجار النخيل المائلة التي يحجبها على مدّ النظر، ما تحمله الرياح من هباب رمل ورغوة بحر. إنّه شاطئ جميل بالفعل! لكنّه مقفر! تناسيت للحظة التفكير بالمنظر «من خلال وجهة نظر الرقيق»، لأقول في نفسي إنّه لا يعرف السعادة من لم يشاهد الشمس وهي تتألّق باهرة على قمم أشجار النخيل وبين أوراق أشجاره وهي تميل إلى الخلف تحت وقع نسمات الريح. لكنّ «فكرة الرقيق» ما لبثت أن عادت مباشرة إلى رأسي. إذ لا يمكن لمثله أن يقتنع بلعبة القياسات والرموز: البحر هو شعار الحريّة، لكنّه يكتسب في ذهنه معنى معاكساً، لأنّه في الوقت الذي كان ينظر فيه ذلك الرقيق إلى هذا البحر كان يقول أيضاً في نفسه إنّ هناك عبودية مدى الحياة تنتظره وراء تلك الأمواج الزرق. كما أنّ تلك العناقيد من الأوراق التي تبعثرها الرياح وتصفعها أشعّة الشمس، على خلفيّة السماء الحارقة، لا يمكن لها، بكلّ بريقها وتمايلها، أن تلهمه شيئاً من السعادة، بل إنّها تورث في نفسه الحزن وتوقّعات الحنين...

ساحل العبيد

لومي، كانون الثاني 1972

خلال القرن الثامن عشر كان بوسع الإنسان أن يسافر على طريقة هيرودوتس[1]، أي أن يرحل بين بلاد ليس لها حدود مرسومة، بل مروراً بمناطق قبليّة مختلفة وغير محدّدة. لذلك فقد تحدّث هيرودوتس عن عالم بلا حدود كان الناس يختلطون ضمنه باستمرار وبحسب إملاءات الترحال في أزمان الحرب أو السلام، وهكذا فإنّه يسوق لنا مثلاً أسماء سكّان ليبيا، فهم: الأدروماخيداي- الجليجاماي - الأسبوستاي - المارماريداي - الأوسخيساي - النسامونيس - المكاي - آكلة اللوتس - الجرامنت - الجيتول - المـور -الإستوريون - لواتة[2]. كان هذا هو وضع أفريقيا السمراء قبل مئة عام خلت. وإذا وجدت حينها بعض الإمبراطوريّات والممالك، فذلك كان يحدث لأنّها تشكّلت حول بعض الشخصيّات القويّة أو الأسر. وعندما انقرضت الأولى وتهالكت الثانية، عادوا فانحلّوا من غير أن يفلحوا في إيجاد استثناء تاريخيّ ضمن نظم الطبيعة.

تمّ على طاولات التفاوض في عهد الاستعمار اختراع حوالي ثلاثين

1- هيرودوت أو هيرودوتس مؤرّخ إغريقيّ عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وعرف بفضل كتابه تاريخ هيرودوتس الذي يصف فيه أحوال البلاد والأشخاص الذين قابلهم خلال ترحاله حول حوض البحر المتوسط. لكن موضوع كتابه الأساسي هو الحروب بين الإغريق والفرس، بل يقال إنّه حضر بعض تلك المعارك. (م)

2- التعريب كما ورد في تاريخ ليبيا القديم في موسوعة ويكيبيديا. (م)

بلد، أو بالأحرى مستعمرة، مجهولة جميعها من قبل السكّان السذّج وإن كانت معلومة بالطبع بالنسبة للقوى التي تقاسمتها على أساس مصالحها فقط. ومع ذلك فمن المعروف أنّ أيّاً من بلدان المستعمرات السابقة التي حصلت على الاستقلال لم يعمل على رفض الحدود التي خطّطها الاستعمار وعلى العودة إلى الفوضى القبليّة القديمة.

لماذا حدث هذا الأمر؟ بعد أن يقال كلّ سوء ممّا يستحقّه الاستعمار، فلا بُدَّ من الاعتراف بأنّ الأفارقة فضّلوا في نهاية الأمر المؤسّسات والنظم المستوردة من أوروبّا، على التقاليد القبليّة التي ما زالت قويّة، ممّا يجعلهم يشعرون نحوها بنوع من الريبة المتناقضة الغريبة.

فحرب نيجيريا مثلاً، وهي بلد صنعته إنكلترا في وجه بيافرا، كمحاولة لإقامة قوميّة على أساس القبيلة، كانت، من جملة ما كانت، نوعاً من المبارزة التاريخيّة التي يمكن تطبيقها في جميع أنحاء أفريقيا على طريقتين مختلفتين في فهم معنى الأمّة، واحدة تعود إلى عهد ما قبل الاستعمار، والثانية إلى ما بعد ذلك. وهكذا فإنّ هزيمة البيافرا كانت هزيمة للفكرة القبليّة.

إنّ القوميّات ستصمد على الأرجح. ومع ذلك، فقد يحدث خلال التنقّل في أفريقيا، وفي كثير من الأحيان، أنّ المرء لا يستطيع التملّص من شعوره بعدم الواقعيّة. ولنأخذ مثالاً على ذلك البلدان الخمسة التي اجتزتها بالسيّارة على طول الطريق الساحليّ لخليج غينيا، أي من ساحل العاج إلى نيجيريا. نختار توغو من بين هذه البلدان الخمسة. هذا بلد صغير ناطق بالفرنسيّة، يمتدّ على مساحة خمسين ألف كيلومتر مربّع وفيه مليون ونصف المليون من السكّان. يطلّ التوغو على المحيط بحوالي خمسين كيلومتراً من الساحل، بينما يمتدّ من الجنوب إلى الشمال بحوالي ست مئة كيلومتر أخرى. توغو، بلد على شكل قمع، ومثله مثل البلدان الساحليّة الأخرى فإنّه مكوّن على شكل شرائط تشبه مقاطع الستائر الخشبيّة التي توضع على النوافذ من الخارج لتحميها.

فنحن نرى أوّلاً شريطاً من البحر ثمّ شريطاً آخر من الرمال ثمّ من الغابات، وأخيراً من السافانا. لكنّه مكوّن أيضاً من عدّة قطع مثل معاطف المهرّجين، هذا فيما يتعلّق بالسكّان. لذلك فإنّه يمكن لهيرودوس حديثٍ جديد أن يتمتّع، كما تمتّع ذلك القديم، بتعداد شعوب التوغو: الإيوي، كوتوكولي، تيم، تشامبا، كابي، إتشيس، إويس، مينا، موسي، أجا[1] إلخ إلخ. وهنا لا بُدَّ أن نلاحظ أنّ هذه الشعوب لا تنتمي لتوغو فقط، بل هي منتشرة في جميع أنحاء أفريقيا الغربيّة. ماذا أيضاً؟ يفتقر توغو أيضاً حتّى إلى التبرير القديم الذي يتحدّث عن السرقة الاستعماريّة أي عن الثروة المعدنيّة المعدومة هناك، عدا طبعاً بعض الفوسفات. ذلك أنّ توغو يدين بوجوده على الأرجح إلى عمليّة ترسيخ هيبة ألمانيا الغوليلميّة التي أبعدت في البداية عن تعفيش أفريقيا ونهبها. فضلاً عن أنّ المكتشف الألمانيّ غوستاف ناختيغال[2] أعلن عام 1884 عن إنشاء هذه المحميّة الألمانيّة بموجب اتّفاق مع القادة المحلّيّين (ومن يدري ماذا كان يظنّ أولئك القادة أنّهم فاعلون مثل ناختيغال!). وأعتقد أنّ هذه المبرّرات «التاريخيّة» تكفي للقول بأنّ توغو موجود لأنّه موجود، هذا إذا لجأنا إلى استعمال الحشو في تكرار الكلمات.

على ضوء هذا التكرار تكتسب مغامراتنا خلال سيرنا على طول خليج غينيا منظوراً مقبولاً جديداً. وإذا أردنا قول الحقيقة، فإنّنا كدنا ننسى خلال هذه المسيرة أنّ هناك بالفعل قوميّات أفريقيّة مختلفة. خاصّة وأنّ الطريق أمامنا يعطي انطباعاً بوجود فراغ لامتناهٍ، غريب عن أيّة حدود سياسيّة مصطنعة ولا يعرف عنها شيئاً. بينما كانت السيّارة تلتهم من غير عجلة، لكن بشهيّة لا تشبع، عشرات ومئات الكيلومترات، فإنّ كلّ شيء كان يهرب أمامنا إلى اللانهاية: من البحر الرماديّ القاتم، إلى الشاطئ الأصفر بلون عصيدة الذرة، إلى أشجار النخيل السامقة الموزّعة على

1- عن ملف توغو في موسوعة ويكيبيديا. (م)

2- Gustav Nachtigal. (م)

أنساق كأنّها عواميد فقريّة متتالية، الدرب الحجريّ بلونه الشبيه بلون النزف الزهريّ، إلى الغابة الخضراء الشاحبة، فالسماء التي عتّمتها أبخرة القيظ. حتّى ليفكّر المرء أنّ هذه الرتابة وهذه الوحدة المنعزلة لن تنقطعا البتّة أبداً. ومع هذا، فها نحن ويا للغرابة، نتوقّف لعدّة مرّات. فلقد بدت الطريق مغلقة بحاجز كأنّه معبر ما، وكان على طرفه عمود علّق عليه علم، وذلك إلى جانب بيت صغير. وعلى الطرف الآخر كان هناك امرأتان أو ثلاث جالسات تحت ظلّ شجرة مانغو، جامدات أمام عدّة علب وبضع قطع خبز وعدّة أكوام فليفلة. خرج بعدها من البيت رجلان أو ثلاثة من رجال الدرك، من غير سرعة، ووسط صمت عميق ساد بعد توقّف ضجيج محرّك السيّارة، وجاؤوا بحركة بطيئة متسلّطة كحركة جميع الحرس في هذا العالم، وهم يرتدون سراويل خاكيّة قصيرة ويضعون رتبهم على أكتافهم بينما تنسدل طواقيهم على جباههم وفوق عيونهم. هنا تلاشت لانهاية القارّة الأفريقيّة كأنّها خدعة وهم وسراب، وحلّ محلّها النهاية المتمثّلة بالبلد وبالقوميّة، ذلك على وقع الكلمة المانعة القاطعة المعتادة: جوازات السفر.

يجب أن نعرف هنا أنّنا كنّا ثلاثة في السيّارة، اثنان منّا يحملان جوازات سفر إيطاليّة لا تحتاج إلى سمة دخول، أمّا الثالث فيحمل جواز سفر بلد أوروبّيّ آخر يحتاج إلى جميع السمات التي يمكن تخيّلها. لا يهمّني هنا التنديد بما يعتبر في جميع الأنحاء، عدا أفريقيا، استغلالاً، بل عليّ أن أعرض أنواع الحلول التي يتمّ اللجوء إليها في هذه البلدان حيث كلّ شيء عدا الطبيعة هو مؤقّت وعرَضيّ. إذن ها هي الحلول الثلاثة التي طرحت لمشكلة السمات. فهناك موظّف أوّل على الحدود الأولى، قام بعد محادثة طويلة مع سائق سيّارتنا، بمدّ يده وصافحه مصافحة طويلة المدى وودّية المعاني، تضمّنت على ما يبدو تمرير ورقة نقديّة مطويّة في يد السائق إلى يد الموظّف: وهذا حل أسمّيه حلاً تقليديّاً. أمّا في حدود ثانية، فقد جرت المصافحة نفسها وتمرير الورقة نفسها من يد

إلى أخرى، لكن وفي اللحظة الأخيرة، ويا للعجب! ها هو الموظّف ينادي على السائق ويعيد إليه النقود: فذلك الأجنبيّ كان قد أجبر على السفر بالسيّارة (وهذا يعني أنّه بحاجة إلى سمة دخول) بعدما ضاعت عليه رحلة الطائرة (التي لا تحتاج إلى سمة دخول)، ولم يشأ الموظّف أن يستغلّ مصيبته فأعطاه السمة مجّاناً: وهذا حلّ يجب أن نسمّيه حلّاً وجوديّاً، حريّاً بروايات دوستويفسكي. في النهاية هذا هو الحلّ الثالث، وهو الأشدّ تعقيداً وتشعّباً بين الحلول الثلاثة. ففي البداية تمّ رفض تقديم السمة رفضاً قاطعاً، بعد أن أظهروا أمامنا تعميماً مطبوعاً يبيّن أنّ بلد صديقنا ليس بين البلدان التي لا يطلب منها سمة دخول. تمّ بعدها رفض اقتراح لطيف «بتزييت الدواليب» قدّم بأحسن العبارات، لكنّه دُفِع بسخط وترفّع يحمل شيئاً من التهديد. في النهاية وبعد مناقشات طويلة تمّ اقتراح أن يُطلب بواسطة الهاتف تخويلٌ من رئيس الشرطة. لكنّهم رفضوا رفضاً قاطعاً هذه المرّة أيضاً أن نستعمل جهاز الهاتف الموجود في مخفر الحدود، لأنّ هذا ممنوع قانوناً. ذهبنا إذن تحت شمس الظهيرة الحارقة لنبحث عن جهاز هاتف في البلدة المجاورة. الكلّ نائم في تلك الساعة. كان البحر وراء طريقنا الساحليّة رماديّاً معدنيّ اللون ويشكّل خلفيّة معميّة وراء خيالات أشجار النخيل ومجموعات الصيّادين المتأمّلين النائمين قرب الشاطئ. وجدنا في النهاية مكتب بريد داخل فيلّا حزينة مبنيّة بطراز ليبرتي وسط حديقة رمليّة. دخلنا إلى كابينة الهاتف وطلبنا الرقم. ربّما أيقظنا رئيس الشرطة من قيلولته، فكان من الصعب عليه في البداية أن يفهم طلبنا. لكنّه أظهر بعدها لطفاً مفاجئاً وأكّد لنا أنّه سيكلّم مركز الحدود بالهاتف. عدنا إلى الخلف. لقد نجحت المكالمة. ها هي ابتسامة الاتّفاق، ها هو جواز السفر مفتوح فوق الطاولة المهتزّة، ها هي يده الطويلة المليئة بالعقد والناتئة العظام تتناول الختم وتطبع السمة بالحبر القرمزيّ اللون. لكنّ جواز السفر فجأة لم يسلّم، بينما وقف الموظّف المتحمّس الذي أمر باحترام القانون، ليخرق هو نفسه ذلك القانون ويطلب منّا النقود التي رفضها قبل قليل. وها هي أوراق نقديّة تمرّر للمرّة الثالثة بين الأيدي.

عند هذه النقطة قد يفكّر المرء بالأفكار الأخلاقيّة المعتادة نفسها، التي عليه بالعكس أن يتجنّبها. لأنّه لا يجب الحديث في مثل هذه الحالات عن الفساد، على الأقلّ بمعناه العميق، بل إنّ علينا الحديث عن ترسّب بعض العادات التقليديّة. فالأمم الأفريقيّة هي حوالي ثلاثين أمّة وهي لم توجد إلّا منذ حوالي عشر سنين. أمّا القبائل فكانت وما زالت بالآلاف، وهي موجودة منذ وقت وراء الذاكرة. فماذا كان يفعل رؤساء القبائل عندما كان المستكشفون يعبرون من غير حذر الحدود غير المرئيّة التي تفصل بين القبائل؟ كانوا يفرضون رسوم مرور من أشياء طبيعيّة (مثل الخرز الملوّن، خيوط النحاس، قطع قماش، أسلحة) لكنّها لا تحمل في أيّة حال معنى المكوس، بل هي مجرّد معروف مزاجيّ بالنسبة إليهم وهديّة واجبة من قبل الأجانب. وهذا ما يفسّر على الأرجح أمراً كان سيبقى غامضاً، ألا وهو إعادة النقود التي تمّ طلبها من قبل، من أجل منح سمة الدخول في المثال الثاني. إنّ الفساد والقانون يلتقيان في نقطة معيّنة: أي إنّهما يريدان أن يكون الجميع متساوين أمامهما. لكن المزاج الفرديّ يعترف بحقّ وجود استثناءات فرديّة.

على خطى جيد[1]

دوالا، شباط 1972

دوالا هي إحدى المدن الكثيرة التي قامت حول خليج غينيا خلال العشرين سنة الأخيرة، ذلك ضمن التطوّر العمرانيّ الذي لا يمكن تشبيه اندفاعه وسرعة نشوئه، بل وعدم اهتمامه بالمشاكل الإنسانيّة، إلّا بذلك المماثل في أميركا اللاتينيّة. أبيجان، لومي، كوتونو، أكرا، كوماسي، لاغوس، إيبادان، كلّها مدنٌ يتجاوز عدد سكّانها المئة ألف نسمة، بل وأحياناً النصف مليون نسمة، وهي تعكس الاستعمار الذي أنشأها بدقّةٍ ووضوحِ دليلٍ اجتماعيّ. لكنّ التجارة التي خلقها الاستعمار في هذه المدن، لَم تنجح في إقامة حتّى الحضارة الاستهلاكيّة النكراء، بل بقيت تحافظ على أعمال مقايضة المنتجات بالمواد الأوّليّة. ويقوم هذا التناقض بدوره باستيعاب اليد العاملة المحليّة لصالح المواد الأوليّة. فالمنتجات والرجال الذين يسحبهم الطلب من داخل البلدات، يتدفّقون إلى المدن لتتمّ مبادلتهم بمنتجات المدن الكبرى، وذلك بفضل آليّة الأسعار والرواتب. ولا يمكن لتلك المدن الكبرى، حتّى لو بذلت كلّ

1- آندريه جيد André Gide، 1869 - 1951 كاتب فرنسي. ولد في عائلة بورجوازية بروتستانتية، وتلقى تربية قاسية ومتزمتة بسبب وفاة والده وهو صغير السن على يد أمه المتسلطة. كان أندريه معتل الصحة، وكان منذ صغره يشعر أنه مختلف عن الآخرين. لم تكن دراسته المدرسية منتظمة، فعاش طفولة مشوشة. وأخذ يرتاد الصالونات الأدبية والأندية الشعرية. (م)

الجهود، وحتّى عند عدم توفّر الرغبة، الإداريّة على وجه الخصوص، إلّا أن تستغلّ المستعمرة. ويشجّعها على الأمر، في كلّ الأحوال، هشاشة ثقافة السكّان الأصليين وكرم الطبيعة الاستوائية.

لقد نمت دوالا، ولا بدّ لنا من هذا القول، كما ينمو الفطر في قلب الغابة الاستوائيّة، على سفح جبل الكاميرون الذي لم يشاهده أيّ مخلوق بشكله الكامل لأنّه مخفيّ دائماً بين الغيوم. وهي مدينة رطبة وحارّة ومليئة بالضباب، مدينة أنموذجيّة من مدن أفريقيا الكئيبة والتي تثير الاكتئاب، ذلك كما أحسن وصفها سيلين[1] في كتاب «رحلة في آخر الليل» حيث يعيش الأوروبّيّون غاضبين ومرضى وهم مشدودون إلى أعمالهم أو وظائفهم الإداريّة بانتظار رجوعهم إلى بلدانهم الأصليّة بأسرع ما يمكن، وهم يحملون معهم تعويضاتهم التقاعديّة أو مكافآتهم. لم يكن الكاميرون هو من أنشأ إذن دوالا، التي لا يحتاج إليها والتي لا يمكن له على أيّ حال أن يغذّيها ويدعمها، وهو الذي يعيش على اقتصاد القرية، بل كانت الحواضر الأوروبّيّة هي التي فعلت، وكانت تفرّغ فيها باستمرار منتجاتها الصناعيّة وتحمّل منها البنّ والكاكاو والمطّاط والبوكسيت. وقد ضاعفت الصادرات نحو فرنسا مخازن ومستودعات مناطق الموانئ، بينما عملت الواردات من فرنسا على إكثار الأماكن المناسبة التي صُفّت على طول شوارع ضخمة وانتهى بها الأمر لأن تشكّل المركز التجاريّ للمدينة أو مجمّع قذارات المدينة وحركاتها المحمومة. أمّا من ناحية السكّان، فهم قد توزّعوا بالطريقة غير المتساوية المعهودة في المدن المستعمرة: فمجموعة القيادة كلّها تقريباً من الأوروبّيّين وتعيش في منطقة سكنيّة ضيّقة وفاخرة مؤلّفة من فلل وفلل صغير تحيط بها الحدائق. أمّا البروليتاريا الأفارقة فيعيشون في أحياء الصفيح وبقيّة الضواحي التي

1- لويس ديتوش (Louis Destouches) كاتب روائي وطبيب فرنسي 1894 - 1961. عرف لاحقاً باسمه الأدبي سيلين Céline. (م)

تتسلّق منحدرات من الأراضي الحمراء وسط كدر الخضار المتهاوي على أطراف الغابات الاستوائيّة.

نحن هنا الآن للعمل على تنظيم رحلتنا بالسيّارة على خطى أندريه جيد، والتي ستأخذنا من دوالا، أعلى فأعلى نحو الكاميرون، حتّى فورت-لامي في تشاد. الحقيقة أن جيد قام بهذه الرحلة التي سمّاها «عودة تشاد»[1] على المقلوب، أي من فورت-لامي إلى دوالا، وقطع نصف المسافة على متن حصان عبر الدروب، وقسماً آخر على متن زورق عبر الأنهار، بينما نقوم بها نحن الآن على متن سيّارة لاندروفر. على كلّ يبدو أن هذه الرحلة تمخّضت بالنسبة إلينا عن التأثير السلبيّ نفسه الذي تركته لدى الكاتب الفرنسيّ: «يا لهذا الفندق! إنّ أكرَه مكانٍ على الطريق هو أفضل من هذا الفندق! وما هذه البياضات! قذارة، حماقة، ابتذال!». لكن لا بُدَّ من ملاحظة أنّ دوالا هذه ربّما بدت بالنسبة إلى جيد رثّة، بشكل أكبر ممّا بدت بالنسبة إلينا، لأنّنا جئنا إليها بالطائرة، بينما جاء إليها هو من مناطق الكاميرون العذراء.

قمنا بشراء بعض الحاجيّات بشعور خليط بين اللهو وعدم الارتياح. لهوٌ، لأنّنا تظاهرنا أنّه لا بُدَّ من تنظيم الرحلة بين دوالا وفورت-لامي، بينما يمكن للمرء اليوم على الأرجح أن يسافر مباشرة، وفي أيّ صباح جميل، من غير أيّة مشكلة. أمّا عدم الارتياح لأنّ هذا اللهو مبنيّ على عدد من المصطلحات الشائعة حول المغامرات الأجنبيّة الغريبة. خاصّة وأنّ المرء، ما إن يبني طريقة معيّنة في الترحال داخل أفريقيا، حتّى يجد أنّ هذه الطريقة قد أصبحت من المصطلحات الشائعة. وهكذا فقد ساد في البداية واقع رهيب هو الاستكشاف، لكنّ هذا الواقع تحوّل بمرور الزمن وبعد التقدّم الحاصل، إلى واحد من المصطلحات الشائعة الجديرة

1- Retour du Tchad. (م)

برواية تارتان دو تاراسكون[1]. ثمّ جاءت الرحلات على طريقة جيد، والتي بقيت متعبة وخطيرة، على الخيل والزوارق والسيّارات المجنزرة، والتي ما لبثت أن أصبحت بدورها مصطلحاً من المصطلحات المتعارف عليها عند زيارة أفريقيا. ثمّ جاء أخيراً عهد الطرق المحدّدة واللاندروفر. وإذا كانت الطرق المحدّدة واللاندروفر أمراً واقعيّاً بل ضروريّاً بالنسبة لرحلات الصيد في الغابات، فهي تصبح غير مفيدة ومجرّد مصطلح شائع عندما يتعلّق الأمر برحلة مثل رحلتنا، يكفي أن نستعمل فيها، ولو بشيء من المجازفة، أيّة سيّارة عاديّة. ثمّ إنّ كلمة «طريق محدّدة» ليست إلّا نوعاً من الهراء اللغويّ. فما هي هذه الطريق في واقع الأمر إن لم تكن تلك الطريق القديمة الهادئة «البيضاء» التي كان يستخدمها الأوروبّيّون قبل الإسفلت؟

ذهبنا على كلّ بقائمة المشتريات لنشتري حاجيّاتنا من أحد المخازن العديدة، ثمّ أعطينا القائمة لمستخدم فرنسيّ شاحب الوجه هزيل البنية، فألقى عليها نظرة، ثمّ ذهب ليبحث عن البضاعة في معترك الصناديق والعلب والمغلّفات المختلفة المكوّمة خلف الدكّان. وهكذا فقد اشترينا علب اللحوم المحفوظة المعتادة والسردين المحفوظ بالزيت والفواكه المعصورة التي انتهى بنا الأمر لأن نقدّمها هديّة للسائق. ذلك كما تركنا الأدوية المعتادة وغير المستعملة في آخر فندق زرناه، وكذلك الحافظة الحراريّة التي تحطّمت على أوّل مطبّ على الطريق، ثمّ زجاجات البيرة التي جعلها الحرّ مقرفة وغير قابلة للشرب. ثمّ ذهبنا إلى «مجمّع» نقل كبير، وهو عبارة عن جهنّم مصغّرة مؤلّفة من مضخّات البنزين، وورشات التصليح ومواقف السيّارات حيث يتحرّك بكلّ كسل عمّال الميكانيك الأفارقة بثياب العمل وسط جو من الحرّ الشديد رغم عدم

1- العنوان الأصليّ بالفرنسية هو: المغامرات المذهلة لتارتان دو تاراسكون Les aventures prodigieuses de Tartain de Tarascon وهي رواية كتبها آلفونس دوديه Alphonse Daudet عام 1872 كواحدة من ثلاثيّة نشرت فيما بعد. (م)

وجود الشمس. طلبنا هنا من المدير الفرنسيّ (الغليون في فمه، بدين، قميص نصف كمّ، ذراعان مليئتان بالشعر) أن يقدّم لنا سيّارة لاندروفر صالحة للاستعمال في جميع التضاريس، يمكن لنا أن نستخدمها في دروب المرتفعات كما بين أعشاب السافانا. مصيبة! ما إن جرّبنا السيّارة على ساحة «المجمّع» حتّى ظهر أنّ اللاندروفر، مع أنّها جديدة، فإنّها تركت وراءها على الإسفلت حيّةً تسعى من مخلّفات الزيت، ذلك أنّ علبة الزيت فيها كانت مضروبة. وهكذا تمّ تأجيل الرحلة ليوم واحد، وتوجّب علينا البقاء في دوالا.

لكنّا لم نبقَ فيها، بل قرّرنا الانتقال إلى فيكتوريا في الكاميرون البريطانيّة، والبعيدة مئة كيلومتر عن دوالا. وهي مكان ساحر، على قول مناشير الدعاية، ولا يقلّ مكانة عن فراديس بحار الجنوب الشهيرة. ها نحن إذن في السيّارة على الطريق التي تهبط نحو فيكتوريا عبر غابات ونباتات مختلفة. كانت رحلة مفيدة، على الأقلّ لأنّها سمحت لنا برؤية مذبحة أفريقيا. فلا شيء عظيم وشاعريّ أكثر من غابة مداريّة عذراء، ولا شيء حزين وبائس أكثر من الغابة نفسها وقد جُزّت أشجارها.

في الحالة الأولى نجد أنّ الغابة ما زالت بالفعل عذراء وبالمعنى الحرفيّ للكلمة، أي إنّه لا يمكن الدخول إليها أو التسلّل في داخلها، ذلك لما فيها من أشجار سامقة قد تبلغ ثلاثين متراً من الارتفاع، تنسحب إلى الخلف وقد علّقت على أغصانها أشجار متسلّقة تغطّيها كأنّها معاطف فعليّة. أمّا في الحالة الثانية فإنّ الأشجار مقطوعة والغابة مغطّاة بالفسحات الترابيّة الحمراء المليئة بالجذور والجذوع المهجورة، بما يحمل على تشبيهها برأس مصاب بمرض الثعلبة الذي يؤدّي إلى تساقط الشعر وترك بقع صلع كثيرة غير متساوية. من الأفضل وقتئذٍ تأمّل النباتات المنتشرة على شكل ثكنات نباتيّة بأشجارها المصفوفة اصطفافاً كثيفاً وبطريقة عسكريّة والمنتشرة على السفوح. فهذه تجعل مختلف القرى التي نجتازها تباعاً، قرى مزدهرة نسبيّاً على أقلّ تقدير.

إنّها قرى من الأكواخ بدون أرصفة ولا مجاري، لكنّها تحتشد بفتيات وفتية يرتدون ثياباً نظيفة مكويّة، ذات منظر جميل بألوانها الصارخة فوق بشرتهم الغامقة.

ثمّ ظهرت لنا بين تلال متوّجة بالشلّالات ومنتفخة بالنباتات، مجموعة من البيوت الريفيّة المبنيّة على الطريقة الإنكليزيّة المعشّشة في أعماق وادٍ مجلّل بالضباب. الهواء رطب وحارّ أكثر ممّا كان في دوالا، ذلك أنّ فيكتوريا تبدو مغمورة بالمياه المخضرّة غير الصافية الآتية من حوض سمك قديم. أخبرنا السائق بخيبة أملنا، وبما أنّ هذا من الناطقين بالفرنسيّة، أي من المشاركين، ولو عن غير علم مسبق منه، بالعداء الفرنسيّ للبريطانيّين، فإنّه ما لبث أن وافقنا الرأي وأجاب بأسلوب تقريريّ: «من المعروف أنّ الإنكليز يفعلون كلّ شيء على المقلوب، وهذه هي النتيجة كما ترون».

تركنا الحقائب في الفندق ونزلنا إلى الطرقات وكلّ همّنا هو بلوغ «بحار الجنوب» التي وعدت بها ورقة الدعاية. أجل، يا لها من بحار الجنوب. ها هو البحر، تحت مشرقة بائسة، إنّه ليس خليج غينيا بمقدار ما هو من بحار الشمال المحيطة بالسويد. الضباب القذر جاثم فوق المنحدر المائيّ الرماديّ الجامد، عدد لا يحصى من جزر الأحراج تنتشر وسط الضباب غامضة ومجلّلة حتّى ليظنّ بأنّها أشباح. هناك بضعة زوارق صيد راسية على الشاطئ بلونها الأسود مثل لون السمك. ينحني الخليج بين رأسين يغطّيهما الضباب وتبرز عليهما جدران وأسقف متهاوية منهارة لقصور بنيت بطراز المستعمرات غارقة وسط خضرة استوائيّة سوداء مدهامّة من شدّة خضارها. كان الحرّ خانقاً، والهواء ثقيل رغم أنّ الوقت ما زال ظهراً، كما بدت الشمس وسط السماء مثل بصقة دائريّة مصفرّة اللون. أطلّينا برؤوسنا بحذر لنتأمّل البحر من فوق المشرقة. لا توجد صخور ولا توجد أمواج، بل مجرّد كومة حصى مسودّة مغمورة حتّى النصف ضمن الماء الراكد.

فيكتور والفيلة

ياونده، شباط 1972

سائقنا فيكتور، رجل تحت الثلاثين من العمر، أصله من قبيلة تقيم ليس بعيداً عن نغانديره في الكاميرون الأوسط. إنّه شابّ طويل قويّ البنية، رياضيّ المظهر، ساقاه طويلتان وكتفاه عريضان. لفيكتور رأس جميل بصفات أفريقيّة، لكنّها مبسّطة بشكل تبدو قسماتها ساخرة بما يشبه القناع. عيناه واسعتان، أو بالأحرى ضخمتان تميلان ميلاً طبيعيّاً لتدوير الحدقتين، أنفه قصير، عريض ومعقوف، فمه أعوج يعبّر عن قرف وازدراء. لون بشرته غامق لكن ليس أسود، حتّى إنّ لحيته الحليقة والمدبّبة، الشبيهة بلحية عطيل، والتي يطلقها فيكتور خلال الرحلات، تبرز بسوادها الفحميّ فوق سواد بشرته القريب من لون البنّ المحمّص. يدا فيكتور طويلتان، قويّتان ونحيلتان، كأنّهما قائمتا ذئب. يمشي مشية متراخية، خفيفة، سنّوريّة. وأخيراً فإنّ صوته صوت ضخم يعبّر عن الرجولة، لكنّ فيه نبرة من السخط الدائم، ومن الحقد بل والتهديد.

كان فيكتور يعمل حتّى الأمس كسائق شاحنة، ويبدو هذا في طريقة قيادته للسيّارة، فهو رجل جدير بمشقّات القيادة، قادر على أن يقطع في ثلاثة أيّام فقط مسافة الثلاثة آلاف كيلومتر التي تفصل دوالا عن فورت-رمي، أي الرحلة التي سيكون مجبراً على سيرها معنا خلال أسبوعين. ورث فيكتور عن عمله في قيادة الشاحنات نهمه اليائس في

التهام الكيلومترات، وهو غير حسّاس لجمال مناظر الطبيعة ولمفاجآت اللقاءات. ولا بُدَّ أنّه رأى في طريقتنا في الترحال نوعاً من غرابة أطوار البيض، الحمقاء بعض الشيء والجنونيّة. لكنّنا في نهاية الأمر زبائنه، وندفع له أجره، وهذا يكفي.

ولا بُدَّ أنّه تمّ استغلال فيكتور بدون شفقة ولا رحمة، عبر السنين التي قضاها قبل أن يتعلّم المصلحة. لكنّه لم يستمدّ من تلك التجربة المريرة ذلك الذي يدعى عادة بالوعي الطبقيّ. بل إنّه كوّن على ما يبدو إرادة شخصيّة بأن يقوم هو بدوره باستغلال الآخرين. لذلك فإنّ الحلم الذي يسهب فيكتور في الحديث عنه، ليس إلّا أن يصبح غنيّاً فيشتري في البداية شاحنة له، ثمّ يجرّ وراءه كثيرين آخرين من أشباه فيكتور، أي فتية من أمثاله سذّج لكن أقوياء البنية، يأتون إليه مباشرة من الأدغال. فيكتور شبيه بشخصيّات بلزاك، لكنّه متأخّر عنها بقرن ونصف من الزمان، قد يكون مثل سيزار بيروتو[1]، يعمل وراء مقود السيّارة، وقد يصبح غنيّاً. لكنّ التطوّرات غير المتوقّعة على طريق الاستعمار الجديد في أفريقيا، قد تقف عقبة دون مطامحه، وتحوّلها نحو أهداف أخرى.

فيكتور رجل تقليديّ، ويريد أن يتزوّج. قال لنا إنّ عليه أن يوفّر حوالي مئة ألف فرنك فضلاً عن تدبير ثور فتيّ من الوزن المعقول، قبل أن يتمكّن من شراء زوجة. وقد فكّر فيكتور للوهلة الأولى على ما يبدو أن يجد له زوجة من دوالا، لكنّ رئيسه، المدير الفرنسيّ لشركة النقل التي يعمل فيها، جعله يقلع عن هذا وقال إنّ عليه ألّا يثق بفتيات المدينة، لأنّهن أصبحن على احتكاك بالحياة المدنيّة. لذلك من الأفضل له أن يتزوّج بفتاة من قبيلته، لم تفسدها الحضارة بعد. وقد وافق فيكتور بسهولة على اقتراح رئيسه، خاصّة وأنّ ميوله التقليديّة المتأصّلة تجعله يراه بمنزلة الأب. وهكذا فإنّ هناك الآن في قرية بعيدة من قرى الكاميرون طفلة تنتظر أن يأتي فيكتور إليها مع مئة ألف فرنك وعجله السمين.

1- César Birotteau. (م)

وعلى سيرة رئيسه، فإن علاقته بهذا هي علاقة معقّدة جدّاً وتعكس بأمانة علاقة ليست أقلّ تعقيداً تربط فيكتور بالفرنسيّين. ففيكتور درس في مدرسة مبشّرين، ويتحدّث الفرنسيّة بطلاقة، وهو معجب من غير أيّ تحفّظ بالفرنسيّين الذين لا يرى أنّهم مثل غيرهم من البيض لذلك فهو يميّزهم عنهم. ذات يوم أشاروا لي بأنّ بعض الشوارع قد يكون غير قابل للعبور، لكنّ فيكتور أجاب في الحال وبثقة مطلقة: «مستحيل، لقد بناها فرنسيّون». ومع هذا وبطريقة مناقضة، فإنّ فيكتور دائماً غضبان ودائماً على قناعته بأنّه مخدوع، لذلك فإنّه إلى جانب إعجابه بالفرنسيّين، فهو يشعر بأنّهم ورغم كلّ شيء مستغلّون. دعاية يساريّة؟ أو قوميّة بدائيّة؟ من الصعب الإجابة عن السؤال. لكنّ فيكتور أدهشني عندما تكلّم عن بعض المستعمرين الرخيصين الذين كان عليهم أن يستبدلوا بعد استقلال الكاميرون أكثر الأماكن المدرّة للدخل في دوالا بمهن أخرى غامضة في مدن متواضعة في الداخل. وقد أثار مصير هؤلاء الخائبين في قلب فيكتور أشدّ مشاعر السخرية الحاقدة.

إنّ ازدواجيّة مشاعر فيكتور إزاء الاستعمار تجد نظيرها في ازدواجيّة مشاعره إزاء الدين. فيكتور هو كاثوليكيّ، وهو سعيد بهذا الأمر ويفتخر به بطريقة غريبة غامضة، لكنّ هذا لا يمنعه من الاعتقاد بالسحر اعتقاداً فيه مزيج من الرعب ومن التعوّد على الأمور بطريقة عميقة وساخرة. وهذا حوار جرى بيننا حول السحر.

«هل تعتقد يا فيكتور بالسحر؟».

«هذا مفهوم. كيف يمكن للمرء ألّا يعتقد؟ خاصّة وأنّه كان لي أربعة أصدقاء ماتوا بسبب أعمال السحر».

«كيف يصنعون هذه الأعمال السحريّة؟».

«يتم الإدخال إلى كوخ الساحر في الظلام. لا يمكن رؤية أيّ كان أو أيّ شيء. يتمّ فقط سماع صوت غامض يسأل عن اسم الشخص الذي نرغب بموته. فإذا قيل الاسم وصنعت الأمور التي يأمر الساحر بصنعها، فإنّ الشخص المشار إليه يموت خلال بضعة أيّام».

«وهل طلبت أنت أن يموت أحد؟».

«أنا، لا، إنّي أخاف. ثمّ إنّ الأمر مكلف، لأنّ الساحر يطلب نقوداً، دائماً مزيداً من النقود. وعندما يسقط المرء في حلقة السحر، فإنّه لا يخرج منها أبداً».

«هل لأنّ الساحر يبتزّ؟».

«لا يمكن الخروج منها».

من ناحية أخرى ليس لدى فيكتور أيّ ظلّ من المشاعر المسيحيّة، فهو لا يحبّ جاره كما يحبّ نفسه، كما أنّه يفعل بانتظام مع الآخرين أشياء لا يحبّ أن تفعل به. فيكتور هو داروينيّ عن لاوعي، يعتقد أنّ القويّ هو الذي ينتصر في الحياة، أي ينتصر من هو جدير بالحياة نفسها. وقد تبدّت لنا عقليّته هذه خلال رحلتنا. فلا شيء يجعل فيكتور يضحك كالذئب، ضحكة ساخرة حاقدة، مثل رؤيته لشاحنة مقلوبة داخل خندق، وإطاراتها تدور في الهواء. ذلك أنّ مصائب الآخرين تملأ قلبه فرحاً، خاصّة إذا كانت هذه مصيبة سير، لأنّه قادر على فهمها فهماً عميقاً لكونه سائق شاحنة في السابق. فهذه الضحكة تعني: «البارحة دوري واليوم دورك». فيكتور من جهة أخرى شديد القسوة مع أبناء السبيل الكثيرين الذين يمارسون الأتوستوب بعد أن تكالبت عليهم ظروفهم الوحشيّة. ها نحن مثلاً على طريقٍ وسطَ سهلٍ شاسع مليء بالأعشاب المرتفعة. نرى رجلاً عجوزاً أشيب الشعر، أرهق التعب وجهه، يحمل كيساً على رأسه ويحمل رمحاً في يده، يشير إلينا الرجل بإشارة توسّل. طلبنا من فيكتور أن يقف ويأخذ هذا الرجل عابر السبيل. فأطاع فيكتور عن سوء خاطر، لكنّه ما لبث أن انفجر في وجه الرجل العجوز رغم أنّه واظب على قيادة السيّارة. واتّهمه بتوسيخ اللاندروفر بصندله المليء بالرمال، وبكسر الزجاج بحديد رمحه. ذلك أنّ فيكتور كان يمثّل في تلك اللحظة دور شركة النقل التي يعمل فيها ويدافع عن ممتلكاتها. وعندما ترجّل العجوز بعد أن شكرنا بتواضع وامتنان، اكتفى فيكتور برمي رمحه على الأرض وإلقاء نظرة احتقار عليه.

هناك أيضاً ذلك الفتى سائق الشاحنة السيّئ الحظ، كان منتصباً في الحرّ أمام شاحنته المقلوبة في الخندق. أخذناه معنا في السيّارة. سأله فيكتور في الحال عن مقدار دخله، وما إن عرف ذلك حتّى انهال ضدّه بسخرية وقسوة قائلاً إنّه راتب سخيف. وقال إنّ الرجل سيموت من الجوع هو وعائلته، ولن يستطيع أبداً أن يحسّن وضعه، إنّه ليس إلّا حيوان ركوب، ليس إلّا عبداً، إلّا رقيقاً. دافع الفتى عن نفسه كيفما اتّفق، لكنّ فيكتور لم يعطه هدنة، واستمرّ طيلة فترة وجوده معنا في تنبؤ مستقبل من المصائب له.

المرّة الأولى التي رأيت فيها أنّ فيكتور أظهر مشاعر ليست مشاعر حقد أو احتقار، حدثت أمام حيوانات أفريقيّة بريّة. أذكر ذات يوم أنّنا توقّفنا في سهل تبعثرت خلاله آثار حوافر ضخمة إلى جانب أشجار وشجيرات عرّيت عن أوراقها وتحطّمت، وكذلك روث مبعثر ضخم القوام على شكل مكعّبات كبيرة. من الواضح أنّ الفيلة لم تكن بعيدة عن المكان. وفي الواقع فما إن نزلنا وبدأنا السير في الغابة حتّى رأينا تلك الحيوانات تسير وسط سحابة من الغبار نحو من يدري أيّة مراعٍ أو مخابئ بعيدة. كان الغبار يلفّها، ومع ذلك فقد كانت واضحة خيالاتٍ خراطيمها وقوائمها ورؤوسها ذات الآذان الضخمة. كانت صغارها ملتصقة بقوائم أمّاتها، جميلة رغم ضخامتها. كانت أصواتها ترتفع بين الحين والآخر من القطيع. عندها رأيت فيكتور وهو يضحك بتوتّر وقلق، يجري نحو الفيلة، بقدمين خفيفتين بدا وكأنّهما لا يلمسان الأرض. كان يجري وهو يحرّك ذراعيه كما لو أنّه يريد مناداة الفيلة ليطلب منها انتظاره ريثما ينضمّ إليها ويسير معها عبر الغابة. بدا أنّ فيكتور في تلك اللحظة كان يعبّر عن غير وعي منه عن حنين الأفارقة إلى أفريقيا ما قبل الغزو الاستعماريّ، أفريقيا القرية والسافانا التي ما فتئ يتحدّث عنها معنا بكلّ ازدراء.

النبات غير النظاميّ

ياونده، آذار 1972

في «حلم باريسي» يتخيّل بودلير مدينة خياليّة مصنوعة من المعدن والرخام والماء. يقول بودلير إنّ مدينة الأحلام هذه التي تستبق حلولاً هندسيّة مدنيّة حديثة جدّاً لا تقبل بين ظهرانيها النبات غير النظاميّ. فما معنى هذا؟ معناه أنّ مدينة بودلير هي مدينة عقلانيّة من رأسها إلى عقبها، وأنّ النبات غير النظاميّ ممنوع فيها لأنّ عدم انتظامه هو مرادف لغير العقلانيّة. لكن ما هو العقل إن لم يكن ذلك النشاط الفكريّ البحت الذي يميّز الإنسان عن الطبيعة؟ وهكذا فإنّنا نصل إلى أساس المسألة: أي إنّ مدينة بودلير هي بشريّة فقط، أي عقلانيّة بدون أيّ تنازل للّاعقلانيّة، أي للطبيعة.

والآن يحدث في القرى الأفريقيّة ما هو العكس تماماً لما في مدينة بودلير. فالمعدن والحجر «النظاميّان» منعا فيها، والمادّة المستعملة الوحيدة هي النبات «غير النظاميّ». لكنّ هذه المادّة لا تحوّل من ناحية أخرى إلى أعمدة ومحاور وغير ذلك من العناصر الخشبيّة المتساوية جميعها، كما يحدث في البلدان التي تصنّع فيها منتجات الغابة، لكنّها تنقل بدون أيّ تغيير تقريباً من الغابة إلى القرى. ومن هنا بعض الآثار الغريبة. مثل تفكّك وانحلال القرى: فالحجر والمعدن لا يهرمان، بينما النبات يهرم. أو بالأحرى إنّ الحجر والمعدن لا يعيشان، بينما يعيش

النبات ولذلك فهو يموت أيضاً. والقرية الأفريقيّة المصنوعة من القشّ والقصب والأغصان والجذوع تبدو أنّها مبنيّة من مادّة غير محوّلة بمقدار ما هي ميّتة. وهي تحتفظ، كما يحتفظ أيّ شيء ميّت، ببعض أشكال الحياة، التي تبقى فيها بطريقة تهديديّة.

إنّ القرى الأفريقيّة، وخاصّة قرى المناطق الجبليّة أو مناطق السافانا (ففي الغابات المطريّة أخذت تكثر للأسف الشديد الصناعات الخشبيّة) هي مناطق غريبة ومثيرة للقلق ومسحورة. يمكن للمرء أن يسير هناك بشكل محموم لخمسين، لمئة، لمئتي كيلومتر عبر الغابات الرتيبة، الخالية من أيّة حياة غير شجريّة، ثمّ ها كم، على حين غفلة، تظهر القرية في فسحة غير متوقّعة. إنّها محاطة بسور ليس إلّا حصيرة طويلة تنتصب على أعمدة مغروسة على مسافات غير متساوية. تنتصب خلف هذا السور النباتيّ، المدعّم والمتساقط هنا، والساقط المنتصب هناك، أسقف من القشّ لأكواخ مصفوفة إلى جانب بعضها مثل نباتات فطر ذات شكل مخروطيّ. لكنّنا لا نرى أحداً ولا نسمع أيّ ضجيج. كان هناك فقط خيطا دخانٍ غامق اللون يتصاعدان من الأسقف نحو السماء البرّاقة الزرقاء. وكان هناك أيضاً بضعة قرود تقفز بين الأشجار في خلفيّة الفسحة. وكذلك كلب هزيل الجسم أصفر اللون جاثم على الأرض أمام الأكواخ، يبدو كأنّه ميّت.

لكن مقابل الحياة البشريّة التي تبدو غائبة عن هذا المشهد، كانت الحياة النباتيّة موجودة ومتواصلة، غريبة وخبيثة. إذ تبرز على قمم الأسقف عصيّ متفرّعة توحي بأفكار عن التعذيب، أمّا الأعمدة التي تسند الحصير فما هي في الحقيقة إلّا شجيرات تمّ تقليمها منذ وقت قريب، وفيها بروزات شائكة كانت أغصاناً فضلاً عمّا يشبه أسطوانات ملتوية كانت جذوعاً. إنّ هذه الشوكات وهذه البروزات ميّتة، ولونها مثل لون الخشب الجافّ، بنّيّ وأصفر، لكن وبما أنّها ميّتة فهي تثير ذكرى الغابة التي كانت تنعم فيها بالحياة. ويقال الشيء نفسه عن الأرض حول

القرية، فهي ليست مرصوفة ولا معبّدة، بل هي أرض الغابة بالذات. وإذا كانت محرومة من أعشابها وأشجارها الملتوية وأوراقها الميّتة، فهي لم تتحوّل أبداً. أطفأنا محرّك السيّارة، وبقينا داخلها ونحن ننظر، نكاد نخشى حتّى أن نلتقط الصور المعتادة. ثمّ فتح باب صغير، مشقوق داخل سور من حصيرة قشّ، وخرجت منه امرأة تحمل طفلاً على ذراعها. ترتدي المرأة قماشاً بألوان مشرقة مخصوراً حول جسمها، من الصدر وحتّى الكاحلين. تضع على رأسها عمامة كبيرة من القماش نفسه على شكل نبتة قرنبيط. أمّا الطفلة فعارية تماماً، عدا طوق من الخرز حول الحقوين. نظرتا إلينا بثبات لبرهة، وبدا لنا أنّهما تشاركان حتّى خلال هذه البرهة القصيرة في انعدام الحياة من ذلك المكان. لكن لا، فها هما تبتسمان كلاهما ابتسامة عريضة، وظهرت أسنانهما الشديدة البياض، ثمّ مدّتا أيديهما لتطلبا النقود مقابل صورتهما التي سنصوّرها، ذلك كما يحدث في كلّ مكان. عندها وعلى حين غرّة أدركتُ أنّ اللامنطقيّة الطبيعيّة التي تظهر في هذه القرية، هي ليست خصماً لنا نحن فقط، بل هي عدوّة لهم أيضاً. وأنّ القرية، على طريقتها الخاصّة ونسبيّاً على لامنطقيّة الطبيعة الاستوائيّة العنيفة، هي أيضاً علامة على وجود المنطق، المنطق الأشدّ صرامة ممّا يمكن أن يوجد في أفريقيا، مثل مدينة بودلير.

بعد هذا بعدّة أيام كان لهذه الأفكار أن تأكّدت في الغابة. كنّا في الكاميرون الأوسط، تحت جبال آداماوا الضخمة، حيث تشير الخريطة الجغرافيّة إلى وجود شلّالات نهريّة في نقطة معيّنة، فقرّرنا التوجّه إليها. حادت اللاند روفر عن الطريق المعبّدة وبدأت السير على درب وعر بين أعشاب كثيفة مرتفعة تنحني فوقنا من جميع الجهات ولا تدع لنا مجالاً إلّا لرؤية السماء. نسير بين صعود وهبوط حوالي عشرة كيلومترات، قبل أن نخرج إلى فسحة شجريّة، أرضها مقلوبة وعشبيّة، فيها جذوع أشجار ضخمة مقطوعة ومنثورة هنا وهناك. كان طرف من أطراف الفسحة محجوباً بظلام غابة كثيفة. أصخنا السمع، فسمعنا وسط الصمت

المطبق، صوتاً بعيداً مكبوتاً كان بلا شكّ صوت تلك الشلّالات. تابعنا عندها سيرنا على الدرب الذي يسير بنا داخل الغابة مباشرة. أصبحنا نسير وسط الظلام تقريباً بينما تحتكّ أوراق الشجر بأطراف السيّارة، بل وتدخل أحياناً من النوافذ. كما بدا أنّ آثار الوحل الجافّ التي بقيت من الموسم الماضي أخذت تزداد ارتفاعاً وعمقاً. حتّى إنّ السيّارة لم تتمكّن من التقدّم بعد ذلك، لذلك فقد ترجّلنا منها وسرنا على الأقدام، حيث أصبح الدرب نفقاً فعليّاً محفوراً ضمن سماكة أوراق الشجر. هناك أشجار ملتفّة في كلّ مكان، تتدلّى من الأعلى مثل الثعابين، وبشكل زاد خوفنا منها فأصبحنا ننظر فيما إذا كان لها رؤوس مثلّثة وأفواه فيها ألسنة مشقوقة. كما أنّ بعضها يمتدّ على الأرض مثل الثعابين أيضاً، فكنّا نتجنّب الدوس عليها، وبعضها الآخر ينطلق نحو السماء، أعلى فأعلى في حركة لولبيّة تشبه حركة الهروب. أحاطت بنا الغابة المطريّة من كلّ الجهات، وهي تخفق بسكون. بدأت عيوننا، التي اعتادت على عتمة خضرة الأشجار، تميّز بالتدريج مختلف طبقات البناء النباتيّ: فالطبقة الأولى هي طبقة السرخسيّات وبقيّة نباتات أسفل الغابة، والطبقة الثانية هي طبقة الشجيرات، والثالثة طبقة أشجار الأجمات الصغيرة، والرابعة طبقة الأشجار ذات الارتفاع العاديّ، والخامسة في النهاية هي طبقة الأشجار الضخمة التي يزيد ارتفاعها عن ثلاثين بل خمسين متراً. هناك أيضاً المتسلّقات التي تتلوّى بين هذه الطبقات كأنّها سلالم نباتيّة حيّة. لكلّ طبقة توجد سقالة، من أوراق الشجر، خاصّة بها وقائمة بعضها على بعض، وبشكل تمنع في نهاية الأمر من تمرير الضوء.

ها هي الآن فسحة يهبط عليها من الأعلى شعاع شمس يشبه الأشعّة التي تتسلّل مغبرّة في الكنائس الكبيرة وتتصفّى عبر زجاج نوافذها الملوّن. لقد أصبح هدير الشلّال قريباً الآن. وظهرت فتحة وهي تهبط وسط الغابة الكثيفة كأنّما لتقودنا نحو شاطئ نهر. وبما أنّه علينا أن نتقدّم زحفاً تقريباً، فقد تنازلت عن الأمر، بينما تابع رفاقي تقدّمهم وسط الأوراق الكثيفة.

رأيت على غصن زهرة صفراء وحيدة، فاقتربت لأجنيها، لكنّ الزهرة طارت، لقد كانت مجرّد فراشة. هنا اكتشفت أمراً معيّناً: فعلى حين غرّة رأيت وسط الظلال الكثيفة الممتدّة خلف ستار الشجيرات قاعدة شجرة ضخمة. كان لها شكل العضلة وقوامها وحركتها. مثل العضلة التي تربط الكتف بالعنق وتميل، عندما نستدير، أو نميل برؤوسنا، نحو الكتف. كانت عضلة عملاقة، لونها أخضر قاتم، يغطّيها قلف أملس وطريّ، وربّما كان، ومن يدري، حارّاً أيضاً كأنّه جلد حقيقيّ. تحمل هذه الشجرة على التفكير برجل مدفون تحت الأرض حتّى إبطيه، وهناك بدل الرأس جذعٌ مستقيم جدّاً ومدبّب، يصعد بسرعة مدوّخة نحو الأعلى حتّى يضيع برأسه في ضباب الطبقات الخضر في قمّة الغابة.

تشكّل هذه العضلة الضخمة نوعاً من التجويف الغامض الذي لا تبلغه الأبصار، والذي يمكن أن يضمّ حيواناً سنّوريّاً يجثم كامناً أو ثعباناً في سبات. لكنّي أفضّل التفكير أنّه رغم عمليات الإزالة الصناعيّة للغابات، فإنّ من يعشّش في ذلك التجويف، إنّما هي روح الغابة، الآلهة الصنميّة الغريبة الشديدة القبح، والتي كان يمثّلها الأفارقة الوثنيّون عبر العصور على شكل أصنام عليها تعابير الوقار الساخر أو على شكل أقنعة مرعبة ذات ابتسامات من خرز وعيون من ليف. لقد كرّست الطبيعة لهذه الروح كرسيّ الغابة المطريّة وخصّصته منصباً لها. وكما أنّ الأثاثَ المقدّس يوضع لتزيين الصالونات، ويحافظ مع هذا على شيء من القداسة، فكذلك تبقى تلك الروح في أشكال النحاس والجذوع، الخبيثة وغير المتوازنة، التي تستعمل لتدعيم الكهوف، والتي تشيع في القرى الأفريقيّة تلك الأجواء المسحورة التي كثيراً ما تؤثّر في الرحّالة الأوروبّيين.

تتحدّث أساطير وخرافات أوروبّيّة كثيراً عن هذه الروح: عن هذا الكائن، الحيّ رغم أنّه لا يتكلّم ولا يتحرّك، عن رعب الغابة، والخوف من التيه وسط الأدغال، والفزع من الشجرة. لكن على الأوروبّيّ، الذي لم يتعوّد على رخام بودلير ومعادنه فقط، بل على البلاستيك وغيره من

الموادّ المركّبة أيضاً، عليه أن يأتي إلى هنا، إلى أفريقيا، ليشعر، ولو للحظة واحدة من الخوف غير المعقول، بحضور تلك الروح التي تثير القلق.

استيقظت من هذه الأفكار بسبب حفيف بعض الأوراق التي تحرّكت. إنّهم أصدقائي يعودون، خائبين، لأنّهم لم يتمكّنوا من الوصول إلى النهر. كما أنّ هدير الشلّالات انقطع كلية وهم في وسط الطريق.

حوريّات الكاميرون الفاتنات

مكتبة
t.me/t_pdf

ري بوبا، آذار 1972

يشعر المسافر عادة بعدم الثقة والاضطراب خلال رحلته، لأنّه لا يعرف الأشخاص والأماكن ويخشى أن يخطئ أو أن يتيه. أمّا أشخاص المكان الذين يرافقون ذلك المسافر، سواء كانوا أدلّاء له أم من أصدقائه، فإنّهم يسيرون مطمئنّين بثقة من يتحرّك ضمن وسط عائليّ. لكنّ هذا لا ينطبق على أفريقيا، أو على الأقلّ على حالتنا. فالسائق فيكتور، الذي كان أسداً على مقربة من المدينة، تحوّل إلى أرنب في الأدغال التي من المفترض أن يعرفها حقّ المعرفة، لأنّه ولد فيها. فالأماكن المنعزلة تخيفه، والمفارق تضايقه، ووضع آخر الشارع يثير قلقه. وكثيراً ما يحضرني أن أقول له: «لماذا كلّ هذا الحذر والتريّث؟ إنّها بلادك، ولا بدّ أنّك تعرفها حقّ المعرفة». لكنّي أعود وأقلع عن هذه الرغبة لأنّي أفكّر أنّه لا يحذر ويخاف إلّا لأنّه يعرف بلاده حقّ المعرفة. أمّا نحن الأجانب، فنحمل خريطتنا الجغرافيّة ونسير بمحرّك اللاند روفر، ونمضي واثقين في طريقنا لأنّنا لا نعرف شيئاً عن أفريقيا.

تعبر الطرق الرئيسة في أفريقيا أراضٍ يعرف فيها زمن تاريخيّ معيّن لا يختلف عمّا هو في أوروبّا، رغم بعض الاختلافات الخاصّة بالوسط الطبيعيّ. فالشاحنات والموتيلات ومحطّات البنزين وأماكن إرسال البرقيّات والمدارس والبوليس وما شابه ذلك تبرهن كلّها على أننا تقريباً

في عام 1972، حتّى ونحن في هذا المكان. لكنّ التحييد عن الطريق الرئيسة والدخول إلى طريق فرعيّة يعني في أغلب الأحيان القفز إلى الوراء قروناً كثيرة والدخول في أزمان الإقطاع والهمجيّة، بل وحتّى فيما قبل التاريخ. لكنّ هذا القفز قروناً إلى الوراء يبقى أمراً مثيراً. ومن رأى فتى يصطاد الأرانب في الأدغال، وهو يميل بقوسه، كما كان يفعل الرماة الذين نعرفهم في منحوتات الآشوريّين البارزة، أو كفارس يتبختر بسيفه ورمحه تحت مقرنصات أسوار بعض ضواحي السودان، يدرك أنّنا نبحر في الزمان أكثر ممّا نسير في المكان، وأنّه يكفي نهرٌ في أفريقيا، أو سلسلة صغيرة من الجبال، لكي ننتقل من العالم الحديث إلى العهود الوسطى أو إلى عهد البرونز.

لكنّ السائق فيكتور يخشى أشدّ ما يخشى هذا القفز عبر العصور. فلأنّه ولد في الأدغال، كان يتقزّز من بدائيّة الوثنيّة والسحر، كما أنّ الإقطاعيّة الإسلاميّة توقظ من جهة أخرى في نفسه أثراً رجعيّاً عن غزوات العبيد. وما يعجبه الآن هو العالم الحديث بسياراته وبانعدام الغموض فيه. لذلك فعندما أقول له، عند المفرق، إنّ علينا أن نأخذ اليمين، ونتوجّه نحو مدينة ري بوبا، فإنّه ينظر إليَّ بدهشة ويقول: «لماذا ري بوبا؟ علينا أن نذهب إلى فورت – لامي. وطريق فورت – لامي هو على اليسار».

لا أستطيع أن أخبره أنّي أريد الذهاب إلى ري بوبا لأنّ هناك في مذكّرات أندريه جيد العبارة التالية المقتطفة من رسالة للكابتن كوست: «إنّ سلطان ري بوبا هو مالك كلّ الثروات لكلّ الأشخاص». ذلك أنّه لن يفهمني، بل وسيظنّ أنّي مجنون. لذلك من الأفضل، وبما أنّ الفضول الثقافيّ سيبدو له مجرّد نزوة، أن أبرّر رغبتي بنزوة واضحة قاسية ومتسلّطة، فهي قد تكون عنده مقبولة. لذلك فقد قلت له بفظاظة: «نحن نريد أن نذهب إلى ري بوبا. لماذا؟ بدون أيّ سبب. هكذا!».

جرى هذا النقاش في منتصف النهار، بعد مسيرة منعزلة من حوالي مئة كيلومتر، على مفترق طرق ضيّق في جميع جهاته تحجزه أعشاب

طويلة وكثيفة جدّاً. وكنّا لا نرى إلّا السماء التي بيّضها الحرّ، ويحلّق ببطء فيها عدد من الطيور السود الجارحة. رأينا بالفعل إشارة مائلة رسم عليها سهم وكتب عليها ري بوبا، لكنّ عزلة المكان كانت كبيرة بحيث حسبنا أنّ تلك الإشارة غير حقيقيّة. أصرّ فيكتور: «هذا ليس طريقاً، إنّي لا أرى الطريق بين الأعشاب. من يدري أين سينتهي بنا الأمر».

«لكنّها موجودة على الخريطة».

«لكنّها غير مخطوطة بالأحمر، بل إنّها ليست مخطوطة بخطّ مقطّع، بل بخطّ أبيض فقط».

«لكنّك تعرف يا فيكتور أنّه لا يوجد في أفريقيا إلّا نوعين من الطرق: تلك المعبّدة وتلك غير المعبّدة».

لا يجيب بكلمة، بل يواصل بغضب دفع السيّارة بين الأعشاب. نسير كما يمخر قارب سريع الموج العالي في البحر الهائج. فالأعشاب تشبه الأمواج، وهي تنشقّ أمامنا ثمّ تنغلق، مباشرة خلف السيّارة، علينا. والحقيقة أنّ الطريق هي مجرّد درب لعبور الماشية التي خلّفت في كل مكان روثاً ما زال رطباً يلمع وسط الأرضيّة المتربة. قلت لفيكتور سعياً لطمأنته: «لقد مرّت من هنا الأبقار، ويمكن لسيّارة لاند روفر أن تسير حيث سارت الأبقار». لكنّه صمت بغضب، وتابع قيادته بحركات تدلّ على استيائه وغضبه. ما زال أمامنا حوالي عشرة كيلومترات. في النهاية حطّم فيكتور صمته، وقال وهو يشير بإصبعه الطويلة ذات العظام الناتئة، إلى لوحة القيادة: «لدينا بنزين يكفي لعشرين كيلومتر أخرى على أبعد تقدير».

«ستنتهي الأعشاب بعد قليل، ونصل إلى بعض القرى».

«لا يوجد قرى في هذه الأنحاء».

كأنّي قلت ما قلت عن معرفة وقصد، فها هو الدرب ينشقّ خارج الأعشاب لنجد أنفسنا فجأة أمام سهل فسيح أحرقت فيه جميع الأعشاب، كما هو الأمر في هذا الموسم. يمتدّ السهل خبيثاً محروقاً،

قاحلاً كالصحراء، حتّى الأفق، بلونه الأسود من الحريق مع وجود علوات ترابيّة بنيّة اللون وهياكل شجيرات متفحّمة. وكما يحدث أغلب الأحيان في أفريقيا فإنّ آثار الإنسان تظهر، لكن لا يرى أيّ إنسان. فالفلّاحون أحرقوا حتماً هذا السهل، لكنّ أحداً منهم لا يظهر على مدّ النظر.

قال فيكتور: «أين هي القرية؟».

أجبت بشيء من الغضب: «انظر هناك في الأفق، إلى تلك الثلاث أو الأربع بقع القاتمة. تلك هي أشجار مانغو، وأشجار المانغو لا توجد إلّا قرب القرى، على الأقلّ في هذه الأنحاء من الكاميرون. فحيث يوجد المانغو، توجد القرى».

لا يبدو أنه قد اقتنع، لكنّه واصل السير. عبرنا السهل المحروق، فحصلت في النهاية على فوز متواضع. لقد تبيّنت الكتلة الدائريّة القاتمة التي تشكّلها أوراق أشجار المانغو، كما ظهرت تحت ظلالها الأكواخ. بعد دقائق وجدنا أنفسنا في ساحة القرية. كانت هناك المجموعات المعهودة من النسوة يجلسن تحت ظلال المانغو، أمام أكوام صغيرة من الفواكه والدرنات للبيع. وكان هناك أيضاً بضعة من الأطفال المعتادين ببطونهم المنتفخة وهم يلعبون بصمت، وكذلك الحمار المعهود بحافريه الأماميّين المربوطين كي لا يهرب، والذي يتنقّل بصعوبة ليقضم الأعشاب الموجودة بين الحفر. الأكواخ محاطة بسور الحصير المعروف والذي تبرز وراءه أسقف مثل قوالب الحلوى. نادينا على صبيّ، فجرى نحونا عشرة صبيان. وجدنا أنّ فيكتور بدأ يتكلّم بلغة قبيلته من محيط يأونده، لكنّ الصبية لا يفهمونه رغم ما بذلوه من جهود. لكنّ أحدهم أشار إليّ بذكاء ودعاني للّحاق به. ترجّلت عن السيّارة وذهبت خلفه على دروب رمليّة مرتجلة بين الأكواخ. فتحتْ باب كوخ عجوزٌ، عجوز جدّاً، طواها العمر في اثنتين (صدرها طويل ومسطّح يتدلّى في الهواء)، ثمّ سحبت بصعوبة بالغة سلّة مجلّلة بقطعة قماش أبيض خيطت بقصب السلّة. قصّت العجوز خيوط الخياطة وسحبت... علبة فيها خبز توست

من النوع الإنكليزيّ المغلّف بالسيلوفان. لا بُدَّ أنّه خبز نيجيريّ وصل إلى تلك القرية ومن يدري بواسطة أيّة قوافل من الشاحنات والحمير. مع ذلك اشتريت الخبز، فلا بُدَّ أن نحتاجه، وعدت إلى السيّارة. خلال غيابي القصير حدث أمر معجز بالفعل، فلقد مرّ شخص أبيض بسيّارته وقدّم معلومات حول محطّة البنزين. وهكذا فقد انطلقنا من جديد.

ها نحن مرّة أخرى في أكثر مكان أكرهه في أفريقيا كلّها، أي الأدغال. أفضّل الصحراء لأنّها على الأقلّ مكان ميّت، وأفضّل السافانا لأنّها تثمل المرء على الأقلّ برتابتها. الأدغال حيّة لكن بطريقة سخيفة، كأنّها مشتل أشجار كبير لكن لا يستطيع أن يصبح غابة، وهي رتيبة لكن من غير انتظام، مشوّهة ومضطربة. استعرضنا، يائسين، ملايين الأشجار. ثمّ ها هي جائزتنا تأتينا على غير انتظار: فالأدغال تتضاءل ثمّ تنقطع ثمّ نجد أنفسنا في مكان مفتوح، على أرض رطبة، بين أعشاب خضر برّاقة. كما نرى على مقربة منّا مرآة واسعة بهيّة من مياه قاتمة راكدة في نهر كبير منعزل. تبعثرت قطع كبيرة من الحجارة السود المكوّمة على طول شاطئ النهر، كأنّما في لعبة بين عمالقة. كان بينها حجر، أكبرها، يجثم متوازناً فوق الكوم، وكأنّه قائمٌ هناك منذ عهود ما قبل التاريخ، رائع المظهر، شاهدٌ بروعة مظهره على عمليّة حتٍّ وتآكلٍ استمرّت على مدى آلاف السنين.

على الشاطئ الثاني للنهر اصطفّت أشجار كبيرة مورقة، بصورة رومانسيّة فنّيّة، كما لو في لوحة من لوحات بوسّان أو كلاديو لورينزِه[1]. تحرس هذه الأشجار شاطئاً معشباً يظنّ المرء أنّه سيجد عليه فتاة بيضاء سرعان ما يكتشف أنّها حوريّة عارية، مثل تلك التي نراها في الرسوم ذات الموضوع الأسطوري الميثولوجيّ. لكنّنا موجودون في أفريقيا، والأماكن الطبيعيّة المنعزلة تكون مسكونة عادة بالحيوانات المتوحّشة،

1- نيكولا بوسان Poussin Nicolas 1594 - 1665 هو رسّام فرنسيّ، عاش أغلب فترات حياته في مدينة روما. وَضَع في رسوماته جوّاً من الشاعرية الساحرة. (م)

Claudio Lorenese هو كلود لورين Claude Lorrain رسام ومعماري، قضى معظم حياته في إيطاليا. (م)

بآخر من في الأرض من حيوانات فرس النهر والزرافات والأسود والغزلان والفيلة. هؤلاء هنَّ الحوريّات بالفعل، بلحمهن وعظامهنّ، التجأن إلى هذه القفار ليكنّ ممثّلات لذلك الواقع الغامض البريء، واقع سعادةٍ خارج الزمن كانت حوريّات الأساطير هي التعبير الرمزيّ عنه. لذلك فإنّ تلك الحوريّة موجودة الآن حتّى حول هذا النهر. لها جسم أسطوانيّ ضخم، ولها قوائم قصيرة مائلة مثل قوائم الكلب الصغير، ولها رأس مثل رؤوس الكرنفالات على شكل الحذاء. إنّها ليست إلّا فرس النهر. كان الحيوان غافلاً عنّا ونحن نختلس النظر إليه، برز من قلب ظلام الشاطئ، أطلّ على طرف النهر، تردّد، ثمّ انزلق واختفى في النهر، بدون ضجيج، وبدون أن يكسر سطح الماء الأسود الأملس. أعقب ذلك صمت عميق، ثمّ ارتطام بعيد عن الشاطئ، يدلّ على وجود ذلك الحيوان الضخم المغمور. ثمّ برزت عيناه الشبيهة بمرقاب بيروسكوبيّ وأذناه الصغيرتان كأذني الحصان، وقسم من ظهره القشريّ. أطلق صوتاً غريباً مدويّاً كصوت ريح تنفجر بقوّة من داخل فتحة ضيّقة، فردّ عليه صوت آخر ثمّ صوت ثالث. عندها ظهرت من تحت مرايا الماء ظهور أخرى، ومراقيب أخرى. إنّهن الحوريّات في الحمّام.

نيران وتام تام

شولّيرِه، نيسان 1972

في كتابه «العودة من تشاد»[1] وصف أندريه جيد وصوله إلى ري بوبا، مقرّ السلطان فولبِه، وقال: «رأيناهم يتقدّمون نحونا، كانوا خمسة وعشرين رجلاً يمتطون خيولهم ولهم شكل غريب، قاتم رصين. عندما اقتربوا عرفت أنّهم يرتدون دروعاً من شبك فولاذ مصقول، ورؤوسهم مغطّاة بخوذ تعلوها قمم غريبة...». يريد جيد من وراء هذا الوصف أن يقول لنا شيئين: أوّلاً إنّه استقبل في ري بوب استقبالاً حافلاً جديراً بشخصيّة شبه رسميّة من شخصيّات العاصمة تقوم بزيارة إلى المستعمرة. وثانياً إنّ سلسلة الجبال القصيرة التي تفصل أراضي سلطان ري بوبا عن بقيّة أنحاء الكاميرون، تفصل أيضاً في هذه النواحي من أفريقيا، العالم الحديث عن العهود المتوسّطة.

لست للأسف شخصيّة شبه رسميّة، كما أنّه لم يعد هناك، على الأقلّ من الناحية النظريّة، لا عواصم ولا مستعمرات. لذلك فلم يستقبلني في ري بوبا سوى بعض الكلاب المعهودة، الصفر الغبر المتضوّرة جوعاً، تتحرّك على مضض عند رؤية سيّارتنا تقترب منها، تنهض من فوق التراب حيث تجثم كالأموات في وسط الشارع. لكنّ هذا الدخول بدون رسميّات هو الذي يخوّلني، أكثر من جيد، بأن أشعر في ري بوبا

1- Retour du Tchad. (م)

بروائح العصور القديمة الجافّة الذي بقي معشّشاً بين الجدران الطينيّة لهذه المدينة العتيقة. ها هي أولى الآثار: جسر الحصير. شاهدناه من أعلى الشاطئ الذي خرجنا إليه بعد واحدة من مسيراتنا اليائسة المعهودة عبر الأدغال. اكتشفنا سريراً واسعاً للنهر تعبره عروق مياه خضراء راكدة، وألسنة رمال رماديّة، ودفقات حصى بيض. يوجد بساط ضيّق أشقر اللون يربط طرفي النهر. إنّها الحصيرة. الحصيرة نفسها، التي يسندونها في القرى بأوتاد، ويجعلونها أسواراً لقراهم. إنّها من قطعة واحدة، تزيّنها رسوم هندسيّة، موضوعة فوق عوارض خشبيّة، وهي تقود فوق النهر إلى المدينة، التي تظهر من وراء أسوارها المغبرّة المهترئة، الأسقفُ الشبيهة بقطع الحلوى وهالات المانغو القاتمة. من يدري متى سيكون لري بوبا جسر حديث، من الإسمنت أو الحديد أو الحجر أو حتّى من الخشب. لا أتمكّن، وأنا في السيّارة التي تتدحرج بنعومة على الحصيرة، إلّا وأن أتساءل: «ماذا يفعلون في موسم الأمطار؟ هل يطوون الحصيرة كما يطوى سجّاد السيرك بعد انتهاء العرض؟ أم إنّهم يتركونها تحت المطر ثمّ يصنعون واحدة جديدة؟».

دخلنا إلى ري بوبا عند المغيب، وكانت الشمس قد انخفضت ومالت، فبدأت الظلال تمتدّ وتطول. لكنّ المدينة بدت مقفرة، فعبرناها من شارع إلى آخر، ومن مجموعة أكواخ إلى مجموعة أخرى، حتّى وصلنا إلى ساحة فسيحة أمام قصر السلطان. القصر مبنيّ على طراز سودانيّ، بين عسكريّ وبربريّ، لكنّ له مظهراً فنّيّاً رائعاً، كأنّه من ديكورات المسارح، وهو جدير بصروح أفريقيا المؤسلمة: من أسواره المائلة المبنيّة بالطين الجافّ وذات المقرنصات والفتحات، وبوّابته المسقوفة بالحصير المتموّج، وأعمدته التي ليست إلّا جذوع شجر مقشورة ومبتورة الأغصان. كان هناك تحت ظلال البوّابة اثنان أو ثلاثة من الحرس الجالسين على الأرض، سيوفهم على أرجلهم، كما علّقوا على جدران إحدى الزوايا سهامهم وسيوفهم الأخرى، كما كان الأمر في

غرف رجال الحرس القديمة. مدّت شمس المغيب ظلال المقرنصات على الساحة، فضلاً عن ظلّ طفل واحد كان عارياً وواقفاً على قدميه هناك. كان ثابتاً ويحدّق فينا. التقطنا بعض الصور: لم يتحرّك الحرس، لكن ما إن اقتربنا من البوّابة، حتّى مدّ أحدهم يده كما لو أنّه يقول لنا بأن نبقى بعيدين. ثمّ ثار صخب من خلفنا، فالتفتنا، ورأينا جماعة نساء يتقدّمن، كنّ حوالي عشر، كلّهن عاريات الصدر ويأتزرن بقطعة قماش حول الوركين، وتحمل كلّ منهنّ سلّة كبيرة على رأسها. ما إن اقتربنا حتّى أسرعن الخطى من الخوف. تحتوي السلال على بعض الزاد، من فاكهة ودرنات وحبوب وخبز وقطع لحم غنم أو ماعز، من الواضح أنّ هذا الزاد هو لعشاء السلطان ولحاشيته. لكنّ النسوة اللائي أسرعن باتّجاه البوّابة، ملن إلى الأمام بصدورهنّ العارية، التي صبغتها شمس المغيب بضوئها الأحمر، وأدرن عيونهنّ نحو الحرس الذين نهضوا متكاسلين عن الأرض وبدؤوا بالنظر إليهنّ بأيديهنّ المسنودة إلى الأرداف. تذكّر هؤلاء النسوة بالهدايا الإقطاعيّة التي كان يقدّمها العبيد كلّ ليلة عبر العصور وبالطريقة نفسها. وكما يقول دليل أفريقيا الوسطى بصورة مجازيّة: «ري بوبا، مدينة مسوّرة قديمة، شهيرة بسلطانها، وما زالت حتّى اليوم تحافظ على كثير من عادات العصور الوسطى».

لا يوجد في ري بوبا مكان للنوم، لذلك فقد توجّهنا إلى شولّيرِه التي تبعد حوالي ثلاثين كيلومتراً عن المكان، وهي مدينة أخرى تابعة للسلطان، لكنّ فيها على ما يبدو موتيل. وفي الواقع فإنّنا نجده، لكن خارج المدينة، في سهل مسطّح تصطفّ فيه أشجار الباوباب الضخمة بطريقة استراتيجيّة اصطفاف المربّعات في رقعه الشطرنج. يتكوّن الموتيل من جناح مستدير كبير، بسقف مخروطيّ من القشّ. ستكون لنا غرفتنا، وسينام السائق في صالة البار. تناولنا الطعام على ضوء مصباح يعمل بالنفط، ثم خرجنا إلى الهواء الطلق، فرأينا أنّ الليل مضاء كلّه بأضواء تنير كلّ شيء في الأنحاء وصولاً إلى الأفق. يبدو أنّ الفلّاحين

يحرقون الأعشاب من أجل تجهيز الأراضي للموسم القادم. حوّلت النيران لون الليل إلى الأحمر، فظهرت مقابلها ظلال سود غريبة، ثابتة ومهتزّة. بينما كنّا ننظر إلى النيران، ها هو تام تام يظهر أمامنا. والغريب أنّه قد يقال إن ضرباته القاتمة والمنتظمة والتي لا أحد يدري مصدرها، إنّما ترافق ذلك اللهب وتنتظم على إيقاعاته. فدويُّ تام تام، ثمّ ثرثرة النيران في الأعالي، ودوّي تام تام آخر، ثمّ ارتداد الحرائق إلى أسفل. سألنا السائق عن المكان الذي تصدر منه أصوات التام تام. أجاب باقتضاب أنّ هناك حفلة في شولّيره. فقرّرنا أن نذهب إلى هناك.

تجري الحفلة في الظلام، في ساحة يطلّ عليها قصر السلطان الذي يشبه إلى حدّ كبير القصر الموجود في ري بوبا، وإن كان أصغر منه. فالأسوار بالمقرنصات هي نفسها، وكذلك البوّابة المسقوفة بسقف من حصير والأعمدة من جذوع شجر. اسودّت الساحة بحشد ناس متراصّين بدا أنّهم لم يجيئوا إلى المكان إلّا ليهرس بعضهم بعضاً، لكنّ التام تام ما يلبث أن يظهر من بين ذلك الحشد من الناس ويفرض صوته الأجوف القاتم، التأمليّ الرتيب. كأنّه صوت يتمتم في ذات نفسه بابتهال وصلاة. شقّينا طريقنا وسط الحشد حتّى وصلنا إلى أحد ضاربي التام تام. كان هناك رجل عجوز يضرب بيديه على طرف طبل أسطوانيّ كان يتدلّى من عنقه. هناك أيضاً شابّان يضربون براحات أيديهم على طبلين موضوعين على الأرض. بينما الناس متحلّقون حولهم، وقد فنجلوا عيونهم بانتباه شديد. ثمّ تقدّم أحدهم وأخذ يرقص، كأنّما نبض في جسمه نابضٌ لا يرتدُّ. وقد يقال، إنّه لم يفعل ما فعل، بسبب رغبة ألمّت به، بل فعل ذلك ضدّ إرادته، ولمجرّد أنّ سحر التام تام قد أجبره على ذلك، فرقص رغماً عنه. وقد يفسّر هذا التفسير منَعَة الراقصين التي لا تكاد تصدّق وهم يتقدّمون ويبقون ساعات طويلة وهم يحرّكون أرجلهم بحسب ذلك الإيقاع الجنونيّ المثير. إنّهم «لا يريدون» أن يرقصوا، لكنّ التام تام سحرهم، ولا يمكن لهم أن يقاوموا، لقد وقعوا ضحيّة السحر ولا يستطيعون إلّا أن يرقصوا بوجوههم البرّاقة

بسيول العرق، المدموغة بتعابير الجهد والتعب الحزين. لكنّه قد يكون من المهمّ معرفة العلاقة التي تربط رتابة التام تام ببيئة الطبيعة الأفريقيّة. وقد لا يكون رأياً متعسّفاً ذلك الذي يربط بين رتابة قرع الطبول، وبين تكرار الكثبان في الصحراء، وشجيرات الأكاسيا في السافانا، والأجمات في السهول. من المؤكّد أنّ الأثر هو ذاته: لأنّ هناك خاصيّة بيئيّة تُسْتَشفّ لساعات ولأيّام وتورث في النهاية، كما تفعل أصوات التام التام، نوعاً من توقّف الذهن عن التفكير، ومن اندهاش الأحاسيس المسْكر.

عندما ذهبنا للنوم، لمحت في الظلّ امرأتين جالستين بلا حراك على مقعد اللاند روفر الخلفيّ، ولم تلقيا التحيّة علينا. كانتا ترتديان القماش الزاهي المعهود يغطّيهما من الصدر حتّى الكاحلين، وتعتمران على رأسيهما العمامات نفسها، التي تشبه نبات القرنبيط. يبدو أنّهما جميلتان جذّابتان، وقد برّر السائق وجودهما معه تبريراً مضطرب المعالم، فقال متلعثماً إنّهما «صديقتان». ثمّ إنّي لاحظت في جلسة اللامبالاة والخمول التي يجلسانها، شيئاً ما ذكّرني بأمر جعلني أفهم أيّ نوع من الصداقة هي تلك التي أشار إليها السائق. لقد تذكّرت لوحة كارباتشو[1] وفيها وصيفتان تجلسان بالخمول واللامبالاة ذاتها بانتظار الزبائن على شرفة في مدينة البندقيّة. وفي الواقع فما إن دخلنا إلى الموتيل حتّى رأينا السائق يعضّ، في ظلام المكان، كما تعضّ الهررة، على مؤخّرة عنق إحدى الفتاتين، بينما اختفت الثانية إلى جانب الحارس.

أيقظتني بغتة، وبعد ذلك بقليل، ثرثرات بصوت ضعيف، تنطلق من ناحية البار. فنهضت وألقيت نظرة هناك. كان ضوء القمر بارداً ميّتاً، فتهيّأ لي أنّي أرى في سرير السائق خنفساء ضخمة لها ثماني أرجل سود مثل الفحم، يخرج، من تحت الشرشف الأبيض المجعّد، أربع منها من طرف الوسادة، وأربع أخرى من الطرف الآخر. تمكّنت بعد دقيقة من رؤية أربع عيون مفنجلة، تحدّق فيّ جميعها من فوق الوسادة. فلم أجد بدّاً من العودة إلى غرفتي.

1- Vittore Carpaccio رسّام إيطالي (1465-1525). (م)

عراة على الجبل

رومسيكي، نيسان 1972

ها نحن في مكان مليء بالأنقاض. لكنّها ليست أنقاض أبنية من صنع البشر، بل أنقاض عناصر طبيعيّة بلغت ذروة تشكّلها خلال عصور سحيقة في القدم. فالجبال هي أنقاض جبال، بمنحدراتها الجرداء الصلبة المنهارة، وبقممها التي تبدو مثل قصور مهدّمة. الوادي الذي يتشعّب بين هذه الأنقاض الجبليّة هو أيضاً أنقاض وادٍ آخر، لأنّ هناك كتلاً ضخمة متدحرجة كانت متعثّرة وسطه، منذ زمان، من يدري متى بدأ ومن أين جاء، وتضطرّه إلى السير في مسارات معوجّة. بل إنّ الجدول الذي يتسرّب في حلق الوادي ليس إلّا أنقاضاً لأنّه ناشف جافّ، رغم وجود آثار برك وحل سود صغيرة، تشهد على وجود المياه فيه قبل عهد قريب. هناك بين كل هذه الأنقاض صخور ضخمة غريبة، ناعمة متطاولة الأشكال، منثورة هنا وهناك، كأنّها بيوض طائر عملاق من قبل بداية التاريخ، حلّق فوق هذا المكان ثمّ وضع بيوضه فيه، وارتحل عنه قبل أن يرقد فوقها.

يأخذ الدرب بعدها بالصعود، رغم أنّه يواظب الدوران حول الوادي الضيّق، قبل أن يؤدي إلى مكان فارغ، كأنّه فوق جبل مرتفع. لكنّ شكلاً، على مقربة من الدرب، ينبعث من أعماق هاويةٍ خاوية وينتصب بتؤدة أمام السماء الصافية، كأنّه مدرّج من القمم والأبراج والقلاع الكهفيّة

المصبوغة بحمرة المغيب. إنّها جبال كاسبسيكي المماثلة لجبال الألب لدينا، والشبيهة بجبالنا هذه الشهيرة، بشكل تخيّلنا فيه أنّنا لسنا في أفريقيا بل في مناطق الألب، على بعض المرتفعات قرب كورتينا أو كاريتسا.

لكن لا يمكن تجاهل أفريقيا بهذه البساطة. فها هو على حين غرّة صوت رخيم، يرتفع خلفنا، ليقول بلغة فرنسيّة ترتعش فيها الحروف بحلاوة وطلاوة: «إلهي، ها هي أمامك ترتفع جبال كابسيكي، وهي جبل زيفي وجبل رومكي وجبل غويلّي. وهناك تشاهد أيضاً سلسلة جبال ماندارا». التفتّ فرأيت صبيّة تبتسم لي ابتسامة عريضة، بأسنان بيض برّاقة. جسمها رياضيّ يشعّ بالنضارة، عريضة المنكبين، حفر صدرها حفراً، ولها ذراعان قويّتان، أمّا رأسها الصغير، المنتصب فوق عنقها ذو العضلات الصلبة، فهو بدون جبهة ولا رقبة، بل مضموم ضمن خصلات شعرها الكثيفة القصيرة. كما كان هناك خلفها مجموعة من النساء مجتمعات كجوقة الأوبرا، بعضهنّ صبايا والأخريات مسنّات، يحمل بعضهنّ الأطفال، ويرضعنهنّ من الصدر الذي استطال بسبب الرضاعة. فكيف لنا أن نشاهد هؤلاء النسوة شبه العاريات، ونحن نعرف أنّنا لسنا في جبال الدولوميت، بل في شمال الكاميرون؟ هذا أمر محيّر، لأنّ فكرة الجبال بالنسبة لشخص أوروبّيّ تقترن على الدوام بفكرة ارتداء ملابس ثقيلة دافئة. أمّا ألّا ترتجف البشرة البرّاقة لتلك الصدور الآبنوسيّة العارية، أمام النسائم التي تهبّ من القاع الذي نطلّ عليه، فهذا ما يقلب رأساً على عقب عاداتنا الذهنيّة التي ترى في الجبال مكاناً شديد البرودة. سألت الصبيّة التي كلّمتني وأنا أشير إلى قاع الوادي السحيق الذي يغطّيه الضباب: «وماذا يوجد هناك؟».

«نيجيريا».

«نيجيريا؟ وكيف هم النيجيريّون؟».

«نحن الكاميرونيّون لا نتّفق مع النيجيريّين».

«ولماذا؟».

«لأنّ النيجيريّين يحبّون الخصام (الخناق) أمّا نحن الكاميرونيّون فأناس مسالمون».

ابتسمت ثمّ أضافت: «هل تريد أن تلتقط صورة؟».

«فلنلتقط صورة».

مكتبة
t.me/t_pdf

«هل تريد أن ترى القرية؟».

«فلنذهب!».

«يوجد في القرية حدّادون. سأريكم إيّاهم».

«فلنرَهم».

«لكن ستعطيني أنت شيئاً ما...».

«حتماً... سأعطيك».

للأسف الشديد، فبعد أن التقطت الصورة، وأنا محاط بمجموعة النساء التي أطبقت عليَّ، وبينما كنت أذهب وراء الفتاة الرياضيّة ذات الرأس الصغير باتّجاه القرية، شعرت بأنّي، وفي اللحظة نفسها التي التقطت فيها الصورة، قد تعرّضت لغزو القمل. شعرت بأنّ القمل يثب بين قميصي وبشرتي، وبأنّه بدأ يعضّني، بكلّ الشراسة التي يقدر عليها قملٌ يخز عادةً بشرات معتادة على الشمس والمطر والرياح، أي أقسى بكثير من بشرتي. وهكذا، فمع أنّي كنت أتبع دليلتي، وسط طريق ضيّقة صاعدة، مشقوقة بين صفّين من الصبّار، فإنّي أخذت بحكّ جلدي حكّاً بسيطاً وبيد واحدة، في بداية الأمر، ثمّ ما لبثت أن بدأت بالحكّ بقوّة، وبكلتا اليدين. ثمّ إنّي سرعان ما اكتشفت أنّ بعض الفتية، ممّن كانوا يلحقون بنا عن بعد، قد أخذوا يقلّدون حركاتي، كأنّهم ظلّي وقد انعكس في المرآة. غضبت بالطبع بسبب القمل، وثارت حفيظتي بسبب تلك المضايقة، فالتفتّ نحوهم لأعنّفهم بشدّة: «توقّفوا عن هذا، دعوني وشأني، اذهبوا بعيداً عنّي». كنت أتوقّع أن يجيبوا بالمثل، أو أن يمتثلوا. لكن لا شيء من هذا ولا من ذاك. إذ ها هم يجيبون بأصوات تغنّي، ويكرّرون: «توقّفوا عن هذا، دعوني وشأني، اذهبوا بعيداً عنّي». قمت بحركة تهديد بيدي، فما كان من الفتى الذي كان ورائي مباشرة، إلّا أن

التفت إلى فتى وراءه، وقام بالحركة نفسها. ثمّ إنّ الثاني التفت إلى ثالث وراءه، وكرّر الحركة مرّة أخرى، وهكذا دواليك، عبر الطريق الضيّقة، وانتهاء بآخر طابور الفتية. أي إنّهم يعصون أمري ويسخرون منّي، ليس بطريقة إيجابيّة أي بالاعتداء عليَّ، بل بطريقة سلبيّة، أي بترديد صدى أقوالي وأفعالي، وعكسها كما تنعكس الأشياء في المرآة. كلّ ذلك بما لا أعرف بأيّة سخرية وهزء وتهريج، نجدهم دائماً في كلّ تقليد محنّك ومحاكاة ساخرة بدم بارد ولامبالاة تامّة. وهكذا فقد تأكّدت مرّة أخرى من تشابه روح الدعابة المنتشرة، للغرابة، عبر كلّ أفريقيا السمراء، وهي روح غريبة ومخيفة نشأت منذ زمن سحيق، تشبه إلى حدّ ما أقنعة الآلهة المحلّية التي تبدو مرعبة بمقدار ابتساماتها الحميدة العريضة.

قمنا بعدها بزيارة القرية، مزرعة فطر من أكواخ ذات أسقف كالقبّعات، مموّهة بين العلوات والسهول الممتدّة مثل المناديل. كنّا نمرّ تباعاً بين مجموعة من الأكواخ إلى مجموعة أخرى، إلى أن شاهدنا، خارج الأبواب الصغيرة، نساء ورجال وأطفالاً يخرجون بأعداد كبيرة، متفرّقين، بلا انقطاع، إن صحّ التعبير، وكانوا جالسين القرفصاء في ظلام تلك البيوت الصغيرة. ما هي الفكرة التي تخطر على البال عند رؤية هذه الأجسام السود العارية، وهي تخرج إلى الأروقة الهزيلة ذات التراب الأحمر؟ إنّها فكرة العري: فكرة أنّ العري والكوخ أمران وجدا ليكملا بعضهما بعضاً. هذا يعني أنّ الإنسان الذي يسكن بثيابه في الكوخ، كما هو الأمر في كثير من بلدان آسيا، عليه أن يستسلم للقذارة لأنّ الكوخ مصنوع من الطين ومبنيّ على الطين. لذلك فإنّ سجّادة بعض سكّان آسيا، والرداء والسروال والعمامة وهكذا إلخ تكون دائماً لديهم مهلهلة ومغبرّة. والحلّ الوحيد الذي يتبقّى أمام مشكلة السكن في الكوخ، هو العري. يظهر الإفريقيّ عارياً، مثل الأبنوس أو مثل البرونز في كوخه، ويبقى محاطاً بأشياء عارية أيضاً: مثل أوعية السيراميك، والأدوات الحديديّة، والكراسي الخشبيّة. وكان علينا أن نفكّر بالعري في اليوم

التالي، عندما توقّفنا على مفترق يتفرّع منه طريق، أو بالأحرى مسلكٌ مليء بالحصى والحفر، يفضي إلى السهل، عبر بلدة ماتاكم الجبليّة. بينما كنّا نبحث على الخريطة الجغرافيّة عن هذا المسلك، إذ بعائلة كاملة من أشخاص عراة تخرج فجأة من مغارة صغيرة، شبه مخفيّة وراء الأشجار. كانوا شعثاً غبراً، لكنّ القبّعات تنتصب على رؤوسهم، كأنّما للإيحاء بفكرة عري أخرق، مثل الذي نشاهده أحياناً في مشافي المجانين. انهال أفراد العائلة على السيّارة، ضاحكين مسعورين، وهم يعرضون علينا شراء بعض الأدوات الفخّاريّة التي صنعوها بأيديهم، مثل الناي لكن على شكل العضو الذكريّ. ألاحظ أنّ عريهم قد أصبح واضحاً، إذا صحّ التعبير، بسبب البشاعة: فكلّهم لهم بطون منتفخة تبرز منها السرّة مثل سدّادات الأذن، والأرجل تحت البطون نحيلة مجعّدة وصلبة. أمّا صدور النساء فمتدلّية مترهّلة. حتّى ليقال إنّ المرء لا يلاحظ هذه الأمور إلّا لأنّها قبيحة. أدركت إذن حين كنت أنظر إليهم، أنّ الجمال «يكسو»، أي إنّ الجسم الجميل لا يكون عارياً بالفعل أبداً. لذلك فإنّ العصابيّة لدى ما يسمّى بالبدائيّين، والقويّة لديهم مثل ما هي لدى ما يسمّى بالمتحضّرين، بل أقوى من ذلك، تعبّر عن ذاتها من خلال القبح. بينما يبقى الجمال جميلاً ويشير في حدّ ذاته إلى غياب العصابيّة.

يدور المسلك الذي عبرناه ثمّ يدور، ويصعد وينزل عبر منطقة غريبة مسحورة، مليئة بالتلال وبقرى مموّهة بين التلال، وبشكل يحمل على التفكير ببعض اللوحات الفنيّة القديمة التي تصوّر بعض أماكن التبتّل والعبادة النائية في الشرق. ثمّ، عند المنعطف، ها هو الأفق ينفتح فجأة تحتنا على سهل فسيح أصفر وأخضر تكثر فيه بقع الشجيرات الخضر القاتمة الكثيفة. إنّها السافانا، وهي أقدم من الصحراء، التي تمتدّ بعد ذلك برتابة وبدون مرتفعات، حتّى تصل إلى ليبيا.

سوق في فورت-لامي

فورت-لامي، نيسان 1972

الشاري هو نهر أفريقيّ كبير يصبح عريضاً جدّاً عند فورت-لامي، وثابت المياه، شبه راكد، في فسحته المترامية بين شطآن منخفضة عارية، وبشكل يجعلها تظهر، تحت ضوء المغيب الخافت، كأنّها مقلة عين واسعة ناعسة، بلا رموش ولا حاجب. جلست في حديقة الفندق، على شاطئ النهر، وأنا أتأمل قرص الشمس الأحمر، الضخم بحيث يظن المرء أنّ بوسعه أن يلمسه. هناك خيال أسود لرجل يجدّف في سفينته، ينزلق على سطح الماء أمام قرص الشمس، فيبدو كأنّه رسمٌ من كتابات ما قبل التاريخ خطّت على جدران الكهوف. ما أجمل الأنهار الأفريقيّة! أنهار قد يظنّ أنّها بلا شواطئ، تمتدّ المياه على طولها حتّى الأفق فيخيّل للمرء أنّها تختلط بالسماء. أنهار هامدة، عميقة، عاكسة. أنهار فرس النهر: يطفو هذا الحيوان البريء في النهار، ولا يظهر إلّا مراقيب عينيه وحدبة ظهره، أمّا في الليل فهو يفضّل تسلّق الشاطئ والتجوّل بين نباتات البرديّ والأقصاب، على ضوء القمر، في جماعات عائليّة عاشبة سهّيرة، مؤلّفة من الذكر والأنثى وحيوان أو حيوانين من صغارهما، كلّها بوزن بالأطنان، ومع ذلك فهي وديعة مثل الماعز...

لكن ها هو المبعوث الخاصّ للمجلّة. كان هو أيضاً يجلس على الشرفة منذ ردح من الزمن، أمام الشمس، لكن لا ليتأمّلها، بل كان ينظر

إليَّ. في النهاية نفد صبره، فتناول كأسه وزجاجة البيرة التي كان يحتسيها وانتقل بهما إلى طاولتي:

«لقد تقابلنا هذا الصباح. هل تسمح؟».

«العفو».

«هل أنت ذاهب إلى تيبستي؟».

«كان بودّي، لكنّ هذا ليس ممكناً، هناك حرب العصابات».

المبعوث الخاص رجل صغير القامة، رأسه ضخم جاحظ العينين وشعره متناثر خلف رأسه، مثل شخص يتأمّل الطبيعة على نافذة قطار مسرع. ثمّ أضاف مزهوّاً: «أمّا أنا فسأذهب. لأنّي أعرف الكولونيل الفرنسيّ، وسآخذ إذن الدخول. أمّا إذا لم آخذه، فسأذهب إلى طرابلس، إنّي أعرف القذافي، وسأنزل بعدها من ليبيا حتّى زؤار. ما رأيك بتشاد؟».

«أكاد ألّا أعرف عنها شيئاً. لقد جئت البارحة من الكاميرون».

«تشاد، بلد مثير جدّاً للاهتمام، تتصالب فيه الأعراق والأجناس وتجتمع فيه المصالح. وهو بلد برمائيّ، إمّا صحراء وإمّا ماء. بلد مجزّأ بين أفارقة مؤسلمين وأفارقة مسيحيّين. ويبدو أنّ الأخيرين قد سادوا الآن، بعد دعم الفرنسيّين لهم. لذلك فإنّ الأفارقة المؤسلمين قاموا بحرب عصابات قوميّة ضد الإمبرياليّة.

«هل العصابات قويّة؟».

«قد يصل عدد بعض الجماعات إلى مئتي أو ثلاث مئة رجل. خمّن من يدعمهم؟».

«لا أدري، لا أعرف».

«هناك قبل الجميع ليبيا بالطبع. لكن بعدها، لا يمكن لك أن تتخيّل، ألمانيا الاتّحاديّة».

«غير معقول!».

«هذه هي الحقيقة. سلاح وموادّ. وهل تعرف لماذا؟».

«لا».

«أورانيوم النيجر، قريب من هنا، لهذا فإنّ الفرنسيّين قد عملوا على إنشاء مدينة في الصحراء. أي إنّنا كالعادة في خضمّ الصراعات الإمبرياليّة. إذا سقطت تومبالباي فإنّ كلّ التحالف مع فرنسا سيسقط. لهذا فإنّ فرنسا تتوسّع في المساعدات...».

«من هم رؤساء حرب العصابات؟».

«هل تعني المقاتلين أم الذين يمسكون بالخيوط؟ أعتقد أنّ جميع الأخيرين موجودون هنا، في فورت-لامي. ومن المفترض أن أجتمع بهم، عليّ أن أبقى هنا لمدّة شهر. يوجد هنا في فورت-لامي منجم أخبار. يكفي أن تحفر فتنبع الأخبار كالنبع، كما ينبع البترول في الصحراء. لكن إذا لم تحفر، فإنّ كلّ شيء سيبدو عاديّاً، هادئاً، مسالماً».

وهنا بدأ المبعوث الخاصّ يثور ويفور، وهو يحرّك ذراعيه هنا وهناك. ثمّ صاح: «إنّها الآن حرب البعوض، لا أستطيع أن أقاوم، سأهرب». ثمّ نهض، حيّاني وانصرف.

كان عليّ في اليوم التالي أن أعطي الحقّ للمبعوث الخاصّ. فإذا لم نحفر في هذا المنجم، أي منجم أخبار فورت-لامي، فلن نرى إلّا ما نراه في مناطق المناجم قبل الحفر: كلّ شيء عاديّ تحت الشمس ووسط الهدوء. ها هو الحيّ الفرنسيّ بسعته العمرانيّة الباريسيّة، من ساحات دائريّة واسعة ومزيّنة ببرك تزيينيّة كبيرة، شوارع عريضة مظلّلة تحيط بها حدائق الفلل الجميلة والفنادق الفخمة. ثمّ ذاك هو الحيّ الأفريقيّ، جدران طينيّة، متاهة من الطرق الرمليّة بين أكواخ ذات سقوف من قشّ، ناس مزدحمون في جيئة وذهاب بدون انقطاع. لكن ها هو كلّ شيء عاديّ، سواء وسط الصمت في سكون الحيّ الفرنسيّ، كما في ازدحام وضجيج الحيّ الأفريقيّ. هذا على السطح فقط، على أقلّ تقدير. من المؤكّد أنّه يجب أن نحفر. لكن ألا يكفي المبعوث الخاص ليقوم بعمليّة الحفر؟

هناك شارع واسع مظلّل يقسم إلى قسمين السوق الضخم الشهير،

أي مركز حركة تشاد التجاريّة: فهناك على اليسار المنتجات الغذائيّة التي تبيعها النساء على الأغلب، وعلى اليمين بقيّة المنتجات المصنّعة، التي يبيعها رجال على الأرجح. يتوافق هذا التقسيم ربّما مع وظائف اقتصادية مماثلة في المجتمعات العائليّة والقبليّة. فعلى النساء الدعم الغذائيّ، وعلى الرجال التصنيع. لنبدأ بالقطاع الأنثويّ، حيث يوجد جناح فسيح جيّد التهوية ومزدحم، وهو يضمن للبضاعة التي يمكن أن تفسد بسهولة، الظلال والوقاية من شمس أفريقيا العنيفة. أخذنا بالتجوال بتكاسل بين الحشد، ونحن ننظر ونتصنّع أنّنا نبحث عن شيء محدّد. ها هي الخضار والفواكه الطازجة الجميلة، ها هي البذور والطحين والقمح، بمجموعات منوّعة وذات ألوان تختلف اختلافاً لا يوصف، موضوعة على شكل أهرامات صغيرة، مثل البودرة في المصابغ. وها هي أنواع مختلفة من الأسماك، واللحوم القاتمة اللون والمغطّاة بالذباب، وها هي حيوانات الدجاج والماعز والخراف، حيّة ذليلة، مربوطة، مرميّة على الأرض بين أقدام الزبائن. الحقيقة أنّ هذا ما نشاهده في جميع أسواق العالم، وإذا كان هناك من شيء مختلف فهنّ البائعات. إنّهنّ في الأكثريّة نساء شابّات جميلات، شعرهنّ مسرّح في جدائل ناعمة تسترسل من الرأس حتّى الجبهة، فالخدود، فالأعناق. بعضهنّ وضعن خاتماً مغروساً في طرف الأنف. ويغطّي قماش بهيج الألوان أجسامهنّ من الصدر حتّى الكاحلين. يجلسن القرفصاء على الأرض أمام منتجاتهنّ، كأنّهنّ جامدات نائمات، لكن سرعان ما يستيقظن على سؤال الزبون، بانهماك ومشاركة تتعدّى حدود البحث عن الأرباح لتدخل في مجال رغبة التسلّط الغامضة. وهذا ما يفسّر تربّع تلك النسوة بالذات، بعد ثورات العالم الثالث، على كراسيّ المكاتب الحديثة المكيّفة بالتكييف المركزيّ، لكنّهن لا يضعن حينها خاتماً على أنوفهنّ، ولا يرسلن جدائلهنّ، ولا يرتدين الأقمشة ذات الألوان الهمجيّة، لكنّهن يحافظن على مشاركتهنّ اليقظة المتحمّسة، وهنّ يعملن بأعمال التوزيع بالجملة للحبوب نفسها، وللفاكهة نفسها، وللّحوم نفسها التي يبعنها هنا، الآن، بالمفرّق عبر أسواق التجزئة في اقتصاد ما زال في مرحلة الإحباط.

ويثير الفضول أنّي لا أتمكّن من تشكيل أفكار مماثلة في قطاع المواد المصنّعة التي يبيعها الرجال. فالتجّار الملفوفون بملابس بيض، والواقفون خلف بضاعتهم المعروضة فوق الطاولات على طريقة الأسواق الشرقيّة، يصعب علينا أن نتخيّلهم موظّفين منطقيّين وفعّالين، خلف مكاتب أوروبّيّة، وفي غرف بيروقراطيّة، وليسوا، كما هم الآن، منهمكين ومتربّصين. ومن الغريب أنّنا نتخيّل أنّ النساء يتحوّلن تحوّلاً جذريّاً، لأنّهنّ أشدّ خلابة، أو هكذا يظهرن. ويضاف أيضاً أنّ الثورة الاجتماعيّة والاقتصاديّة تتدعّم هنا بالثورة الأنثويّة، وهي في العالم الثالث أكثر حداثة وأقوى صداماً. من المؤكد على كلّ، أنّ شيئاً ما يضيع، بشكل نهائيّ، خلال الانتقال من أسواق الشوارع إلى التخطيط. من ذلك مثلاً العروض الرائعة لمستحضرات التجميل. إذ لن نرى ثانية ذلك البريق الأشقر للعديد من القوارير المزيّنة بلصاقات فضّيّة سخيفة. حيث تبدو القوارير شبيهة بقوارير العطور الباريسيّة التي تعود لعدّة عقود مضت، والتي جيء بها على الأرجح من القاهرة أو بيروت وعبئت من جديد بدهون وعطور مصنّعة خصّيصاً لزبائن أفريقيا السمراء.

ولنرجع الآن إلى الشارع. ها هو طابور من النساء الفريدات بالفعل. جدائلهنّ منتصبة على رؤوسهنّ المحلوقة، انتصاب الدبابيس فوق حمّالة الدبابيس، مع وجود بعض ندبات الجروح الغريبة المتوازية على خدودهن. يجلسن القرفصاء على الأرض، منهكات، ولا يبعن شيئاً، ربّما كنّ بانتظار حافلة باص محطّمة تنقلهنّ إلى من يدري أيّة قرية في متاهات الأدغال البعيدة. نعود لنتفاوض مرّة أخرى حول كلفة الصورة، وعندما نهمّ بالتقاطها، يوقفنا صوت قريب: «لماذا تلتقطون الصور لهؤلاء النساء؟ مع أنّكم لا تسمحون لأنفسكم بفعل الشيء نفسه في بلادكم؟». كانوا ثلاثة شباب، طلّاب على الأرجح، بدؤوا بتوبيخنا بعنف وطنيّ. أجبنا بأنّ الجميع في بلادنا يصوّرون الجميع. فهزّوا أكتافهم وقالوا إنّنا مستعمرون جدد. على حين غرّة ظهر المبعوث الخاصّ. «صور؟ أما زلنا

عند هذه النقطة؟ أمّا أنا فأحيّيكم، سأسافر. لم يبقَ لي هنا في فورت-لامي شيء أفعله. سأذهب إلى طرابلس. أخبروني أنّها منجم أخبار حقيقيّ. يكفيني حفراً...».

مكتبة
t.me/t_pdf

أعمال مورافيا

.1	L'IMBROGLIO	الخديعة
.2	LA MASCHERATA	القناع
.3	I SOGNI DEL PIGRO	أحلام الكسلان
.4	L'AMANTE INFELICE	العاشق التعيس
.5	AGOSTINO	آغوستينو
.6	LA ROMANA	امرأة من روما
.7	LA DISUBBIDIENZA	العقوق
.8	GLI INDIFFERENTI	اللامبالون
.9	L'AMORE CONIUGALE	الحبّ الزوجيّ
.10	IL CONFORMISTA	الممتثل
.11	I RACCONTI 1927 -1951	حكايا 1927-1951
.12	ROMANZI BREVI	قصص قصيرة

.13	RACCONTI ROMANI	قصص من روما
.14	IL DISPREZZO	الاحتقار
.15	RACCONTI SURREALISTICI E SATIRICI	قصص ساخرة ومن ما وراء الخيال
.16	LA CIOCIARA	فتاة من منطقة شوشاريا
.17	NUOVI RACCONTI ROMANI	قصص جديدة من روما
.18	LA NOIA	السأم
.19	L'AUTOMA	التلقائي
.20	LE AMBIZIONI SBAGLIATE	المطامح الخرقاء
.21	L'UOMO COME FINE	الإنسان هدفاً
.22	L'A TTENZIONE	الانتباه
.23	IO E LUI	أنا وهو
.24	A QUALE TRIBÙ APPARTIENI?	إلى أيّة قبيلة تنتمي
.25	BOH	بَهْ
.26	LA BELLA VITA	الحياة الحلوة
.27	LA VITA INTERIORE	الحياة الباطنيّة

.28	1934	1934
.29	L'INVERNO NUCLEARE	الشتاء الذريّ
.30	L'UOMO CHE GUARDA LA COSA	الرجل الذي ينظر إلى الشيء
.31	VIAGGIO A ROMA	رحلة إلى روما
.32	LA VILLA DEL VENERDÌ	فيلّا ليوم الأحد
.33	PASSEGGIATE AFRICANE	نزهات أفريقيّة
.34	LA DONNA LEOPARDO	المرأة النمرة
.35	UN'IDEA DELL'INDIA	فكرة عن الهند
.36	DIARIO EUROPEO	مذكّرات أوروبّيّة
.37	LA COSA E ALTRI RACCONTI	الشيء وقصص أخرى
.38	IMPEGNO CONTROVOGLIA	التزام ضدّ الإرادة
.39	LETTERE DAL SAHARA	رسائل من منطقة الصحارى
.40	TEATRO	مسرح

ملاحظات الناشر الإيطاليّ

استجابت دار نشر بومبياني للدعوة التي قامت بها حملة «الكتّاب أنصار الغابة» المدعومة من حركة السلام الأخضر.

لذلك فقد طبعنا هذا الكتاب على ورق تمّ تدويره بدون استعمال الكلور ولا اللجوء إلى قطع شجرة واحدة.

لمزيد من الاستعلامات، يرجى مراجعة:

http://www.greenpeace.it/scrittori/

هنا يمكننا أن نبدأ بالقول إنّ مورافيا كان أستاذاً في «أدب الرحلات» الذي خصّص له قسماً كبيراً من أنشطته ككاتب، أي «حوالي صفحة تحقيق مقابل ثلاث صفحات من الرواية».

تعود المقالة الأولى الخاصّة برحلات مورافيا إلى ٤ تشرين الثاني ١٩٣٠ وكانت رواية «اللامبالون» قد صدرت قبل ذلك بسنة وسط نجاح كبير وقد نشرت وقتها في جريدة «لا ستامبا» في تورينو تحت عنوان: «الوصول إلى لندن». وكانت تلك بداية سلسلة من الرحلات والمقالات التي لم تنقطع إلّا بموت الكاتب عام ١٩٩٠، والتي كانت متعلّقة بجميع القارّات (عدا أستراليا والقطب الشمالي) مع زيارات متكرّرة لكلّ من آسيا وأميركا وأفريقيا.

كان مورافيا إذن رحّالة كبيراً إلى جانب كونه كاتب رحلات كبير، خاصّة أنّ كلّ زيارة قام بها إلى بلد أجنبيّ تمخّضت (بل كانت بسبب ذلك. هذا على ما جاء في «سيرة ذاتيّة أدبيّة مختصرة» حيث قال الكاتب إنّه كان يسافر كمبعوث خاصّ للصحف «في محاولة لشغل نفسه بطريقة ما وتمضية وقته») عن نشر تحقيقات في جريدة «غازيتّا ديل بوبولو» -في الثلاثينيّات-، وفي جريدة «لا نوّفا سامبا» -في الأربعينيّات-، وفي مجلّة «أيوروبّيو» -في الأربعينيّات والخمسينيّات-، وفي جريدة «كوريره ديلّ سيرا» خلال كلّ العقود اللاحقة.

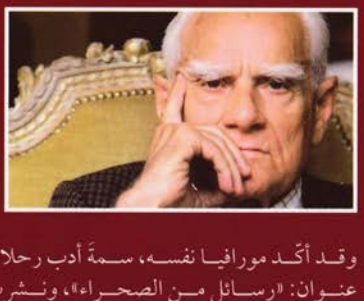

وقد أكّد مورافيا نفسه، سمةَ أدب رحلاته، في أولى مقالاته التي صدرت تحت عنوان: «رسائل من الصحراء»، ونشرت بعد ذلك، في عام ١٩٨١، في كتاب بالاسم نفسه. وكأنّ القصد كان مجرّد كتابة المذكّرات: «هنا أبدأ صحيفة رحلتي...» لكنّه تحوّل فيما بعد إلى ما بدا في عنوان المراسلات نفسه: «رسائل من الصحراء». وقد ظهرت إرادة مورافيا الرحّالة بشكل واضح في جميع كتاباته: «الانطباعات التي سأقدّمها في هذه المذكّرات ستكون (بصريّة) بالدرجة الأولى، أي إنّي سأصف كلّ ما أرى فضلاً عن (مغزى) ما أرى، لكن ليس أكثر من المغزى، أي ليس ما أفكّر به عندما رأيت ذلك الأمر. هذا يعني أنّها ستكون مذكّرات سائح.

ISBN 978-9933-6040-8-0

telegram
@t_pdf